الأمثال في رسائل النور



الأمثال
في رسائل النور

د. الشفيع الماحي أحمد
جامعة الملك سعود- الرياض

بسم الله الرحمن الرحیم

تمهيد

تخلل تفسير النورسي وشرحه للعديد من الآيات القرآنية التي حملت اسم (رسائل النور) كعنوان رئيسي لها، على الكثير من الأمثال والتشبيهات ليس فقط تجسيداً أو تجسيماً لمعانيها، ولا إبرازها بصورة جلية وواضحة، بل أيضاً لكونها تمثل جزءً لا يتجزأ من رسائل النور نفسها.

غير أن طبيعة الأمثال والتشبيهات العلمية، وقوتها الفريدة على تقريب المعنى فهماً وتصوراً وتعقلاً وحفظاً، وقبول النفس لها، وسرعة انفعالها وتأثرها بها. جعلها تبدو كما لو كانت إضافة لرسائل النور ومتممة لها، ومن ثم نظر إليها كشواهد مستقلة ومنفصلة عن معانيها، مما حدا بالنورسي إلى بيان ما حمله على ذلك بقوله:

"إن سبب إيرادي التشبيه والتمثيل بصورة حكايات في هذه الرسائل هو تقريب المعاني إلى الأذهان من ناحية، وإظهار معقولية الحقائق الإسلامية، ومدى تناسبها ورصانتها من ناحية أخرى، فمغزى الحكايات إنما هو الحقائق التي تنتهي إليها والتي تدل عليها كناية، فهي إذن ليست حكايات خيالية، وإنما حقائق صادقة".[1]

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 45

وبهذا التعليل أعاد النورسي الأمثال إلى رسائل النور، وذلك لتشكل في سياق أحاديثه وكتاباته أداة لا غنى لها لتفسير الآيات القرآنية، وبما يناسب استعداد قراءته ومستمعيه العقلية، وقدراتهم الذهنية على الفهم والاستيعاب، حتى يتحقق لأبسط الناس وأقلهم دراية، اكتشاف المعنى الحقيقي لأقواله اكتشافاً ذاتياً نابتاً من دواخله، بحيث يبقى المعنى والمضمون مقروناً على الدوام بمثاله وصورته، ويحل محله إن غاب أو اختفى من الذهن.

وتهدف الفصول التالية إلى استعراض تلك الأمثال والتشبيهات بالشرح والتحليل بوصفها جزءً لا يتجزأ من رسائل النور.

cxbcxb

الفصل الأول

اللّه جَلّ جلاَلُهُ

بسـم الله

شُرعت البسملة عند ابتداء الأعمال الصالحة والخيرة بقصد أن تأتي على الدوام مقترنة ببركة الله تعالى، واستخدم حرف الباء عند بداية الكلمة ليقوي من ذلك الاقتران وتلك المقارنة، وليفيد في دلالته المجردة على معنى الملابسة والمصاحبة والإلصاق، أي مخالطة اسمه تعالى ومجامعته لجوانب العمل المختلفة، وذلك زيادة من البركة وثبات على صلاح العمل وخيريته، ثم نسبة ذلك كله لله تعالى.

أما إضافة لفظة اسم إلى الله تعالى، فمرجعه إلى أن تلك الأعمال هي للمسلم وحده، ومن ثم فإن اسم الله هو الذي يجب مقارنته لها واقترانه بها، لا ذاته العلية، وذلك لأن الأعمال التي يطلب فيها العبدُ التيسير والعون والقوة هي التي يتوجه فيها إلى ذاته مباشرة، باعتبار ما لله من صفات القدرة والخلق والتكوين وغيرها، في حين أن الأعمال التي يقصد ويراد بها التمييز والانتساب إلى الله هي التي يتوجه فيها إلى اسم الله تبركاً وتيمناً.

ولأجل هذا عدت البسملة في ظاهرها من السمات الدالة على الإسلام، وشعار ورمز للمسلمين، ومن العلائم المميزة لهم عمن سواهم من الناس، أما في حقيقة أمرها الباطنة فهي وكما يذهب

النورسي قوة هائلة لا تنفد، وبركة واسعة لا تنضب أبداً، فمثّل لها بحكاية قصيرة، استهلها بقوله:

"إن البدوي الذي يتنقل في الصحراء، ويسيح فيها، لابد له أن ينتمي إلى رئيس قبيلة ويدخل تحت حمايته، كي ينجو من شر الأشقياء، وينجز أشغاله ويتدارك حاجاته، وإلا فسيبقى وحده حائراً مضطرباً أمام كثير من الأعداء، ولا نهاية لها من الحاجات".[1]

فحياة الصحراء تفرض على ساكن البادية، حيث لا سلطة يلجأ إليها عند الحاجة، ولا قوة تحميه من الأعداء، أن ينتسب إلى قبيلة لها شيخ، فيحمل شعارها وسماتها الدالة عليها، وبالتالي يمنحه هذا الانتساب قوة واقتدار تمكنه من التنقل من مكان إلى آخر بكامل الثقة والاطمئنان على سلامته الشخصية، وتتيح له قضاء حاجاته ومطلوباته بلا خوف من الأغيار ولا نفور منهم.

أما الحكاية نفسها فرواها قائلاً:

"وهكذا، فقد توافق أن قام اثنان بمثل هذه السياحة، كان أحدهما متواضعاً، والآخر مغروراً، فالمتواضع انتسب إلى رئيس، بينما المغرور رفض الانتساب. فتجولا في الصحراء، فما كان المنتسب يحل في خيمة إلاّ ويقابل بالاحترام والتقدير بفضل ذلك الاسم، وإن لقيه قاطعُ طريق يقول له:

- إنني أتجول باسم ذلك الرئيس.

فيتخلى عنه الشقي، أما المغرور فقد لاقى من المصائب والويلات مالا يوصف، إذ كان طوال السفرة في خوف دائم ووجل مستمر، وفي

(1) الكلمات – النورسي، ص 6

تسول مستديم، فأذل نفسه وأهانها". [1]

فالحكاية إذن تروي اتفاق اثنين على الطواف ببلاد هي كالصحراء القاحلة، لا سلطة ولا قانون، ولكن كل منهما على طرفي نقيض:

- فالأول متواضع، بعيد عن التكبر، عارف بحجمه، وفي داخل نفسه يشعر بالفقر والافتقار.

- أما الثاني فمغرور، مخدوع النفس، بما وهب له من قوة واقتدار، وبها يتباهى ويتفاخر، مع تكبر وتعظم ظاهرين.

وفي الوقت الذي اتجه فيه المتواضع وكنتاج طبيعي لما يحس به من ضعف في نفسه إلى الانتماء إلى رئيس، فحمل شعار رئاسته ورمز سلطته، طرح المغرور فكرة الانتماء جانباً ولم يقبلها، مؤثراً عليها ما سولت إليه به نفسه من أنه أصيل لا يحتاج إلى غيره في الفعل والحركة، وغنى في ذاته لا يفتقر لسواه.

وأثناء الرحلة أو السياحة برزت أهمية الانتماء وقيمة الانتساب:

- فالمتواضع طاف بالبلاد عزيز النفس مطمئن القلب، لا يخشى عدواً ولا يرجو صديقاً. ويقابل في حلّه وترحاله بالودّ والترحاب، لا لذاته، بل لما يحمله من نسبة وانتساب إلى تلك القوة التي يتحرك باسمها.

- أما المغرور فعلى العكس منه، لا يخطو خطوة إلاّ بعسر ومشقة، ولا يقابل إلاّ بالجفاء والصدود، وعرضة لخطر اللصوص وغدر الأعداء، وهكذا ظل طوال الوقت يعاني من ويلات القلق والاضطراب

(1) الكلمات – النورسي، ص6

والخوف من المستقبل المجهول، فأورثه هذا وذاك صغار النفس وهوانها، وذلتها وانكسارها.

وفسر النورسي الحكاية التمثيلية بمقدمتها الاستهلالية بقوله:

"فيا نفسي المغرورة اعلمي أنك أنت ذلك السائح البدوي، وهذه الدنيا الواسعة هي تلك الصحراء، وأن فقرك وعجزك لا حد لهما، كما أن أعداءك وحاجاتك لا نهاية لهما، فما دام الأمر هكذا. فتقلدي اسم المالك الحقيقي لهذه الصحراء وحاكمها الأبدي لتنجى من ذل التسول أمام الكائنات، ومهانة الخوف أمام الحادثات".[1]

وعلى هذا فالبدوي في المثل مجاز للنفس البشرية المعروفة بداهة بغش صاحبها وخداعه، وتزيين ما يوهم أنه حق وصواب، والصحراء هي الحياة الدنيوية، والنفس لا يمكنها لشدة ضعفها، وذلها ومسكنتها، واختلاف مطالبها الحياتية، وكثرة أعدائها. من أن تحيا بسلام وطمأنينة إلا بالانتساب لمالك الحياة وسيدها، فتحمل اسمه شعاراً ورمزاً لها، عندئذ تتحرر من أمرين:

- ذل الحاجة إلى الأغيار.
- وذل الخوف مما تخبئه الأيام القادمة.

وأخيراً علق النورسي على المثل وتفسيره مبيناً فيه ما تحمله البسملة من معاني سامية، وما فيها من طاقات قاهرة، وما تدفع به في النفس من نشاط على الحركة وإخلاص في العمل قائلاً:

"نعم إن هذه الكلمة الطيبة بسم الله كنز عظيم لا يفنى أبداً، إذ بها يرتبط فقرك برحمة واسعة مطلقة أوسع من الكائنات، ويتعلق عجزك بقدرة عظيمة مطلقة تمسك زمام الوجود من الذرات إلى المجرات،

---

(1) الكلمات – النورسي، ص6

حتى إنه يصبح كل من عجزك وفقرك شفيعين مقبولين لدى القدير ذي الجلال".[1]

وهنا يكشف النورسي عن جانب آخر من جوانب عظمة البسملة، وهو أن عجز المسلم وفقره يتعلق بواحدة من أخص صفات الألوهية والربوبية، فالفقر يرتبط بالرحمة، والضعف بالقدرة، وذلك يعنى أن العبد بقوله بسم الله في كل عمل من أعماله يخاطب مباشرة رحمة من الله هي له إنعام وأفضال، وقدرة مطلقة تنفى العجز، عندئذ لا يعد الفقر فقراً ولا العجز عجزاً، بل يتحولان إلى شافعين، لا يرفض لهما سؤال ولا يرد لهما طلب.

ولا يقف ذكر اسم الله عند حدود الإسلام، ولا يقتصر على المسلمين وحدهم، بل يتعداه ليشمل مخلوقات الله غير العاقلة، فتذكر هي الأخرى اسم الله تعالى ولكن بلسان حالها، ومهد النورسي لذكرها ذلك بقوله:

"نعم، فكما لو رأيت أحداً يسوق الناس إلى صعيد واحد ويرغمهم على القيام بأعمال مختلفة، فانك تتيقن أن هذا الشخص لا يمثل نفسه، ولا يسوق الناس باسمه وبقوته، وإنما هو جندي يتصرف باسم الدولة، ويستند إلى قوة سلطان".[2]

يعني أن مقدرة ذلك الإنسان وسعة اقتداره على تحريك الجموع الكبيرة وإذلالهم لأداء مختلف الأعمال، ينبئ أن فعله ذلك ليس بقوته

---

(1) الكلمات – النورسي ص7

(2) الكلمات – النورسي ص 7.

الذاتية، ولا يستند فيه على اسمه الشخصي، بل هو باسم جهة ما هي مصدر اقتداره ومنبع قوته.

ثم تناول النورسي بعد هذا نماذج من تلك المخلوقات مبيناً من خلالها كيفية تلفظها باسم الله تعالى، قائلاً:

"فالموجودات أيضاً تؤدي وظائفها باسم الله، فالبذيرات المتناهية في الصغر تحمل فوق رؤوسها باسم الله أشجاراً ضخمة وأثقالاً هائلة، أي أن كل شجرة تقول باسم الله، وتملأ أيديها بثمرات من خزينة الرحمة الإلهية وتقدمها إلينا.

وكل بستان يقول بسم الله فيغدو مطبخاً للقدرة الإلهية تنضج فيه أنواع من الأطعمة اللذيذة.

وكل حيوان من الحيوانات ذات البركة والنفع – كالإبل والمعزى والبقر – يقول بسم الله، فيصبح ينبوعاً دفاقاً للبن السائغ، فيقدم إلينا باسم الرزاق ألطف مغذ وأنظفه.

وجذور كل نبات وعشب تقول باسم الله وتشق الصخور الصلدة باسم الله، وتثقبها بشعيراتها الحريرية الرقيقة فيسخر أمامها باسم الله وباسم الرحمن كل أمر صعب وكل شيء صلد".[1]

ومفاد ذلك أن كلمة (بسم الله) المنطوقة بلسان حال تلك المخلوقات هي بمثابة نقطة ارتكاز تستند عليها في أداء وظائفها الحياتية، وقوة تنجز بها من الأعمال ما يعد – إذا قورنت بأحجامها – من قبيل المعجزات وخوارق العادات، وهي بهذا تعلن بأنها كغيرها ممن وهبوا العقل، وخصوا بالفهم عنه، تنتسب إلى الله بصفة

---

(1) نفس المصدر.

المخلوقية، وتلك النسبة هي سبب لكل ما يصدر عنها من أعمال، وتحمل تبعاً لذلك الاسم كشعار ورمز تظهر به عبوديتها القهرية لله تعالى.

اسم الله الأعظم

شبّه النورسي مظاهر وتجليات اسم الله على الوجود بالسلطان الذي له:

"عناوين مختلفة في دوائر حكومته، وأوصاف متباينة ضمن طبقات رعاياه، وأسماء وعلامات متنوعة في مراتب سلطنته. فمثلاً: له اسم الحاكم العادل في دوائر العدل، وعنوان السلطان في الدوائر المدنية، بينما له اسم القائد العام في الدوائر العسكرية، وعنوان الخليفة في الدوائر الشرعية، وهكذا له سائر الأسماء والعناوين، فله من كل دائرة من دوائر دولته مقام وكرسي بمثابة عرض معنوي له.

وعليه يمكن أن يكون ذلك السلطان الفرد مالكاً لألف اسم واسم في دوائر تلك السلطنة، ومن مراتب طبقات الحكومة، أي يمكن أن يكون له ألف عرش وعرش في العروش المتداخل بعضها في بعض، حتى كأن ذلك الحاكم موجود وحاضر في كل دائرة من دوائر دولته، ويعلم ما يجري فيها بشخصيته المعنوية. وهاتفه الخاص، ويشاهد ويشهد في كل طبقة من الطبقات بقانونه ونظامه وبممثليه، ويراقب ويدير من وراء الحجاب كل مرتبة من المراتب بحكمته وبعلمه

وبقوته، فلكل دائرة مركز يخصها وموقع خاص بها، أحكامه مختلفة وطبقاته متغايرة". [1]

إن وجود السلطان في قمة الهرم السياسي للدولة والمجتمع يخول له هيمنة مطلقة ونفوذ شامل في كل مناحي الحياة، ويظل اسمه يتردد وبصفة دائمة ومتكررة في كل أنشطة المملكة الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والقضائية والتربوية وغيرها، وفي صور وأشكال متنوعة وفي منتهى التباعد والاختلاف.

وعلى هذا فالسلطان له ألوف الأسماء والعروش في حدود دولته ومجتمعه. فكأنه موجود به بشخصيته الاعتبارية في كل مكان، وعالم بشخصيته المعنوية بكل شيء. ويُشاهد بشخصيته القانونية في كل مرتبة من مراتب الناس. ويدير بشخصيته القوية كل مناشط الحياة.

فإذا كان هذا هو السلطان الزائل، فإن رب العالمين وهو كما يقول النورسي سلطان الأبد والأزل:

"له ضمن مراتب ربوبيته شؤون وعناوين مختلفة، لكن يتناظر بعضها مع بعض، وله ضمن دوائر ألوهيته علامات وأسماء متغايرة، لكن يشاهد بعضها في بعض، وله ضمن إجراءاته العظيمة تجليات وجلوات متباينة، لكن يشابه بعضها بعضاً، وله ضمن تصرفات قدرته عناوين متنوعة حتى يشعر بعضها بعضاً، وله ضمن تجليات صفاته مظاهر مقدسة متفاوتة، لكن يُظهر بعضها بعضاً، وله ضمن تجليات أفعاله تصرفات متباينة لكي تكمل الواحدة منها الأخرى، وله ضمن

---

(1) الكلمات – النورسي، ص375.

صنعته ومصنوعاته ربوبية مهيبة متغايرة لكي تلحظ إحداها الأخرى".[1]

والمستفاد من العبارة السابقة أن مشيئة الله وإرادته نافذة وماضية في خلقه، وضمن مراتب ودوائر وإجراءات وتصرفات وتجليات للأسماء والصفات والأفعال قد تبدو في ظاهرها مختلفة ومتغايرة وفي غاية التباين، ولكن كل منها يكمل الآخر في إطار تلك المشيئة الشاملة.

هذا عن المشيئة بشكل عام، أما على وجه الخصوص فيقول النورسي:

"ومع هذا يتجلى عنوان من عناوين اسم من الأسماء الحسنى، في كل عالم من عوالم الكون، وفي كل طائفة من طوائفه، ويكون ذلك الاسم حاكماً مهيمناً في تلك الدائرة، وبقية الأسماء تابعة له هناك، بل مندرجة فيه.

ثم إن ذلك الاسم له تجل خاص وربوبية خاصة في كل طبقات المخلوقات، صغيرة كانت أو كبيرة، قليلة كانت أو كثيرة، خاصة أو عامة، بمعنى أن ذلك الاسم وإن كان محيطاً بكل شيء وعاماً، إلا أنه متوجه بقصد، وبأهمية بالغة إلى شيء ما، حتى كأن ذلك الاسم متوجه فقط وبالذات إلى ذلك الشيء، وكأنه خاص بذلك الشيء".[2]

وعلى هذا فإن كل اسم من أسماء الله يظهر في كل جانب من جوانب الكون، وفي كل مخلوق من مخلوقاته، وله فيها أثره المباشر، وباقي الأسماء داخلة فيه وتابعة له. بمعنى أن ذلك الاسم وإن اتخذ

(1) الكلمات – النورسي، ص375، 376.
(2) الكلمات – النورسي، ص 376.

صفة العمومية، إلا أنه في تعلقه وظهوره وتأثيره يأخذ صفة الخصوصية في توجهه لشيء ما، أي كأنه يتوجه إلى ذلك الشيء وحده.

وتفسير ذلك ومردّه إلى أن اسم الذات العلية (الله)، يشتمل على جميع الأسماء، ويتجلى فيها بحسب ظهورها ومظاهرها في الوجود، ومن ثم فله بالنسبة إلى غيره من الأسماء اعتبارات:

- باعتبار ظهور ذاته العلية في كل واحد من الأسماء
- وباعتبار اشتماله على الأسماء الإلهية كلها، وذلك من حيث مرتبة الألوهية الجامعة للأسماء والصفات.

وجود الله

لم يجد النورسي في إجابته على سؤال وجّه إليه عن أدلة وبراهين وجود الله ووحدانيته إلا أن يمهد له بمثال، جاء فيه:

"إن الذي يملك قدرة معجزة ومهارة فائقة، إذا ما أراد أن يبنى قصراً عظيماً فلا شك أنه قبل كل شيء يرسى أساسه بنظام متقن، ويضع قواعده بحكمة كاملة وينسقه تنسيقاً يلائم لما يبنى لأجله من غايات وما يرجى منه من نتائج.

ثم يبدأ بتقسيمه وتفصيله بما لديه من مهارة وإبداع إلى أقسام ودوائر وحجرات، ثم نراه ينظم تلك الحجرات ويزينها بروائع النقوش الجميلة. ثم ينور كل ركن من أركان القصر بمصابيح كهربائية عظيمة، ثم لأجل تجديد إحسانه وإظهار مهارته نراه يجدد ما فيه من الأشياء، ويبدلها ويحولها، ثم يربط بكل حجرة من الحجرات هاتفاً خاصاً يتصل بمقامه، ويفتح من كل منها نافذة يُرى منها مقامه الرفيع".[1]

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 782، 783.

يعنى أن من حظي بالقدرة على الإتيان بأمور خارقة، مع حذق وبراعة في العمل والإنجاز، إذا ما فكر في بناء قصر، فإنه يضع نصب عينيه أولاً كمال البناء، ودقة صنعه وجماله، واستناداً عليها يبدأ في العمل.

أولاً: يضع قواعد وأصول للقصر تحقق أهدافه القريبة وغاياته البعيدة.

ثانياً: يقسم القصر إلى حجرات مزينة ومزخرفة بما يسر الناظرين.

ثالثاً: يعمل وبصفة مستمرة على تغييره وتبديله، بحيث يكون كل ما فيه جديد على الدوام.

رابعاً: أن يكون على اتصال مباشر ودائم بكل حجرة من حجراته.

فإذا دل ذلك القصر على بانيه، فإن هذا العالم دال أيضاً وشاهد على وجود الله. يقول عنه النورسي بعد ذلك التمهيد:

"وعلى غرار هذا المثال، ولله المثل الأعلى، فالصانع الجليل الذي له ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى، أمثال الحاكم والحكيم والعدل والحكم والفاطر الجليل الذي ليس كمثله شيء، أراد خلق شجرة الكائنات العظيمة وإيجاد قصر الكون البديع، هذا العالم الأكبر.

فوضع أسس ذلك القصر، وأصول تلك الشجرة في ستة أيام، بدساتير حكمته المحيطة، وقوانين علمه الأزلي، ثم صوّره وأحسن صوره بدساتير القضاء والقدر، وفصّله تفصيلاً دقيقاً إلى طبقات وفروع علوية وسفلية، ثم نظّم كل طائفة من المخلوقات، وكل طبقة منها بدساتير العناية والإحسان، ثم زيّن كل شيء وكل عالم، بما يليق به من جمال، فزيّن السماء مثلاً بالنجوم وجمّل الأرض بالأزاهير، ثم نوّر

ميادين تلك القوانين الكلية وآفاق تلك الدساتير العامة بتجليات أسمائه الحسنى، ثم أمدّ الذين يستغيثون به مما يلاقونه من مضايقات تلك القوانين الكلية فتوجّه إليهم باسم الرحمن الرحيم، أي أنه وضع في ثنايا قوانينه الكلية ودساتيره العامة من الإحسانات الخاصة والإغاثات الخاصة والتجليات الخاصة ما يمكّن كل شيء أن يتوجه إليه سبحانه في كل حين ويسأله كل ما يحتاجه، وفتح من كل منزل، ومن كل طبقة، ومن كل عالم، ومن كل طائفة، ومن كل فرد، ومن كل شيء نوافذ تتطلع إليه وتظهره، أي تبين وجودَه الحق ووحدانيته، فأودع في كل قلب هاتفاً يتصل به".[1]

وعلى شاكلة المثال السابق فإن الله تعالى عندما أراد خلق الوجود كاملاً وجميلاً، ومحققاً للغاية المقصودة من خلقه وإيجاده، أجرى عليه الآتي.

- وضع أولاً أصول وأسس الوجود وفقاً لقواعد وسنن مطابقة لعلمه المحيط بكل شيء.
- ثم قسمه قسمة متوافقة مع مشيئته الأزلية إلى أنواع عديدة ومختلفة ومتباينة.
- ثم سن لكل نوع من الموجودات قانونه الخاص، وبه تميز عن غيره.
- ثم أفاض عليه الحسن والجمال.
- ثم تجلى عليه بأسمائه الحسنى.

(1) الكلمات – النورسي، ص 783.

- ثم سن سنة التوجه إليه عند جريان المشيئة الإلهية على مخلوقاته من السراء والضراء.
- وأخيراً جعل كل مخلوق منهم دالاً على وجود خالقه وشاهداً عليه.

واحدية الله ووحدانيته وأحديته

إن واحدية الله تعالى ووحدانيته وأحديته هي من جملة أحكام الألوهية التي ظهر بها الحق عز وجل للمخلوقات باسم الله، ومن هذه الألوهية أقر الوجود كله بالعبودية للمعبود الواحد الأحد، وعلى الألوهية مدار الاعتقاد والتكليف.

وعالج النورسي تلك الأحكام الثلاثة ليس من المنظور العرفاني التقليدي من مباحث العقيدة، بل من منظور كشف فيه سر خلق الله تعالى للقلة والكثرة في آن واحد، فيقول:

"إن أكبر كلٍّ كأصغر جزء هيّن إزاء قدرة الصانع الذي يهيمن بأفعاله وتصريفه للأمور في الكون وكما هو مشاهد. فإيجاد الكلي بكثرة من حيث الأفراد سهل كإيجاد جزئي واحد، ويمكن إظهار إبداع الصنعة المتقنة في أصغر جزئي اعتيادي". [1]

يعني أن خلق الله تعالى للكبير والكثير هيّن وميسور عليه كخلقه للقليل والصغير، بلا تفاوت ولا اختلاف في قدرة الخلق والإيجاد، أما سر ذلك فنابع وكما يرى النورسي من تدخل كل واحد منها في جانب من جوانب الخلق، وذلك على النحو التالي:

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 319.

- للواحدية الإمداد.
- وللوحدة أو الوحدانية اليسر والتيسير.
- وللأحدية التجلي والظهور.

أما إمداد الواحدية فمداره:

"إن كان كل شيء وكل الأشياء ملكاً لمالك واحد، فعندئذ يمكن من حيث الواحدية أن يحشد قوة جميع الأشياء وراء كل شيء، ويدير أمور جميع الأشياء بسهولة إدارة الشيء الواحد"[1]

فإذا للموجودات مالك واحد يتصرف فيها منفرداً، فبإمكانه إذن وبحكم واحديته وفرديته، وبقوة إحاطته به علماً واقتداراً يجمعها ويدير شئونها معاً، وبيسر وسهولة وبساطة تيسيره لواحد منها.

ومن أجل إيصال سر إمداد الواحدية إلى الأفهام وبصورة محسوسة، روى النورسي هذا المثل:

"بلد يحكمها سلطان واحد يستطيع أن يحشد قوة معنوية بجيش كامل وراء كل جندي من جنوده، وذلك من حيث قانون السلطنة الواحدة، لذا يستطيع ذلك الجندي الفرد أن يأسر القائد الأعظم للعدو، بل يمكن أن يسيطر باسم سلطانه على من هو فوق ذلك القائد.

ثم إن ذلك السلطان مثلما يستخدم موظفاً أو جندياً، ويدير أمور جميع الموظفين وجميع الجنود أيضاً بسر السلطنة الواحدة، وكأنه يرسل كل شخص وكل شيء بسر سلطنته الواحدة لإمداد أي فرد كان، يمكن أن يستند كل فرد من أفراد رعيته إلى قوة جميع الأفراد، أي يستطيع أن يستمد منها.

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 320.

ولكن لو حلت حبال تلك الواحدية للسلطنة، وأصبحت السلطنة سائبة وفوضى. فإن كل جندي عندئذ يفقد بالمرة قوة لا تحد، ويهوي من مقام نفوذ رفيع، ويصبح في مستوى إنسان اعتيادي، وعندها تنجم مشاكل للإدارة والاستخدام بعدد الأفراد".[1]

إن القوة المستمدة من واحدية السلطان وهيمنته الشاملة على مملكته، تمنحه سلطة مطلقة يفعل بها ما لا يدخل في الحسبان، كأن يجعل جيشاً مرموقاً تحت إمرة وقيادة وإدارة جندي عادي، ويمكن لذلك الجندي وبحكم السلطنة المخولة له أن يفعل ما هو فوق طاقته، ويفوق قدرته العادية بمراحل كثيرة.

وقياساً على ذلك فيمكن لذلك السلطان مستنداً على سر واحديته في مملكته، وقوة سلطته فيها، أن يستعين بأي فرد لإعانة ومعونة الآخرين، ويمكن لأي فرد يعوّل على الآخرين في شؤون حياته.. وبطريقة تجعل الجميع يدورون حوله ويستندون عليه استناداً مطلقاً سواء في علاقتهم به، أو في علاقتهم بعضهم ببعض.

أما إذا فقد السلطان قوته المهيمنة، وانفرط عقد الواحدية الرابط بين الجميع، وحلت الفوضى تماماً من أي قوة وسلطة تحكم فيها على من هم فوقه من الرتبة والمنزلة، وينحدر من القمة إلى الحضيض في لمح البصر.

وفيما مضى من مثال ولله المثل الأعلى هيمنة الله تعالى وتحكمه بقوة واحديته في الكون والخلق، يقول النورسي في شرحه للمثل:

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 320.

"فصانع هذا الكون لكونه واحداً، فإنه يحشد أسمائه المتوجهة إلى جميع الأشياء، تجاه كل شيء، فيوجد المصنوع بإتقان تام وبصورة رائعة، وان لزم الأمر يتوجه بجميع الأشياء إلى الشيء الواحد، ويوجهها إليه ويمدده بها، ويقويه بها، وإنه يخلق جميع الأشياء أيضاً بسر الواحدية، ويتصرف فيها ويدبر أمورها كإيجاد الشيء الواحد".[1]

فالله تعالى بسر واحديته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ووجوداً، يمكنه بمنتهى اليسر والسهولة أن يتحكم في جميع الموجودات فيديرها ويسيرها إلى أي اتجاه يشاء، وبأي طريقة يريد، وإذا اقتضى الأمر أن يقودها مجتمعة لخدمة موجود واحد، وكذلك إيجاده لها وتصرفه فيها فسهل عليه وميسور له كإيجاده وتصرفه في واحد منها.

أما اليسر أو السهولة في الوحدة والوحدانية، أي انفراده تعالى بذاته واستقلاله بالفعل لا شريك معه فيه، فمبناه وكما يرى النورسي على الآتي:

"إن الأفعال التي تتم بأصول الوحدة، ومن مركز واحد، بتصرف واحد، وبقانون واحد، تورث سهولة مطلقة، بينما إن كانت تدار من مركز متعددة، وبقوانين متعددة، وبأيد متعددة تنجم مشكلات عويصة".[2]

ومجمل فكرة الوحدانية ينحصر في أن صدور المخلوقات وإيجادها عن واحد لا شريك له شيء هين وسهل وبلا عقبات، ويتم في العادة على نحو تلقائي، وعلى العكس منه إذا تعدد المُوجِدُونَ

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 320.

(2) المكتوبات – النورسي، ص 321.

والمتصرفون في أمر شيء واحد، فإنه يترتب عليه من الإشكال والصعوبات ما لا حصر لها، مثال ذلك.

"إذا جهز جميع أفراد الجيش بالأعتدة والتجهيزات من مركز واحد، وبقانون واحد، وبأمر قائد عظيم، يكون سهلاً سهولة تجهيز جندي واحد، بينما إذا أحيل التجهيز إلى معامل متفرقة، ومراكز متعددة يلزم عندئذ لتجهيز جندي واحد جميع المعامل العسكرية التي تزود الجيش بالتجهيزات اللازمة.

بمعنى أنه إذا أسند الأمر إلى الوحدة، فإن تجهيز الجيش كاملاً يكون كتجهيز جندي واحد، ولكن إن لم يسند إلى الوحدة فإن تزويد جندي واحد بالتجهيزات الأساسية يولد مشاكل بعدد أفراد الجيش.

وكذا إذا زودت ثمرات شجرة ما – من حيث الوحدة – بالمادة الحياتية من مركز واحد، وبقانون واحد، واستناداً إلى جذر واحد. فإن ألوف الثمرات تتزود بها بسهولة كسهولة ثمرة واحدة، بينما إذا ربطت كل ثمرة إلى مراكز متعددة، وأرسلت إلى كل منها موادها الحياتية، عندها تنجم مشكلات بقدر ثمرات الشجرة، لأن المواد الحياتية التي تلزم شجرة كاملة تلزم كل ثمرة من الثمرات أيضاً".[1]

ومراد النورسي أن تموين أي جيش بالعدة والعتاد اللازمين، إذا أسند إلى فرد واحد، ومن مكان واحد، يعادل في يسره وسهولته إعداد جندي واحد بما يلزمه من عدة الحرب، ولكن إذا أسند إلى جهات متعددة، واشتركت فيه وحدات متفرقة، فإن إعداد جندي عادي فيه عدد من الصعوبات بعدد أفراد الجيش.

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 321.

والشيء نفسه يقال عن ثمرة شجرة مُدت بأسباب الحياة من منبع واحد، وأصل واحد، فإنها تتغذى بيسر وسهولة، وتنمو نمواً طبيعياً لا تصدعات فيه، ولكن إذا تعددت وسائل إمدادها بمقومات وجودها، فإنها تواجه من الصعوبات والعراقيل ما يحد من نموها وازدهارها.

وانطلاقاً من ذلك التفسير انتهى النورسي إلى القول:

"وهكذا، فبمثل هذين التمثيلين – ولله المثل الأعلى – فإن صانع هذا الكون لكونه واحداً وأحداً، يفعل ما يريد بالوحدة، ولأنه يفعل بالوحدة، تسهل عليه جميع الأشياء كالشيء الواحد، فضلاً عن أنه في قيمة رفيعة، فيظهر جوده المطلق بلسان هذا البذل المشاهد، والرخص غير المتناهي، ويظهر بها سخاءه المطلق وخلاقيته المطلقة".[1]

يعني أن انفراد الله تعالى وتفرده يقتضي بالضرورة توحده المطلق بالخلق والإيجاد، وبلا شريك له في الفعل والترك، وذلك شيء لا يفضي إلى اليسر والسهولة وحدها، بل يترتب عليه وصف أفعاله بالجودة وكمال الصنعة وجمالها، إضافة إلى الجودة والكرم وغيرها من المعاني المتعلقة بتفرده، والدالة على أنه هو وحده الفاعل لكل فعل.

وأما تجلى الأحدية فقوامه على:

"أن الصانع الحكيم منزّه عن الجسم والجسمانية، لذا لا يحصره زمان ولا يقيده مكان، ولا يتداخل في حضوره الكون والمكان، ولا تحجب الوسائط والأجرام فعله بالحجب، فلا انقسام ولا تجزؤ في توجهه سبحانه، ولا يمنع شيء شيئاً، يفعل ما لا يحد من الأفعال

(1) المكتوبات – النورسي، ص 321.

كالفعل الواحد، ولهذا فانه يدرج معنى شجرة ضخمة جداً من بذرة صغيرة، ويدرج العالم في فرد واحد، ويدير أمور العالم بيد قدرته، كإدارة فرد واحد". [1]

إن تجلى الأحدية ومن منطوق العبارة السابقة على قسمين:

- أولهما: عرفاني، وهو ظهوره تعالى باسم الأحد الذي لا شبيه له ولا نظير، ويستحيل عليه الانقسام في ذاته، ولا تعتريه صفات الحوادث كالتغير والتحلل والحلول والمشاركة والاحتياج إلى الأغيار.

- وثانيهما: عملي، وهو ظهوره الذاتي الأحدي المحض في كل مخلوقاته، وكل فرد من مخلوقاته صغر أم كبر هو مظهر لأحديته، ومظهره ذلك أتم وأكمل.

ومثال تلك الأحدية:

"إن ضوء الشمس الذي لا قيد له إلى حد ما، يدخل في كل شيء لماع، حيث إنها نورانية، فلو واجهتها ألوف بل ملايين المرايا، فإن صورتها النورانية المثالية تدخل في كل مرآة دون انقسام كما هي في مرآة واحدة، فلو كانت المرآة ذات قابلية، فإن الشمس بعظمتها يمكن أن تظهر فيها آثارها، فلا يمنع شيء شيئاً، إذ يدخل مثال الشمس في المرآة الواحدة كما في الألوف منها بسهولة تامة، وهي توجد في كل مكان واحد بسهولة وجودها في ألوف الأماكن، وتكون كل مرآة وكل مكان مظهراً لجلوة تلك الشمس كما هي لألوف الأماكن". [2]

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 322،321.

(2) المكتوبات – النورسي، ص 322.

تنفذ أشعة الشمس وكما هو معروف عنها وتتغلغل في كل شيء، بحيث إن كل شيء يعتبر مظهراً للشمس، وأجلى ظهور لها يتبدى دائماً فيما هو مضيء ومنور كالمرآة مثلاً التي تظهر الشمس بسهولة مطلقة، فتكون كالمظهر لها، هذا مع كبر الشمس وضخامتها، وصغر المرآة وضآلة حجمها وبعدها عنها.

وهكذا تتجلى أحدية الله في الوجود، فيقول عنها النورسي:

"إن لصانع هذا الكون ذي الجلال تجلياً بسر توجه الأحدية، بجميع صفاته الجليلة التي هي أنوار، وبجميع أسمائه الحسنى التي هي نورانية، فيكون حاضراً ناظراً في كل مكان، ولا يحده مكان، ولا انقسام في توجهه سبحانه، يفعل ما يريد فيما يشاء في كل مكان، في آن واحد ومن دون تكلف ولا معالجة ولا مزاحمة".[1]

فأحدية الله إذن كنور الشمس ظاهر على الوجود، والوجود مظهر لها، وعلى مستويين من مستويات الظهور والتجلي:

أعلاها: ظهور أحدية ذاته المجردة بأسمائها وصفاتها، فيكون موجوداً في كل مكان لا تحجبه الحجب، ولا تحول دون ظهوره الموانع.

وأدناها: يشكل كل مخلوق من مخلوقاته على حدة في ذاته وصفاته المقيدة والمحدودة مظهراً لتلك الأحدية.

غير أن النورسي عاد ومن موضع آخر ليبين أن تجلى الأحدية يندرج ضمن تجلى الواحدية، وذلك لئلا تغرق العقول وتتشتت في تلك الواحدية المتجلية على مخلوقاته، وقدم لبيانه ذلك بهذا المثال:

---

(1) نفس المصدر السابق.

"الشمس تحيط بضيائها بما لا يحد من الأشياء، فلأجل ملاحظة ذات الشمس في مجموع ضيائها، يلزم أن يكون هناك تصور واسع جداً ونظر شامل، لذا تظهر الشمس ذاتها بواسطة انعكاس ضوئها في كل شيء شفاف، أي يظهر كل لماع حسب قابلية جلوة الشمس الذاتية مع خواصها كالضياء والحرارة، وذلك لئلا تُنسى ذات الشمس، ومثلما يظهر كل لماع الشمس بجميع صفاتها حسب قابليته، تحيط أيضاً كلُّ صفة من صفات الشمس كالحرارة والضياء وألوانها السبعة، بكل ما يقابلها من أشياء".[1]

والمثال شبيه في دلالته العامة بمثل الأحدية السابق ذكره، فنور الشمس يفيض على الكون كله بحيث يحتاج النظر إلى الشمس إلى رؤية ذات أبعاد عامة وشاملة ليست في الوسع، ومن هنا يظهر نور الشمس في كل ما لديه القابلية على إظهاره، أي أن ذات الشمس تنعكس بصفاتها وخواصها المميزة في كل ما ينعكس عليه نورها، إذ ليس هناك من يغفل عنها أو يتجاهلها، فهي موجودة في كل شيء.

وتجلي الأحدية يشبه تجلي الشمس ونورها، فيقول النورسي في شرحه للمثل:

"فكما أن لله سبحانه الأحد الصمد تجلياً في كل شيء بجميع أسمائه الحسنى ولاسيما في الأحياء، وبخاصة في مرآة ماهية الإنسان، كذلك كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالموجودات يحيط بالموجودات جميعاً من حيث الوحدة والواحدية، فيضع سبحانه طابع الأحدية في الواحدية نصب عين الإنسان وأمام نظره كيلا تغرق

(1) اللمعات – النورسي، ص 147.

العقول وتغيب في سعة الواحدية ولئلا تنسى القلوب وتذهل عن الذات الإلهية المقدسة".[1]

ويهدف النورسي من هذا إلى أن الأحدية هي أعلى تجل لله تعالى باسم الله، فعدت الأحدية أخص مظهر من مظاهر الذات الإلهية، تليها مباشرة الواحدية حيث منها تنشأ الكثرة، وفيها أيضاً تنعدم الكثرة. وذلك لأن كل اسم أو صفة من أسمائه ظهر للوجود على أنه هو الآخر من تجلياته وتعلقاته.

وخوفاً من أن يضيع العباد أو يضيقوا من هذا الاتساع الكبير في معنى الواحدية وتجلياتها، أو حتى لا ينشغلوا عن الله بغيره أو ينسوه، فإنه عز وجل أحلّ حكم الأحدية في الواحدية، وذلك حتى تظهر الأحدية جامعة لجميع الأسماء والصفات، وعندها يظهر كل اسم وصفة متميزاً عن الآخر تميزاً كلياً، ولكن ضمن حكم الأحدية التي تعطى لكل ذي حق حقه ضمن الإطار الشامل والكبير للألوهية.

تجلى اسم الفرد

إن الحكم على الذات الإلهية بالأحدية والوحدانية هو في نفسه نسبة، ولكنها نسبة تتجلى وتظهر على الوجود والمخلوقات بمقتضى كونه أحداً وواحداً، وحين تنعكس حقائق الألوهية بذلك الحكم الأحدي، وتتجلى على مرآة الوجود الخارجي، تظهر باسم الفرد، وهو الاسم الذي يقول عنه النورسي إنه:

---

(1) نفس المصدر السابق.

"قد أضاء أرجاء الكون كله، فضم أجزاءها كافة في وحدة واحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية".[1]

ولبيان ذلك المعنى الدقيق ساق المثل التالي:

"كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات، يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملك لواحد، فإن كون الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كافة، وكون النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها، وكون السحاب واحداً يسقى الأرض، وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة، وانتشار أغلب الأحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها، كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة أن: تلك الموجودات ومساكنها ومواضعها، إنما هي لمالك واحد أحد".[2]

إن في واحدية مظاهر الطبيعة، وعدم واحدية نوعها وواحدية وظيفتها دلالة بيّنة على واحدية مالكها ومدبر أمورها. وذلك لأنه لو لم يكن مالكاً حقيقياً لها، لعجز عن التصرف فيها تصرفاً حقيقياً، ناهيك عن التصرف فيها مجتمعة.

وقياساً على ما مضى ذكره، انتهى النورسي إلى:

"أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعها بمثابة كلٍّ واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد، فالذي لا يستطيع أن ينفذ حكمه على جميع الكون لا يمكنه

---

(1) اللمعات – النورسي، ص 542.

(2) اللمعات – النورسي، ص 542.

– من حيث الخلق والربوبية – أن يُخضع لربوبيته أي شيء فيه، حتى لو كان ذلك الشيء ذرة أو أصغر منها".[1]

أكد النورسي في كلامه السابق على حقيقتين متكاملتين:

- أولاهما: إن اشتراك كافة الموجودات في منظومة حياتية واحدة، متصلة الحلقات، ومتداخلة مع بعضها البعض. قد أحالها إلى وحدة واحدة لا تفضي في كليتها المجردة إلى التبعيض أو التجزئة.

- وثانيتهما: أن من لا تجرى أحكامه وسننه على هذه الكلية الجامعة للموجودات، لا يمكنه السيطرة والتحكم في أي جزء منها مهما بلغ حجمه من الصغر والضآلة.

وصفوة القول أن تجلى الفردية هو وحده الذي طبع الوجود كله بطابع الأحدية والوحدانية والواحدية، بدءاً من الكون الكبير إلى أقل وأصغر جزء منه. وظهرت بصمات الفردية على كل نوع فيه، وعلى كل فرد فيه، فتحول الوجود كله بحكم الفرد الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً.

التوحيد

يُشْتَرطُ في توحيد الله تعالى أمران:

- العلم بأنه واحد لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله.
- والإقرار والاعتراف به، بالقلب واللسان، والثبات عليه والاستمرار فيه على حالة واحدة إلى ما لا نهاية.

---

(1) نفس المصدر السابق.

واستناداً على ذلك عرف التوحيد بأنه الإيمان بأحدية الله ووحدانيته بمعنى أنه تعالى لا شبيه له ولا نظير في ذاته من ناحية، ومن ناحية أخرى لا شريك له في ألوهيته.

وبناء على ذلك التعريف قسم النورسي التوحيد إلى نوعين، مهد لهما بالمثل التالي:

"إذا وردت إلى سوق أو مدينة بضائع مختلفة وأموال متنوعة لشخص عظيم، فهذه الأموال تعرف ملكيتها بشكلين اثنين:

الأول: شكل إجمالي عامي (أي لدى العامة من الناس) وهو : أن مثل هذه الأموال الطائلة ليس بمقدور أحد غيره أن يمتلكها. ولكن ضمن نظره الشخصي العامي هذه يمكن أن يحدث اغتصاب، فيدّعى الكثيرون امتلاك قطعها.

الثاني: أن تُقرأ الكتابة الموجودة على كل رزمة من رزم البضاعة، وتعرف الطغراء الموجودة على كل طَول، ويعلم الختم الموجود على كل مَعلَم أي كل شيء في هذه الحالة يدل ضمناً على ذلك المالك".[1]

إن كثرة تلك البضائع والسلع وتعددها، وضخامة الأموال دالة ضمناً على مالكها الحقيقي بطريقتين:

الأولى: فيها تعميم، إذ يعترف من خلالها بالسمات المشتركة بين عدة مالكين لها، ليستقر التعميم في خاتمة أمره على مالكها الحقيقي، ولكن دون تحديد لهويته تحديداً يمنع غيره من ادعاء ملكيته لها.

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 326.

الثانيـة: أن ملكيتهـا لمالكهـا موثقـة كتابـة، ومختـوم عليهـا بختمـه الخاص إلى غيرها من صور الأحكام والإثبات التي يعتمد عليها في التمليك، وهي بلا شك كفيلة بالتعريف على مالكها، ولكنها في هذه الحالة مضمنة فيما كتب وأعلن، أما هو بذاته فلا يظهر صراحة.

ثم فصل النورسي على هدى ذلك المثل أقسام التوحيد قائلا:

"فكما أن البضاعة يُعرف مالكها بشكلين، كذلك التوحيد فإنه على نوعين:

الأول: التوحيد الظاهري العامي: وهو أن الله واحد لا شريك له ولا مثيل، وهذا الكون كله ملكه.

الثاني: التوحيد الحقيقي: وهو الإيمان بيقين أقرب ما يكون إلى الشهود بوحدانية الله، وبصدور كل شيء من يد قدرته، وبأنه لا شريك له في ألوهيته، ولا معين له في ربوبيته، ولا ندّ له في ملكه، إيماناً يهب لصاحبه الاطمئنان الدائم، وسكينة القلب، لرؤيته آية قدرته، وختم ربوبيته، ونقش قلمه على كل شيء، فينفتح شباك نافذ من كل شيء إلى نوره سبحانه".[1]

فالنوع الأول من التوحيد عام، أقرب في المعنى إلى الفكرة المجردة الدالة عموماً على أحدية الله ووحدانيته، وأنه خالق هذا الكون ومالكه.

والثاني أخص وهو الإيمان به إيماناً تتحول فيه أحدية الله ووحدانيته إلى اعتقاد قلبي، وتنتقل فيه من مرتبة اليقين العلمي والمعرفي إلى مرتبة يرى فيها حقائق الأحدية والوحدانية ومظاهرها

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 326.

ماثلة أمامه على صفحة الوجود، بل قد يصبح حتى الغيب في أحيان كثيرة عيناً، فيراه أوضح من رؤية المحسوس والمشاهد.

الربوبية

تعد أسماء وصفات الربوبية ومن حيث مقتضياتها أساساً للتكليف الإلهي، وذلك لما تشتمل عليه من ضروب التمكين اللازمة لكل فعل وترك، وكل الأسماء والصفات التي تحت اسم الرب هي الأسماء والصفات المشتركة بينه وبين خلقه، أو بمعنى آخر هي التي تتعلق بها الموجودات، كالعليم الذي يقتضي معلوماً، والمريد يطلب مراداً، والقادر المقدور والرحمن المرحوم وغيرها.

ثم إن الربوبية ومن حيث اشتمالها على أسماء وصفات ذات طابع فعلي وليس طلبياً كأسماء وصفات الألوهية، فإن لها تجليات:

- تجلى للرب بأسمائه وصفاته، ووفقاً لمقتضيات التنزيه والكمالات الواجبة له عز وجل.
- وتجلى على الموجودات وفقاً لمقتضى ظهورها في الوجود، وما يشتمل عليه الوجود من أنواع النقص والضعف.

وفي رد النورسي على عبارة لأحد إخوانه "كل حقيقة جميلة" كشف سراً من أسرار تلك الربوبية الشاملة، جاء فيه:

"نعم، إن كل شيء جميل، ولكن إما أنه جميل حقيقة، أي بالذات، أو جميل باعتبار نتائجه، وأن هذا الجمال متوجه إلى الربوبية العامة، والرحمة الشاملة والتجلي العام".[1]

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 490.

يعنى أنه وضمن تلك الربوبية هناك جمال مطلق يعم الموجودات قاطبة، وله آثاره ونتائجه العامة، وذلك لأن الجمال في حقيقته الذاتية ما هو إلا انعكاس طبيعي لتجلى الربوبية بشقيها المعنوي على الأسماء والصفات، والصوري أو النظري الظاهر على الموجودات كلها.

وفي المثال التالي قرّب النورسي ذلك المعنى للأذهان، فقال فيه:

"إن السلطان يشمل برعايته وبرحمته جميع أفراد الأمة، وذلك بقوانينه ودولته، فكل فرد ينال مباشرة لطفه وكرمه، ويستظل بظل دولته، أي هناك علاقات خاصة للأفراد ضمن هذه الصورة العامة.

أما الجهة الثانية من رعايته ورحمته فهي آلاؤه الخصوصية، وأوامره الخاصة التي هي فوق جميع القوانين، ولكل فرد من رعاياه حصة من هذه الآلاء".[1]

فسياسة السلطان، وولايته العامة على الرعية، وعطفه بكل واحد منهم على حدة، ينحو على الدوام منحيين:

- شمول شرائعه ونواميسه النافذة في الجميع، وبضوابطها الدقيقة ينعم كل فرد فيهم بالعدل والنظام والسلام.

- نعمه التي ينال كل واحد منهم وعلى وجه الخصوص حظه ونصيبه بالكامل.

وهكذا الربوبية في عموميتها وشمولها، فيقول النورسي في تعليقه على الصورة التمثيلية السابقة:

"فعلى غرار هذا المثال، فإن لكل شيء حظاً من الربوبية العامة والرحمة الشاملة لواجب الوجود والخالق الحكيم، أي أن كل شيء

(1) المكتوبات – النورسي، ص 490.

ذو علاقة معه بصورة خاصة في الجهة التي حظي بها، وأن له تصرفاً في كل شيء بقدرته وإرادته وعلمه المحيط، فربوبيته شاملة كل شيء حتى أصغر الأفعال، وكل شيء محتاج إليه سبحانه في كل شأن من شؤونه، فتقضى أموره، وتنظّم أفعاله بعلمه وحكمته جل وعلا". [1]

والمعنى البسيط المستفاد من تعليق النورسي هو أن مقتضيات الربوبية كثيرة بكثرة مفعولات الله، فما من مخلوق إلا ونال نصيبه الكامل منها، أو بمعنى أدق أن اشتمالها على أسماء وصفات لها تعلقها المباشر بالمخلوقات، وتجليها الخاص على كل واحد منها، قد جعل كل موجود يحظى بحقوقه منها، سواء من احتياجاته الخاصة أو العامة.

الحكم العدل

دعا النورسي كل من يريد مشاهدة تجلى حكمة الله وعلمه، وهما من أسماء الله الرحمن الرحيم الحق، وضمن دائرة واسعة النطاق وبعيدة المدى، إلى إعادة النظر مرة بعد أخرى في هذا المثل:

"جيش يضم أربعمائة طائفة متنوعة من الجنود كل منها تختلف عن الأخرى فيما يعجبها من ملابس، وتتباين فيما تشتهيه من أطعمة، وتتغاير فيما تستعمله بيسر من أسلحة، وتتنوع فيما تتناوله من علاجات تناسبها، فعلى الرغم من هذا التباين والاختلاف في كل شيء، فإن تلك الطوائف الأربعمائة لا تتميز إلى فرق وأفواج، بل

(1) نفس المصدر السابق.

يتشابك بعضها في بعض من دون تمييز، فإذا ما وجد سلطان واحد يعطى لكل طائفة ما يليق بها من ملابس، وما يلائمها من أرزاق، وما يناسبها من علاج، وما يوافقها من سلاح، بلا نسيان لأحد، ولا التباس ولا اختلاط، ومن دون أن يكون له مساعد أو معين، بل يوزعها كلها عليهم بذاته، بما يتصف به من رحمة ورأفة وقدرة، وعلم معجز، وإحاطة تامة بالأمور كلها، مع عدالة فائقة وحكمة تامة.

نعم إذا ما وجد سلطان كهذا لا نظير له، وشاهدت بنفسك أعماله المعجزة الباهرة، تدرك عندئذ مدى قدرته ورأفته وعدله، ذلك لأن تجهيز كتيبة واحدة نضم عشرة أقوام مختلفين بأعتدة متباينة متنوعة أمر عسير جداً، حتى يلجأ إلى تجهيز الجيش بطراز معين ثابت من الألبسة والأعتدة مهما اختلفت الأجناس والأقوام".[1]

ولا شك أن الجيش الذي يضم ذلك الكم الهائل من مجاميع الجنود المتشابكة فيما بينها، والمتباينة في ملابسها وغذائها وسلاحها وطرق علاجها، هو جيش غاية في التعقيد، فإذا كان هناك من يوفر لكل مجموعة وفرقة من الجند احتياجاتها الكاملة من الثياب والأرزاق والأدوية، عندئذ يعرف كل أحد أن صفتي الحكمة والعدل هما من أجلّ صفاته، وأبرز سماته المميزة له عما سواه.

وفي ضوء ذلك المثل خاطب النورسي محدثه قائلاً:

"فإذا شئت أن ترى تجلى اسم الحق والرحمن الرحيم ضمن نطاق العدل والحكمة، فسرّح نظرك في الربيع إلى الخيام المنصوبة على بساط الأرض لأربعمائة ألف من الأمم المتنوعة، الذين يمثلون جيش

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 769.

النباتات والحيوانات، أنعم النظر فيها تجد أن جميع تلك الأمم والطوائف مع أنها متداخلة، وألبستهم مختلفة وأرزاقهم متفاوتة وأسلحتهم متنوعة وطرق معيشتهم متباينة وتدريبهم وتعليماتهم متغايرة، وتسريحاتهم وإجازاتهم متميزة، وهم لا يملكون ألسنة يطالبون بها تأمين حاجاتهم وتلبية رغباتهم.

مع كل هذا، فإن كلا منها تدار وتربى وتراعى باسم الحق والرحمن والرزاق والرحيم والكريم، ودون التباس ولا نسيان ضمن نطاق الحكمة والعدل بميزان دقيق وانتظام فائق، فشاهد هذا التجلى وتأمل فيه، فهل يمكن أن يتدخل أحد غير الله تعالى في هذا العمل الذي يدار بمثل هذا النظام البديع والميزان الدقيق، وهل يمكن لأي سبب مهما كان أن يمد يده ليتدخل في هذه الصنعة الباهرة والتدبير الحكيم والربوبية الرحيمة، والإدارة الشاملة غير الواحد الأحد الحكيم القدير على كل شيء". [1]

إن الذي يقابل ذلك الجيش ويماثله من حيث التعقيد والعدد الهائل من الأعمال التي تتم فيه، هو الربيع حيث تحيا في ذروة تألقه وعنفوانه مخلوقات عديدة يحتاج كل واحد منها ما يحتاجه كل حي من لباس وأغذية وأسلحة يدافع بها عن نفسه، وهذه وتلك تختلف عند كل كائن عن الآخر في شكلها ونوعها.

ومع كل هذا الاختلاف والتباين فإن الربيع مثل ذلك الجيش، تحت إمرة ورعاية وعناية الحق الرحمن الرازق الكريم الرحيم، فهو يمده

---

(1) المكتوبات – النورسي، ص 769.

ويمد مخلوقاته بكل أسباب الحياة وضروريات الوجود بلا سهو ولا غفلة، ودون أن يشكل أو يلتبس عليه مخلوق دون الآخر.

فهل من المعقول أن يتصور أحد غير الله عز وجل هو الذي يتكفل بهذا العمل الخارق، وفي وقت واحد، ولتلك الألوف المؤلفة من الكائنات الحية، ناهيك من أن تعزى للصدفة العمياء، أو تنسب للأسباب والمسببات الجاهلة بحقيقة أفعالها.

قدرة الله

اقتضت حكمة الله تعالى في خلقه أن يضع على كل مخلوق من مخلوقاته ختماً مميزاً، وآية بيّنة، تدل عليه وتعرّف به، من بينها وعلى سبيل المثال التي على الحياة، وعبر عنها النورسي بقوله:

"إنه يخلق من شيء واحد كلَّ شيء، ويخلق من كل شيء شيئاً واحداً".[1]

ثم أبان مقصوده من العبارة بقوله:

"إن جعل الشيء الواحد كل شيء بسهولة مطلقة وانتظام كامل، وجعل كل شيء شيئاً واحداً بميزان دقيق وانتظام رائع وبمهارة وإبداع، ليس إلا علامة واضحة وآية بينة لخالق كل شيء وصانعه"[2]

وبما أن العبارة على ما هي عليه في منتهى التجريد، وعميقة المعنى، وعصية على الفهم، وتحتاج ككل المعاني المجردة إلى ما

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 328.

(2) نفس المصدر.

يقربها من الذهن في صور وأشكال محسوسة ومشخصة، فقد مثل لها النورسي قائلاً:

"فلو رأيت – مثلاً – أن واحداً يملك أعمالاً خارقة: ينسج من وزن درهم من القطن مائة طول من الصوف الخالص، وأطوالاً من الحرير، وأنواعاً من الأقمشة، ورأيت أنه يخرج علاوة على ذلك من ذلك القطن حلويات لذيذة، وأطعمة متنوعة كثيرة، ثم رأيت أنه يأخذ في قبضته الحديد والحجر والعسل والدهن والماء والتراب، فيصنع منها الذهب الخالص، فستحكم حتماً أنه يملك مهارة معجزة تخصه وقدرة مهيمنة على التصرف في الموجودات، بحيث إن جميع عناصر الأرض مسخرة بأمره، وجميع ما يتولد من التراب منفذ لحكمه".[1]

فكل من تصدر عنه المعجزات الخارقة للعوائد، والتي لا يسلم بها العقل، وتستصعبها النفوس، هو من غير شك من يضع بين يديه كل مقومات الخلق والإيجاد، وكل ما في الكون تحت إرادته وطوع مشيئته.

وهكذا – ولله المثل الأعلى – يخلق الله تعالى. كما يقول النورسي:

"فمن ماء النطفة، بل من ماء الشرب يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان وأعضائه. فهذا العمل لا شك أنه خاص بقدير مطلق القدرة، ثم إن تحويل الأطعمة المتنوعة – سواء الحيوانية منها أو النباتية – إلى جسم خاص بنظام دقيق، ونسج جلد خاص للكائن، وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة، لا شك أنه من عمل قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي، ص 329.

(2) نفس المصدر.

كمـا أن قـدرة الله تعـالى تتجلـى مـن ناحيـة أخـرى فـي علاقـات الكائنات بعضها ببعض، فعلى سبيل المثال، فإن الذرة هي:

"كالجنـدي الـذي لـه مع كـل دائـرة مـن الـدوائر العسكرية، أي مـع رهطه وسريته وفوجه ولوائه وفرقته وجيشه، ولـه حسب تلك العلاقة وظيفـة هنـاك، ولـه حسـب تلـك الوظيفـة حركـة خاصـة ضـمن نطـاق نظامها".[1]

فعلاقة الجندي ليست ضيقة وفي نطاق محدود، ولا تقف عند حد بعينه، بل له علاقات واسعة بكل وحدات الجيش الأخرى، وعمله وإن كان قاصراً ومقصوراً على ناحية واحدة ضمن المنظومة العامة للعمل في الجيش، إلا أن تأثيره يمتد ليشمل الجيش كله.

وكذلك الحال مع الذرة الصغيرة، فيقول النورسي:

"فالذرة الجامدة الصغيرة جداً، التي هي في بؤبؤ عينك لها علاقة معينة ووظيفة خاصة في عينك ورأسك وجسمك، وفي القوة المولـدة والجاذبة والدافعة والمصورة وفي الأوردة والشرايين والأعصاب، بـل لها علاقة حتى مع نوع الإنسان".[2]

يعنى أن للـذرة علاقـة أو علاقـات قويـة ومباشـرة ومـؤثرة مـع بـاقي أعضـاء الجسـم، بـل إن علاقتهـا لا تقـف عنـد مثيلاتهـا مـن العناصـر المادية وحدها، بل تمتد لتقيم علاقة مع العناصر غير المادية، كـالنوع البشرى مثلاً.

وما مضى يدل وكما يرى النورسي دلالة قاطعة بأن:

---

(1) نفس المصدر، ص 331.

(2) نفس المصدر السابق.

"وجود هذه العلاقات والوظائف للذرة، يدل بداهة على أن الذرة إنما هي من صنع القدير المطلق، وهي مأمورة موظفة تحت تصرفه سبحانه".[1]

التعريف بالله

زار مجموعة من طلاب المدارس الثانوية النورسي في مدينة قسطموني حيث كان يقيم منفياً، وذلك ليس بغرض أن يثبت لهم وجود الله تعالى بالحجة القوية والبرهان القاطع، بل ليعرفهم به، وذلك لأن اسمه تعالى لا يأتي على لسان معلميهم، ومناهجهم التعليمية مضربة عن ذكره، فقال لهم:

"إن كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن الله دوماً، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة، فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين".[2]

ثم قص عليهم ستة أمثلة عوّل بها على حصيلتهم العلمية البسيطة، وعلى معرفتهم المستمدة من محيطهم الاجتماعي وبيئتهم الثقافية، فقال لهم:

"لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضِعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما أنها ترينا أن وراءها صيدليا حكيماً، وكيميائياً ماهراً، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألف نوع من

---

(1) نفس المصدر السابق.

(2) نفس المصدر، ص 175.

الأحيـاء نباتـاً وحيوانـاً، وكـل واحـد منهـا فـي الحقيقـة بمثابـة زجاجـة مستحضـرات كيمياويـة دقيقـة، وقنينـة مخـاليط حيويـة عجيبـة. فهـذه الصـيدلية الكبـرى تُـري حتـى للعميـان صـيدليّها الحكـيم ذا الجـلال، وتعـرّف خالقهـا الكـريم سـبحانه بدرجـة كمالهـا وانتظامهـا وعظمتهـا، قياساً على تلك الصيدلية التي في السوق، وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه.

ومـثلاً: كمـا أن مصـنعاً خارقـاً عجيـباً ينسـج ألوفـاً مـن أنـواع المنسـوجات المتنوعة، والأقمشة المختلفة، من مادة بسيطة جداً، يرينا بـلا شـك أن وراءه مهندسـاً ميكانيكيـاً مـاهراً، ويعرّفه لنـا؛ كـذلك هـذه الماكنة الربانية السيارة المسماة بالكرة الأرضية، وهذا المصنع الإلهي الذي فيه مئات الآلاف من مصانع رئيسية، وفي كل منها مئات الآلاف من المصانع المتقنة، يعرّف لنا بلا شك صانعَه، ومالكَه، وفق مقاييس علم المكائن الذي تقرأونه، يعرّفه بدرجة كمال هذا المصنع الإلهي، وعظمته قياساً على ذلك المصنع الإنساني.

ومثلاً: كما أن حانوتاً أو مخزناً للإعاشة والأرزاق، ومحلاً عظيماً للأغذية والمواد، احضر فيه - من كل جانب - ألف نوع من المواد الغذائية، وميّز كل نوع عن الآخر، وصفف في محله الخاص به، يرينا أن له مالكاً ومدبراً؛ كذلك هذا المخزن الرحماني للإعاشة الذي يسيح في كل سنة مسافة أربعة وعشرين ألف سنة، في نظام دقيق متقن، والذي يضم في ثناياه مئات الآلاف من أصناف المخلوقات التي يحتاج كل منها إلى نوع خاص من الغذاء. والذي يمر على الفصول الأربعة فيأتي بالربيع كشاحنة محمولة بآلاف الأنواع من مختلف

الأطعمة، فيأتي بها إلى الخلق المساكين الذين نفد قوتُهم في الشتاء. تلك هي الكرة الأرضية، والسفينة السبحانية التي تضم آلاف الأنواع من البضائع والأجهزة ومعلبات الغذاء. فهذا المخزن والحانوت الرباني، يُري - وفق مقاييس علم الإعاشة والتجارة الذي تقرأونه - صاحبَه ومالكَه ومتصرفَه بدرجة عظمة هذا المخزن، قياساً على ذلك المخزن المصنوع من قبل الإنسان، ويعرّفه لنا، ويحببه إلينا.

ومثلاً: لو أن جيشاً عظيماً يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم، لكل جنس طعامه المستقل عن الآخر، وما يستعمله من سلاح يغاير سلاح الآخر، وما يرتديه من ملابس تختلف عن ألبسة الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصه هي غير المدة للآخر.. فقائد هذا الجيش الذي يزوّدهم وحده بالأرزاق المختلفة، والأسلحة المتباينة، والألبسة المتغايرة، دون نسيان أي منها ولا التباس ولا حيرة، لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما أن هذا المعسكر العجيب يرينا بداهة ذلك القائد الخارق، بل يحببه إلينا بكل تقدير وإعجاب؛ كذلك معسكر الأرض؛ ففي كل ربيع يجنّد مجدداً جيشاً سبحانياً عظيماً مكوناً من أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته وتدريبه ورخصه الخاصة به، من لدن قائد عظيم واحد أحد جل وعلا، بلا نسيان لأحد ولا اختلاط ولا تحير وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام.. فهذا المعسكر الشاسع الواسع للربيع الممتد على سطح الأرض يُري - لأولي الألباب والبصائر - حاكم الأرض حسب العلوم العسكرية وربّها ومدبرها، وقائدها الأقدس الأجلّ، ويعرّفه لهم، بدرجة كمال

هـذا المعسـكر المهيـب، ومـدى عظمتـه، قياسـاً إلـى ذلـك المعسـكر المذكور، بل يحبب مليكه سبحانه بالتحميد والتقديس والتسبيح.

ومـثلاً: هـب أن ملايـين المصـابيح الكهربائيـة تتجـول فـي مدينـة عجيبة دون نفاد للوقود ولا انطفاء؛ ألا تُري -بإعجاب وتقدير- أن هنـاك مهندسـاً حاذقـاً، وكهربائيـاً بارعـاً لمصـنع الكهربـاء، ولتلـك المصابيح؟.. فمصابيح النجوم المتدلية من سقف قصر الأرض وهي اكبر من الكرة الأرضية نفسها بألوف المرات حسب علم الفلك وتسير أسرع من انطلاق القذيفة، من دون أن تخل بنظامها، أو تتصادم مع بعضها مطلقاً ومن دون انطفاء، ولا نفاد وقود وفق ما تقرأونه في علم الفلك.. هذه المصابيح تشير بأصابع من نور إلى قدرة خالقها غير المحدودة . فشمسنا مثلاً وهي أكبر بمليون مرة من كرتنا الأرضية، وأقدم منها بمليون سنة، ما هي إلا مصباح دائم، وموقد مستمر لدار ضيافة الرحمن. فلأجل إدامة اتقادها واشتعالها وتسجيرها كل يوم يلزم وقوداً بقدر بحار الأرض، وفحماً بقدر جبالها، وحطباً بقدر أضعاف أضعاف حجم الأرض، ولكن الذي يشعلها -ويشعل جميع النجوم الأخرى أمثالها -بلا وقود ولا فحم ولا زيت ودون انطفاء ويسيّرها بسرعة عظيمة معاً دون اصطدام، إنما هي قدرة لا نهاية لها وسلطنة عظيمة لا حدود لها.. فهذا الكون العظيم وما فيه من مصابيح مضيئة، وقناديل متدلية يبين بوضوح - وفق مقاييس علم الكهرباء الذي قرأتموه أو ستقرأونه - سلطان هذا المعرض العظيم والمهرجان الكبير، ويعرّف منوّره ومدبّره البديع وصانعه الجليل، بشهادة هذه النجوم المتلألئة، ويحببه إلى الجميع بالتحميد والتسبيح والتقديس بل يسوقهم إلى عبادته سبحانه.

ومثلاً: لو كان هناك كتاب، كتب في كل سطر منه كتاب بخط دقيق وكُتب في كل كلمة من كلماته سورة قرآنية، وكانت جميع مسائله ذات مغزى ومعنى عميق، وكلها يؤيد بعضها البعض، فهذا الكتاب العجيب يبين بلا شك مهارة كاتبه الفائقة، وقدرة مؤلفه الكاملة. أي أن مثل هذا الكتاب يعرّف كاتبه ومصنّفه تعريفاً يضاهي وضوح النهار، ويبين كمالَه وقدرتَه، ويثير من الإعجاب والتقدير لدى الناظرين إليه ما لا يملكون معه إلا ترديد: تبارك الله، سبحان الله، ما شاء الله! من كلمات الاستحسان والإعجاب؛ كذلك هذا الكتاب الكبير للكون الذي يُكتب في صحيفة واحدة منه، وهي سطح الأرض، ويُكتب في ملزمة واحدة منه، وهي الربيع، ثلثمائة ألف نوع من الكتب المختلفة، وهي طوائف الحيوانات وأجناس النباتات، كل منها بمثابة كتاب.. يُكتب كل ذلك معاً ومتداخلاً بعضها ببعض بلا اختلاط ولا خطأ ولا نسيان، وفي منتهى الانتظام والكمال بل يُكتب في كل كلمة منه كالشجرة، قصيدة كاملة رائعة، وفي كل نقطة منه كالبذرة، فهرس كتاب كامل. فكما أن هذا مشاهد وماثل أمامنا، ويُرينا بالتأكيد أن وراءه قلماً سيالاً يسطر، فلكم إذن أن تقدروا مدى دلالة كتاب الكون الكبير العظيم الذي في كل كلمة منه معان جمة وحكم شتى، ومدى دلالة هذا القرآن الأكبر المجسم وهو العالم، على بارئه سبحانه وعلى كاتبه جل وعلا، قياساً إلى ذلك الكتاب المذكور في المثال. وذلك بمقتضى ما تقرأونه من علم حكمة الأشياء أو فن القراءة والكتابة، وتناوله بمقياس اكبر، وبالنظرة الواسعة إلى هذا الكون الكبير. بل

تفهمون كيف يعرّف الخالقَ العظيم بـ (الله اكبر) وكيف يعلّم التقديس بـ (سبحان الله) وكيف يحبّب الله سبحانه إلينا بثناء (الحمد لله)". [1]

ساق النورسي وكما رأينا أمثلة مشهدية للطلاب منها ما يدرسونه في كتبهم، ومنها ما يعرفونه بخبرتهم اليومية، ثم ضخّم صورتها في أذهانهم وعظّمها أمام أنظارهم في صور وأشكال خارقة للعوائد، ومخالفة للمعهود لديهم، ولكنها مألوفة لديهم، ولا تنبو عنها مداركهم العقلية، ليصل من خلالها إلى أن وجود صانع ومبدع يقف وراءها من المعارف الضرورية، وتقف هي مع هذا وذاك معرفة به، ودالة على علمه الواسع المحيط، ومقدرته العجيبة على الصنع والإيجاد.

وقياساً على ذلك فإن الأرض التي تحتوي على الألوف المؤلفة من الآيات المعجزة، والكائنات الخارقة في خلقها وتكوينها ودقة صنعها للعوائد، تقف هي الأخرى شاهدة على الله تعالى، ومعرفة بخالقها، ودالة عليه، وتشير إلى أسمائه وصفاته الجليلة إشارة تصل إلى حد اليقين.

خلق الله

ظلت فكرة خلق الأشياء وإبداعها على غير مثال سابق، وإخراجها من العدم إلى الوجود، غير مسبوقة بمادة ولا زمان، من أكثر الأفكار التي كانت محل جدال وخلاف طويل بين الفلاسفة والمفكرين، أفضى في النهاية إلى حيرتهم وترددهم في الإقرار أو الاعتراف بخالق

(1) نفس المصدر، ص 175- 178.

لها، فأحالوها إلى محض الصدفة، أو إلى الأسباب أسباب ومسببات، متصلة الحلقات بلا توقف أو انقطاع.

وحلاً للمشكلة أو تجاوزاً لها، فرض النورسي الفرضية البسيطة التالية:

"إذا أسند إيجاد الموجودات كلها إلى صانع واحد، يكون الأمر سهلاً هيناً بسهولة إيجاد موجود واحد، وإن أسند إلى الأسباب الكثيرة والطبيعة، فإن خلق ذبابة واحدة يكون صعباً كخلق السماوات، ويكون خلق الزهرة عسيراً بقدر خلق الربيع، وكذا الثمرة بقدر البستان".[1]

يعنى أن مدار الخلق كله على نسبة المخلوق إلى واحد أو أكثر، فعند الواحد نجد الفعل دائماً سهلاً وهيناً ويسيراً، وعند الكثرة نجابه بالصعوبة والعسر، بل الاستحالة وعدم الوجوب في الأحوال كلها.

وقال النورسي عند مقارنته بين منهج القرآن البرهاني في إثبات الخلق للخالق عز وجل، وبين منهج الفلاسفة الجدلي:

" إن القرآن الكريم يفوض أمر المخلوقات غير المحدودة إلى الصانع الواحد ويسند إليه كل شيء مباشرة، فيسلك طريقاً سهلاً بدرجة الوجوب، ويدعو إليها وكذلك يفعل المؤمنون.

أما أهل الشرك والطغيان، فإنهم بإسنادهم المصنوع الواحد إلى أسباب لا حد لها يسلكون طريقاً صعباً إلى درجة الامتناع، بينما المصنوعات التي هي في مسلك القرآن مساوية لمصنوع واحد من هذا المسلك، بل إن صدور جميع الأشياء من الواحد الأحد، أسهل وأهون بكثير من صدور شيء واحد من أشياء لا حد لها، حيث إن

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 330.

ضابطاً واحداً يدبر أمر ألف جندي بسهولة أمر جندي واحد. بينما إذا أُحيل تدبير أمر جندي إلى ألف ضابط، فالأمر يشكل ويصعب بألف ضعف وضعف، وتنشأ عنه الاختلافات والاضطرابات والمماحكات".[1]

إذن فإحالة أمر الخلق والمخلوقات إلى مبدع ومكون ومحدث واحد لا شريك له في الخلق، يريح العقل الإنساني من مشاكل معقدة وعويصة ولا حل لها. فيطمئن القلب وتسكن النفس. أما فكرة إحالتها لغير الواحد الأحد، فليست غير ممكنة فقط، بل ممتنعة القبول عقلاً، كامتناع قيادة ألف ضابط في الجيش لجندي واحد.

ومثّل النورسي لتلك الحقيقية المعلومة بداهة بثلاثة أمثلة، متحدة في مضمونها العلمي، ومختلفة في وقائعها، فقال في الأول منها:

"إن ذرة صغيرة شفافة لماعة لا تسع نور عود ثقاب بالذات ولا تكون مصدراً له. إذ يمكن أن يكون له نور بالأصالة بقدر جرمه وبمقدار ماهيته، كذرة جزئية، ولكن إذا ما انتسبت إلى الشمس وفتحت عينها تجاهها ونظرت إليها فإن تلك الذرة الصغيرة يمكن أن تستوعب تلك الشمس بضيائها وألوانها السبعة وحرارتها حتى بمسافتها. وتنال نوعاً من مظاهر تجليها الأعظم. بمعنى أن تلك الذرة إن بقيت سائبة دون انتساب، مستندة إلى ذاتها، لا تعمل شيئاً إلا بقدر الذرة، ولكن إن عُدت مأمورة لدى الشمس ومنسوبة إليها ومرآة لها، فإنها تستطيع أن تظهر قسماً من نماذج جزئية لإجراءات الشمس".[2]

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 334.

(2) المكتوبات، النورسي، ص 331.

وقال في الثاني:

" أخوان، أحدهما شجاع يعتمد على نفسه ويعتد بها، والآخر شهم غيور يملك حمية الدفاع عن الوطن، فعند نشوب الحرب، لا ينتسب الأول إلى الدولة لاعتداده بنفسه، بل يرغب أن يؤدي الأعمال بنفسه، مما يضطره هذا إلى حمل منابع قوته على ظهره، ويلجؤه إلى نقل تجهيزاته وعتاده بقدرته المحدودة، ولذا لا يستطيع أن يجابه إلا قوة عريف في الجيش لا أكثر.

أما الأخ الآخر، غير المعتد بنفسه، بل يعد نفسه عاجزاً لا قوة له. فانتسب إلى السلطان، وانخرط في سلك الجندية، فأصبح جيش الدولة العظيم نقطة استناد له بذلك الانتساب، وخاض غمار الحرب بقوة معنوية عظيمة يمدها ذلك الانتساب، تعادل قوة جيش عظيم حيث يمكن للسلطان أن يحشدها له، فحارب العدو حتى جابه مشيراً عظيماً من العدو المغلوب، فامسك به أسيراً، وجلبه إلى معسكره باسم السلطان.

وسر هذه الحالة وحكمتها هي:

أن الشخص الأول السائب لكونه مضطراً إلى منابع قوته وتجهيزاته، لم يقدر إلاّ على عمل جزئي جداً. أما هذا الموظف فليس مضطراً إلى حمل منابع قوته بنفسه، بل يحمل عنه ذلك الجيش بأمر السلطان، فيربط نفسه بتلك القوة العظيمة بالانتساب، كمن يربط جهاز هاتفه بسلك بسيط بأسلاك هواتف الدولة".[1]

وقال في الثالث:

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 332/331

" صـديقان يرغبـان فـي كتابـة بحـث يحـوي معلومـات إحصـائية جغرافية حول بلاد لـم يشاهداها أصلاً. فأحدهما ينتسب إلى سلطان تلك البلاد، ويدخل دائرة البريد والبرق، ويتم معاملات ربط خط هاتفه ببدالة الدولة لقاء أجرة زهيدة، ويتمكن بهذه الوسيلة أن يتصل مع الجهات ويتسلم منها المعلومات. وهكذا كتب بحثاً فيما يخص الإحصائيات الجغرافية، في غاية الجودة والإتقان والعلمية.

أما الآخر سيسيح دوماً طوال خمسين سنة ويقتحم المصاعب والمهالك ليشاهد تلك الأماكن بنفسه، وليسمع الأحداث بنفسه. أو ينفق ملايين الليرات ليمد أسلاك الهاتف كما هي للدولة. ويكون مالكاً لأجهزة المخابرة كما هي للسلطان، كي يكون بحثه قيماً كبحث صاحبه". [1]

إن الانتساب في الأمثلة الثلاثة جعل كلاً من الذرة والأخ العاقل والصديق العالم يحظى بتجلٍ خاص من تجليات من استند إلى قوته واقتداره وسلطته. وبقوة ذلك الاستناد، استطاع كل واحد منهم أن يؤدي بسهولة ويسر من الأعمال ما يستحيل عليه أداؤها بقوته الذاتية المحدودة.

أما إذا انقطع ذلك الانتساب، فلن يحظى من آثر الاعتماد على قواه الذاتية بمظهر الانتساب، وبالتالي لن يتمكن من إنجاز شيء يعتد به في مجال الأعمال، وذلك لما يكتنف طريقه من صعوبات وعقبات تصل حد الاستحالة التامة.

وخلاصة الفكرة لخصها النورسي في قوله:

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 332

"إن في طريق الوحدة والإيمان سهولة مطلقة بدرجة الوجوب، بينما في طريق الشرك والأسباب مشكلات وصعوبات بدرجة الامتناع، لأن الواحد يعطي وضعاً معيناً لكثير من الأشياء، ويستحصل منها نتيجة معينة دون عناء، بينما لو أحيل اتخاذ ذلك الوضع واستحصال تلك النتيجة إلى تلك الأشياء الكثيرة لما أمكن من ذلك إلا بتكاليف وصعوبات كثيرة جداً وبحركات كثيرة جداً".[1]

يعني أن الأشياء تمثل أمام الخالق الواحد، متخذة لنفسها موقف المنفصل لإرادته، والمستسلم لقدرته، والمنسجم مع علمه وحكمته، فيوجهها بكل يسر وسهولة وجهه تحقق أهدافه وغاياتها من خلقها وإبداعها. أما في حالة غير الواحد، فإنها تجد أمامها قوى مختلفة ومتباينة الأغراض، ولا تتفق مع طبيعتها السلسة للانقياد، فتتحرك من غير نظام ولا تتحقق لها إلا القدر الضئيل من الإنجازات المرجوة منها.

دقة الصنعة الإلهية

تستند حقائق الموجودات في أصولها إلى أسماء الله تعالى، فحقيقة كل واحد منها تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير منها، وأن الإتقان الموجود في الأشياء يستند هو الآخر إلى اسم من الأسماء، حتى قال أولياء محققون إن:

"الحقائق الحقيقية للأشياء، إنما هي الأسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الأشياء فهي ظلال تلك الحقائق".[2]

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 333

(2) الكلمات، النورسي، ص 749

وحاول النورسي انطلاقاً من تلك الفكرة التي تشير إلى تجلي الأسماء الإلهية في كل مخلوق لله تعالى إلى تقريب حقيقتها بمثال طويل، قال فيه:

" إذا أراد فنانٌ بارع في التصوير والنحت، رسمَ صورةِ زهرة فائقة الجمال، وعملَ تمثالِ حسناءَ رائعة الحسن، فإنه يبدأ أولَ ما يبدأ بتعيين بعضِ خطوطِ الشكل العام لكل منهما.. فتعيينُه هذا إنما يتم بتنظيم، ويعملُه بتقديرٍ يستند فيه إلى علم الهندسة، فيعيّن الحدودَ وفقَه.. فهذا التنظيمُ والتقدير يدلان على أنهما فُعِلا بعلمٍ وبحكمة. أي أن فعلَي التنظيم والتحديد يتمّان وفق "بركار" العلم والحكمة، لذا تَحكُم معانيَ العلم والحكمة وراءَ التنظيم والتحديد، إذن ستبيّن ضوابطُ العلم والحكمةِ نفسَها.. نعم، وها هي تبيّن نفسَها، إذ نشاهد الفنانَ قد بدأ بتصويرِ العين والأذن والأنف للحسناء وأوراقِ الزهرة وخيوطِها اللطيفة الدقيقة داخل تلك الحدود التي حدّدها.

والآن نشاهد أن تلك الأعضاء التي عُيّنت وفق "بركار" العلم والحكمة أخذت صيغةَ الصنعة المتقنة والعناية الدقيقة، لذا تحكمُ معانيَ الصُنع والعناية وراء "بركار" العلم والحكمة.. إذن ستبين نفسَها.. نعم، وها قد بدأت قابليةُ الحسن والزينة في الظهور مما يدل على أن الذي يحرّك الصنعةَ والعناية هو إرادةُ التجميل والتحسين وقصدُ التزيين، لذا يحكمان من وراء الصنعة والعناية؛ وها قد بدأ (الفنانُ) بإضفاء حالة التبسّم لتمثال الحسناء، وشرَع بمنح أوضاعٍ حياتية لصورة الزهرة، أي بدأ بفعلَي التزيين والتنوير. لذا فالذي يحرّكُ معنى التحسين والتنوير هما معنَيا اللطف والكرم.. نعم! إن هذين

المعنيين يحكمان، بل يهيمنان إلى درجة كأن تلك الزهرةَ لطفٌ مجسّم وذلك التمثالَ كرمٌ متجّسد. تُرى ما الذي يحرك معانيَ الكرم واللطف، وما وراءهما غيرُ معاني التودد والتعرف. أي تعريف نفسه بمهارته وفنّه وتحبيبها إلى الآخرين.. وهذا التعريفُ والتحبيب آتيان من الميل إلى الرحمة وإرادة النعمة.. وحيث إن الرحمةَ وإرادةَ النعمة من وراء التودد والتعرّف، فستملآن إذن نواحي التمثال بأنواع الزينة والنعم، وستعلّقان على الصورة، صورة الزهرة الجميلة هديةً ثمينة.. وها نحن نشاهد أن (الفنان) قد بدأ بملء يدي التمثال وصدره بنعمٍ قيّمة ويعلّق على صورة الزهرة درراً ثمينة.. بمعنى أن معاني الترحم والتحنن والإشفاق قد حرّكت الرحمةَ وإرادةَ النعمة.. وما الذي يحرك معاني الترحم والتحنن هذه، وما الذي يسوقهما إلى الظهور لدى ذلك المستغنى عن الناس، غيرُ ما في ذاته من جمال معنوي وكمال معنوي يريدان الظهور. إذ إن أجملَ ما في ذلك الجمال، وهو المحبة، وألذَّ ما فيه وهو الرحمة، كلٌّ منها - أي المحبة والرحمة- يريد إراءة نفسِه بمرآة الصنعة، ويريد رؤية نفسِه بعيون المشتاقين، لأن الجمال -وكذا الكمال- محبوبٌ لذاته، يحب نفسَه أكثر من أي شيء آخر، حيث إنه حُسنٌ وعشقٌ في الوقت نفسه، فاتحاد الحسن والعشق آتٍ من هذه النقطة.. ولما كان الجمال يحب نفسَه، فلابد أنه يريد رؤية نفسه في المرايا، فالنِعم الموضوعة على التمثال، والثمرات اللطيفة المعلقة على الصورة، تحمل لمعةً براقة من ذلك الجمال المعنوي -كلّ حسب قابليته- فتُظهر تلك اللمعات الساطعة نفسَها إلى صاحب الجمال، وإلى الآخرين معاً".[1]

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 749،751

إن الصورة أو التمثال تتطلب من الفنان ليس فقط الآلات المعينة له في عمله، بل تتطلب وبالدرجة الأولى موهبة رفيعة، تساوقها عدة صفات تعمل مجتمعة على إبرازهما إلى حيز الوجود، مثل:

- العلم والحكمة، وذلك يكفل للعمل عنصري التنظيم والتقدير، أو بمعنى أشمل الدقة في الصنعة.
- اللطف والكرم لتحسين الصورة والتمثال أو تنويرهما.
- الرحمة وإرادة النعمة والمحبة، أي ما تحمله نفسه من جمال يسعى للظهور فيما يبدعه من أعمال.

إلى غيرها من الصفات التي تقف شاهدة على أن وراء قيمة العمل الفنية والجمالية، رساماً أو مثّالاً فيه من الجمال والكمال بقدر ما في عمله.

وعلى مثال ذلك – ولله المثل الأعلى – يأتي عمل الصانع الحكيم في تنظيمه للمخلوقات، تنظيماً تتجلى فيه أسماء الله وصفاته، فيقول النورسي في تفسيره التطبيقي على المثل:

" وهكذا بتعيينه سبحانه وتعالى حدودَ الشكل العام لكل شيء تعييناً دقيقاً يُظهر اسمَي "العليم، الحكيم". ثم يرسم بمسطرة العلم والحكمة ذلك الشيء ضمن الحدود المعينة، رسماً متقناً إلى حد يُظهر معاني الصنع والعناية، أي اسمَي: "الصانع، الكريم".. ثم يضفي على تلك الصورة جمالاً وزينة، بفرشاة العناية وباليد الكريمة للصنعة، فإن كانت الصورة أنساناً أضفى على أعضائه كالعين والأنف والأذن ألواناً من الحسن والجمال.. وإن كانت الصورةُ زهرةً أضفى سبحانه إلى أوراقها وأعضائها وخيوطها الرقيقة ألواناً من الجمال والرواء

والحسن.. وإن كانت الصورة أرضاً منح معادنَها ونباتاتها وحيواناتها ألواناً من الزينة وضروباً من الجمال والحسن.. وإن كانت الصورة جنة النعيم أسبغ على قصورها ألواناً من الحسن وعلى حورها أنواعاً من الزينة.. وهكذا قس على هذا المنوال.

ثم يزّين ذلك الشيءَ وينوره بطرازٍ بديع من الزينة والنور حتى تحكُم عليه معانيَ اللطف والكرم فتجعل ذلك الموجود المزيَّن وذلك المصنوع المنوَّر لطفاً مجسماً وكرماً متجسداً يذكّر باسمَي "اللطيف، الكريم" والذي يسوق ذلك اللطف والكرم إلى هذا التجلي إنما هو التودد والتعرّف، أي شؤون تحبيب ذاته الجليلة إلى ذوي الحياة وتعريفَ ذاته إلى ذوي الشعور حتى يُقرأ على ذلك الشيء اسما "الودود والمعروف" اللذين هما وراء اسمَي "اللطيف، الكريم" بل يُسمعان قراءته لذينك الاسمَين من حال المصنوع نفسه. ثم يجمّل سبحانه ذلك الموجود المزيّن، وذلك المخلوق الجميل، بثمرات لذيذة، بنتائج محبوبة، فيحوّل جل وعلا الزينةَ إلى نعمةٍ، واللطفَ إلى رحمةٍ، حتى يدفع كل مشاهد يقرأ اسمَي "المنعم، الرحيم" حيث تشف تجليات ذينك الاسمَين من وراء الحجب الظاهرية. ثم إن الذي يسوق اسمي "الرحيم والكريم" وهو المستغني المطلق، إلى هذا التجلي إنما هو شؤون "الترحّم والتحنن" مما يجعل المشاهد يقرأ على الشيء اسمَي "الحنان، الرحمن". والذي يسوق معاني الترحم والتحنن إلى التجلي، جمال وكمال ذاتيان، يريدان الظهور، مما يدفع المشاهد إلى قراءة اسم "الجميل"، واسمَي "الودود، الرحيم" المندرجين فيه؛ إذ الجمال محبوبٌ لذاته. والجمال وذو الجمال يحب نفسَه بالذات فهو

حُسنٌ وهو محبة. وكذا الكمال محبوب لذاته، أي محبوب بلا داعٍ إلى سبب، فهو مُحبٌّ وهو محبوب.

فما دام جمالٌ في كمال لا نهاية له، وكذا كمالٌ في جمال لا نهاية له، يُحَبُّ كلٌ منهما غايةَ الحب ومنتهاه، وهما يستحقان المحبة والعشق، فلابد أنهما يريدان الظهور في مرايا، ويريدان شهود لمعاتهما وتجلياتهما - حسب قابلية المرايا- وإشهادها الآخرين.

وهذا يعني أن الجمال الذاتي والكمال الذاتي للصانع ذي الجلال، والحكيم ذي الجمال، والقدير ذي الكمال، يريدان الترحم والتحنن، فيسوقان اسمَي "الرحمن، الحنان" إلى التجلي. والترحم والتحنن يسوقان اسمَي "الرحيم والمنعم" إلى التجلي، وذلك بإظهار الرحمة والنعمة معاً. والرحمة والنعمة تقتضيان شؤون التودد والتعرف وتسوقان اسمَي "الودود والمعروف" إلى التجلي فيظهران على المصنوع. والتودد والتعرف يحركان معنى اللطف والكرم ويستقرآن اسمَي "اللطيف والكريم"، في بعض نواحي المصنوع. وشؤون اللطف والكرم تحرك فعلَي التزيين والتنوير فتستقرىء اسمَي "المزيّن المنور" بلسان حُسن المصنوع ونورانيته. وشؤون التزيين والتحسين تقتضي معاني الصنع والعناية وتستقرىء اسمَي "الصانع والمحسن" في السيماء الجميل لذلك المصنوع. وذلك الصنع والعناية تقتضيان العلم والحكمة فيستقرئ المصنوعُ اسمَي "العليم والحكيم" في أعضائه المنتظمة الحكيمة. ولاشك أن ذلك العلم والحكمة تقتضيان أفعال التنظيم والتصوير والتشكيل، فيستقرئ المصنوعُ بشكله وبهيئته، اسمَي "المصوّر المقدّر"".[1]

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 751،752

ثم لخص النورسي حديثه السابق في قوله:

" وهكذا خلق الصانع الجليل مصنوعاته كلّها، حتى يستقرئ القسمُ الغالب منها ولا سيما ذوي الحياة، كثيراً جداً من الأسماء الحسنى، وكأنه سبحانه قد ألبس كل مصنوع عشرين حلّة متباينة متراكبة، أو كأنه لف مصنوعَه ذلك بعشرين غطاء وستَره بعشرين ستاراً، وكتب على كل حُلة، وعلى كل ستار أسماءه المختلفة".[1]

ومن هذا وذاك يتضح أن كل مخلوق أياً كانت منزلته ورتبته بين المخلوقات ينال من أسماء الله تعالى وصفاته القدر الكافي لإيجاده كائناً متميزاً عن غيره. فتتجلى فيه بصور وأشكال متنوعة بتنوع أعضائه وأجزائه. ويظهر هو من خلالها كشاهد على دقة الصنعة الإلهية وتفردها وجمالها وكمالها.

الأسماء والصفات

إن أكثر صور وحدة الوجود انتشاراً بين المسلمين تلك التي تؤكد على أن الله تعالى وحده هو الموجود الحق، وما سواه من العالم فليس له وجود حقيقي، ومنها انبثقت العبارة (لا موجود إلا هو).

والعبارة عند النورسي ليست صحيحة ولا حقيقية، لأن علاقة الله بمخلوقاته ليست أوهاماً، بل هي أثر من آثاره. وبناء عليه فالعبارة الصحيحة هي (لا موجود إلا منه) ثم سعى إلى تقريب تلك الفكرة إلى الأذهان بمثلين. جاء في الأول منهما قوله:

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 752،753

"لنفرض أن هناك سلطاناً، وان لهذا السلطان دائرة عدل، فهذه الدائرة تكون ممثلة لاسم (السلطان العادل) وان هذا السلطان في الوقت نفسه هو خليفة، إذن فإن له دائرة تعكس فيها ذلك الاسم. كما أن هذا السلطان يحمل اسم القائد العام للجيش، لذا ستكون له دائرة عسكرية تظهر ذلك الاسم، فالجيش مظهر لهذا الاسم.

والآن إذا قيل بأن هذا السلطان هو السلطان العادل فقط، وأنه لا توجد سوى دائرة العدل التي تعكس اسم السلطان الأعظم، ففي هذه الحالة تظهر بالضرورة بين موظفي دائرة العدل صفة اعتبارية - غير حقيقية - لأوصاف علماء دائرة الشئون الدينية بين موظفي دائرة العدل، وكذلك الحال بالنسبة للدائرة العسكرية، إذ لابد أن تظهر أحوالها ومعاملتها بشكل ظلي وفرضي وغير حقيقي بين موظفي دائرة العدل وهكذا.

إذن ففي هذه الحالة، فإن اسم السلطان الحقيقي وصفة حاكميته الحقيقية (الحاكم العادل). وحاكميته في دائرة العدل، أما صفاته الأخرى مثل الخليفة والقائد العام للجيش، فتبقى نسبية وغير حقيقية، بينما ماهية السلطان وحقيقة السلطنة تقتضيان هذه الأسماء جميعاً بصورة حقيقية، وأن الأسماء الحقيقية تتطلب هي الأخرى دوائر حقيقية وتقتضيها". [1]

فبما أن السلطان بحكم تبوئه مركز الصدارة في سلطنته، ويمثل رمز السلطة والنظام فيها. فإن كل ما فيها يحمل اسمه السلطاني وينسب إليه نسبة حقيقية. وفي كل منها يظهر اسمه ويدل عليه. فلو فرض أن

(1) المكتوبات، النورسي، ص 107،106

تلك مجتمعة ما هي إلاَّ ترديد لاسمه وانعكاس له. ففي تلك الحالة تبرز صفة غير حقيقية أشبه بالظل في كل واحد منها. ويقفز من فيها من العاملين إلى مركز الصدارة فتكون لهم شخصيتهم الاعتبارية بتلك الصفة وحدها.

أما السلطان فيبقى له من الاسم والصفة الحاكم العادل. أي فقط كرمز لسلطة الحاكم، وتتراجع باقي الأسماء والصفات إلى الظل فتصبح غير حقيقية ولا لازمة، مع أن طبيعة السلطة وأسسها التنظيمية تقضى بفرض أسمه حقيقة على كل دوائر السلطنة.

وانطلاقاً من تلك الحقائق البديهية يقول النورسي:

" وهكذا فإن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لها، أمثال الرحمن، الرزاق، الخلاق، الفعّال، الكريم، الرحيم، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها".[1]

يعني لاسم الله تعالى أسماء وصفات تتطلب ألوهيته، وتألّه الخلق له يوجب متعلقات حقيقية. ولكن:

" ما دام أصحاب وحدة الوجود يقولون (لا موجود إلا الله) وينزلون الموجودات منزلة العدم والخيال. فإن أسماء الله تعالى أمثال واجب الوجود، الموجود، الأحد الواحد، تجد تجلياتها الحقيقية ودوائرها الحقيقية. وحتى إن لم تكن دوائر هذه الأسماء ومراياها حقيقية – وأصبحت خيالية وعدمية – فلا تضر تلك الأسماء شيئاً، بل ربما يكون الوجود الحقيقي أصفى والمع إن لم يكن في مرآته لون الوجود. ولكن في هذه الحالة لا تجد أسماء الله الحسنى الأخرى

(1) المكتوبات، النورسي، ص 107

أمثال الرحمن الرزاق القهار الجبار الخلاق تجلياتها الحقيقية. بل تصبح اعتبارية ونسبية، بينما هذه الأسماء هي حقيقية كاسم الموجود، ولا يمكن أن تكون ظلاً، وهي أصلية لا يمكن أن تكون تابعة". [1]

وعلى رأي النورسي فلا غضاضة من إطلاق تلك الأحكام كواجب الوجود والموجود والأحد وغيرها على الله تعالى، وإضافتها إلى اسم الله، طالما أن لها مظاهرها الحقيقية وتجلياتها المعتبرة. فتعبر عندئذ تعبيراً حقيقياً عن ذاته تعالى المؤلّهة، ولكنها تأخذ في جميع مستوياتها النظرية طابعاً عرفانياً مجرداً، تتضاءل إلى جانبه سائر أسمائه الحسنى. وتتراجع إلى مرتبة الظل لها، ولا تنسب إليه قياساً عليها.

أما المثل فقد أورده تدعيماً لتلك الفكرة، ونموذجاً تطبيقياً لها. فجاء فيه:

" لنفرض أن في هذه الغرفة أربع مرايا جدارية كبيرة موضوعة على جدرانها الأربعة، فصورة الغرفة ترتسم على كل مرآة من هذه المرايا، ولكن كل مرآة تعكس صورة الأشياء بالشكل الذي يناسب صفتها ولونها، أي أن كل مرآة ستعكس منظراً خاصاً للغرفة.

فإذا دخل رجلان إلى الغرفة واطلع أحدهما على إحدى هذه المرايا، فإنه يعتقد بأنه يرى جميع الأشياء مرتسمة فيها، وعندما يسمع بوجود مرايا أخرى وما فيها من صور، فإنه يعتقد بأنها صور المرايا التي تنعكس على مرآته نفسها والتي لا تشغل إلا حيزاً صغيراً منها، بعد أن تضاءلت صورتها مرتين وتغيرت حقيقتها، فيقول:

- إنني أرى الصورة هكذا، إذن فهذه هي الحقيقة.

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 107

فيقول له الرجل الثاني:

- نعم إنك ترى ذلك وما تراه صحيح. ولكن ليس هو في الواقع الصورة نفسها، فهناك مرايا أخرى غير المرآة التي تحدق فيها. وتلك المرايا ليست صغيرة وضئيلة ومنعكسة من الظلال كما تراها في مرآتك".[1]

إذن فإن تغطية جدران الغرفة الأربعة بالمرايا، يجعل جداراً عاكساً لجانب أو لآخر منها. وتتداخل المناظر بعضها في بعض بشكل يوهم الوالج فيها، بأنه يرى كل شيء كما لو كان حقيقياً، ورؤيته تلك صادقة لا ريب في صدقها، ولكنها ليست الحقيقة في ذاتها. ومنها انتهى النورسي للقول:

" وهكذا فإن كل اسم من أسماء الله الحسنى يتطلب مرآة خاصة به على حدة، فمثلاً: إن الأسماء الحسنى أمثال الرحمن والرزاق، لما كانت أسماء حقيقية وأصلية، فإنها تقتضي موجودات لائقة بها ومخلوقات محتاجة إلى مثل هذا الرزق، ومثل هذه الرحمة".[2]

وعلى هذا فإن أسماء الله الحسنى أصلية وليست تابعة لأحكام ذاتية لله تعالى، وكل اسم يقتضي ويستلزم أمراً زائداً يصلح له ويليق به، وهو التجلي أو التعلق، أو بمعنى أشمل ظهور وانكشاف مقتضيات الاسم وتحقق معانيه على صفحة الوجود الخارجي، تماماً كما تتراءى حقائق الأشياء على المرآة الصافية، وتتكشف حقائقها فتتبدى مستقلة في وجودها عن الذات الإلهية.

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 107،108

(2) المكتوبات، النورسي، ص 108

المبارزة

اقتضت حكمة الله تعالى وجود التضاد والتباين بين الكائنات كضرورة لابد منها للحفاظ على بقائها، وتمتحة لازمة لكمال الحياة، وأطلق عليها النورسي اسم المبارزة كَعَلم دال عليها، ثم جعلها جزءً لا يتجزأ من مقتضيات ومتعلقات الأسماء الإلهية، فقال.

" إن لرب العالمين، وخالقها ومدبر أمرها ذي الجلال والإكرام أسماء حسنى كثيرة، متغايرة أحكامها، متفاوتة عناوينها، فالاسم والعنوان والصفة التي تقتضي إرسال الملائكة للقتال في صف الصحابة الكرام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لدى محاربة الكفار، هو الاسم نفسه، والعنوان نفسه، والصفة نفسها التي تقتضي أن تكون هناك محاربة بين الملائكة والشياطين، وان تكون هناك مبارزة بين السماويين الأخيار والأرضيين الأشرار".[1]

ثم مثل لتلك المبارزة بقوله:

" نرى أن السلطان له عناوين مختلفة وأسماء متنوعة حسب دوائر حكومته، فالدائرة العدلية تعرفه باسم الحاكم العادل، والدائرة العسكرية تعرفه باسم القائد العام، بينما دائرة المشيخة تذكره باسم الخليفة. والدائرة الرسمية تعرفه باسم السلطان، والأهلون المطيعون للسلطان يذكرونه باسم السلطان الرحيم، بينما العصاة يقولون أنه الحاكم القهار، وقس على هذا، فإن ذلك السلطان الجليل المالك لناصية الأهلين كافة، لا يعدم بأمر منه شخصاً عاجزاً، وعاصياً ذليلاً، بل يسوقه إلى المحكمة باسم الحاكم العادل.

(1) الكلمات، النورسي، ص 205،206

ثـم إن ذلـك السـلطان الجليـل لا يلتفـت إلتفاتـة تكـريم إلـى أحـد موظفيه، الجديرين بها حسب علمه به، ولا يكرمه بهاتفه الخاص، بل يفـتح ميـدان مسـابقة، ويهيـئ لـه اسـتقبالاً رسـمياً، يـأمر وزيـره ويـدعو الأهلين إلى مشاهدة المسابقة، ثـم يكـافئ ذلـك الموظف بعنوان هيئة الدولة وإدارة الحكومة، فيعلن مكافاته في ذلك الميدان نظير استقامته، أي يكرمه ويتفضل عليه أمام جموع غفيرة من أشخاص سامين بعد امتحان مهيب، لإثبات جدارته أمامهم".[1]

إن ذلك السلطان له أسماء كثيرة لها آثارها وموجباتها من مملكته، بدءاً من اسمه الأعظم الذي به يفرض حاكميته وحكمه على رعاياه، انتهاءً بالأسماء التي تشيع العدل بينهم.

غير أن هذا السلطان لا يجازي أياً من رعاياه إلا بعد أن يفتح باب المفاضلة أو المقابلة أمام الجميع ليبرز ويظهر على رؤوس الأشهاد من بينهم من هو أفضل وأحسن ويستحق ما هو أهل له.

وهكذا الحال مع أسماء الله تعالى، فيقول النورسي:

" فللّه تعالى أسماء حسنى كثيرة، وله شئون وعناوين كثيرة جداً. وله تجليات وظواهر جمالية، فالاسم والعنوان والشأن الذي يقتضي وجود النور والظلام، والصيف والشتاء، والجنة والنار، يقتضي شمول قـانون المبـارزة نوعـاً مـا وتعميمـه أيضـاً كقـانون التناسـل، وقـانون المسابقة، وقانون التعاون كأمثاله من القوانين الشاملة، أي يقتضي شمول قانون المبارزة ابتداءً من المبارزة بين الإلهامات والوساوس

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 206

الدائرة حول القلب، وانتهاء إلى المبارزة بين الملائكة والشياطين في آفاق السماوات".[1]

يعني أن أسماء الله وسماتها تقتضي بالضرورة التضاد والتباين والخلاف، بين كل شيئين، كالسواد والبياض، والحياة والموت، والليل والنهار. على ألا يفهم من مقابلة كل منهما للآخر على ضوء ذلك الاقتضاء، إلا كونهما فكرتين متعاقبتين، تقف كل منها معارضة للأخرى ومناقضة للأخرى، ويزداد ذلك التعارض حتى يصل حد التنافر والمنازعة، أو كما في تعبير النورسي حد المبارزة.

قرب الله وبعده

أشارت كثير من آيات القرآن إلى قرب الله تعالى من عباده قرباً فيه من الشدة مالا يشعر به أحد من خلقه، كما دلت آيات أخرى على بعده تعالى بعداً هو أيضاً من الشدة بحيث لا يشعر به أحد. وشبه النورسي كلاهما بالشمس التي يبلغ قربها وبعدها من الناس الحدود القصوى، فقال:

" إن الشمس بنورها غير المقيد، ومن حيث صورتها المنعكسة غير المادية أقرب إليك من بؤبؤ عينك – التي هي مرآة لنافذة روحك – إلا أنك بعيد عنها غاية البعد، لأنك مقيد ومحبوس في المادة، ولا يمكنك أن تمس إلا قسماً من صورها المنعكسة وظلالها، ولا تقابل إلاّ نوعاً من جلواتها الجزئية، ولا تتقرب إلاّ لألوانها التي هي في

(1) الكلمات، النورسي، ص 206

حكم صفاتها، ولطائفة من أشعتها التي هي بمثابة طائفة من أسمائها".[1]

فالشمس بحكم قوة ظهورها، وسرعة انتشار أشعتها، ونفاذها في كل شيء، أقرب إلى الإنسان من إنسان عينه وسوادها، وفي الوقت نفسه هو بعيد عنها بحكم طبيعته المادية التي لا تتحمل ولا تحتمل إلا جزءاً غاية في الصغر منها، ولكن إذا أراد فعلاً الاقتراب منها. لزمه كما يقول النورسي:

" التجرد عن كثير جداً من القيود، والمضي في مراتب كلية كثيرة جداً، وكأنك تكبر معنى – من حيث التجرد – بقدر الكرة الأرضية، وتنبسط روحاً كالهواء، وترتفع عالياً كالقمر، وتقابل الشمس كالبدر، ومن بعد ذلك يمكنك أن تدعي نوعاً من القرب دون حجاب"[2]

وعليه فإذا أراد الإنسان الاقتراب من الشمس فعلاً، فعليه أن ينزع عنه كل ما يحول بينه وبين الدنو منها، وعلى رأسها كتلته المادية أو جسمه، ثم يتخذ لنفسه مادة شفافة ورقيقة وغاية في اللطف كالنور، وقابلة للتمدد والانتشار كالهواء، عندئذ بإمكانه الزعم ولو فرضاً بأنه اقترب منها قرباً لا ساتر بينه وبينها.

وزيادة في تصوير الفكرة في قالب مألوف، مثل النورسي لها قائلا:

" إن اسم القائد ـ مثلا ـ من بين أسماء السلطان الكثيرة ـ يظهر في دوائر متداخلة في دولته، فابتداءً من الدائرة الكلية للقائد العام العسكري ودائرة المشير والفريق حتى يبلغ دائرة الملازم والعريف.

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 217

(2) الكلمات، النورسي، ص 217

أي أن تجلي ظهوره يكون في دوائر واسعة ودوائر ضيقة وبشكل كلي وجزئي". [1]

ومقصوده أن صفة القيادة واسم القائد هي الغالبة في أنظمة الجيوش، بدءاً من أعلاها مرتبة إلى أدناها، وفي تسلسل طبيعي وفعال، وضمن إطارات قد تتسع وتضيق وفقاً لما يحقق امتداد القيادة وتغلغلها في جميع أفراد الجيش وقياداته العسكرية.

أما مدى قرب وبعد الجندي العادي ممن يحتل مركزاً جزئياً ضمن قيادة الجيش الكلية، فأوضحه النورسي بقوله:

" فالجندي، أثناء خدمته العسكرية، يتخذ من مقام العريف مرجعاً له، لما فيه من ظهور جزئي جداً للقيادة. ويتصل بقائده الأعلى بهذا التجلي الجزئي لاسمه، ويرتبط به بعلاقة، ولكن لو أراد هذا الجندي أن يتصل بالقائد الأعلى باسمه الأصلي، وان يقابله بذلك العنوان ينبغي له الصعود وقطع المراتب كلها من مرتبة العريف إلى المرتبة الكلية للقائد العام.

أي أن السلطان قريب من ذلك الجندي باسمه وحكمه وقانونه وعلمه وهاتفه وتدبيره، وان كان ذلك السلطان نورانياً ومن الأولياء الأبدال، فانه يكون قريباً إليه بحضوره بالذات، إذ لا يمنع شيء من ذلك ولا يحول دونه شئ. ومع أن ذلك الجندي بعيد عن السلطان، غاية البعد وهناك الألوف من المراتب التي تحول بينه وبين السلطان وهناك الألوف من الحجب تفصله عنه، ولكن السلطان يشفق أحياناً

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 217

على أحد الجنود فيأخذه الى حضور ديوانه ـ خلاف المعتاد ـ ويسبغ عليه من أفضاله وألطافه".[1]

فالسلطان وضمن منظومة القيادة العامة قريب من الجندي، ولكن الجندي بعيد عنه بعداً كبيراً، بحكم اسمه ومرتبته وصفته، ومع هذا وذاك فليس هناك مانع يحول بين السلطان وبين الاقتراب منه، وهكذا فإن قرب ذلك الجندي وبعده يشبه تماماً قرب الله وبعده عن عبده، فالله كما يقول النورسي:

" أقرب إلى كل شيء من أي شيء كان، مع أن كل شيء بعيد عنه بعداً لا حدود له".[2]

ومهما يكن من أمر، فإن قرب الله من عبده لا يعد مشكلة تؤرقه، وإنما المشكلة في الكيفية التي يقترب بها من الله، ذلك القرب الذي تزول فيه الحجب وترتفع الحواجز، وليس هناك إلا طريقة واحدة بيّنها النورسي في قوله:

" إذا أريد الدخول إلى ديوان قربه وحضوره المقدس بلا حجاب، فإنه يستلزم المرور بين سبعين ألف حجاب من الحجب النورانية والمظلمة، أي المادية والكونية والأسمائية والصفاتية، ثم الصعود إلى كل اسم من الأسماء الذي له ألوف من درجات التجليات الخصوصية والكلية، والمرور إلى طبقات صفاته الجليلة والرفيعة، ثم العروج إلى

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 217،218

(2) الكلمات، النورسي، ص 218

عرشه الأعظم الذي حظي بالاسم الأعظم، فإن لم يكن هناك جذب ولطف إلهي، يلزم ألوفاً من سني العمل والسلوك".[1]

فالقرب من ذات الله تعالى الجامعة للأسماء والصفات، ليس بالأمر الهين اليسير، بل يحتاج العبد إلى مجهودات شاقة ومضنية تصل في بعض الأحيان حد الاستحالة التامة، وقد تستغرق محاولته في الاقتراب من الله العمر كله ولا يقترب منه على الإطلاق، أما إذا أراد العبد القرب من أحد أسماء الله الحسنى فينصح النورسي قائلا:

"إذا أردت أن تتقرب إليه سبحانه باسم الخالق، فعليك الارتباط وتكوين علاقة أولاً من حيث إنه خالقك الخاص، ثم من حيث إنه خالق جميع الناس، ثم بعنوان أنه خالق جميع الكائنات الحية، ثم باسم خالق الموجودات كلها، لذا فإن لم تتدرج هكذا تبقى في الظل ولا تجد إلاّ جلوة جزئية".[2]

فما يجب عليه إذن هو:

الانتساب أولاً لله تعالى بصفة الخالقية، أي كونه خالقاً له هو، وعلى مستوى الفردية، ثم ينتقل من النسبة والانتساب إلى أن ينتمي إليه تعالى ضمن النوع البشري، ثم المخلوقات الحية، وأخيراً الموجودات كلها حية وغير حية، وإذا لم يفعل ذلك فربما ظل في مكانه بعيدا عن الله بعداً متناهياً.

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 218
(2) الكلمات، النورسي، ص 218

حركة الذرات

تتكون كل حفنة من تراب على ذرات متماثلة تعمل جميعها كما لو كانت ذرة واحدة لها معامل ومصانع خاصة بها، وبعدد أنواع النباتات والأشجار التي تزرع فيها، فإما أن يسند عملها في دقته وإعجازه إلى علم واسع محيط بكل شيء، وقدرة تبدع كل شيء من العدم، أو تنسب أعمالها إلى الله تعالى القدير على كل شيء، والعليم بكل شيء، وللتدليل على ذلك روى النورسي المثلين التاليين:

" لو سافر شخص إلى أوروبا وهو جاهل بوسائل الحضارة الغربية جهلاً حقيقياً، وعلاوة على ذلك فهو أعمى لا يبصر، ولو دخل هناك إلى جميع المعامل والمصانع، وأنجز أعمالاً بديعة في كل صنوف الصناعة، وفي أنواع الأبنية بانتظام كامل وحكمة فائقة، ومهارة بارعة تحيرت منها العقول، فلا شك أن من له ذرة من الشعور يعرف يقيناً: أن ذلك الرجل لا يعمل من تلقاء نفسه، بل هناك أستاذ عليم يلقنه ويستخدمه.

وأيضاً لو كان هناك عاجز أعمى مقعد قابع في كوخه الصغير، لا يحرك ساكناً ادخل عليه قليل من حصو، وقطع من عظم، وشيء يسير من قطن، وإذا بالكوخ الصغير تصدر منه أطنان من السكر وأطوال من النسيج، وآلاف من قطع الجواهر ومع ملابس في أبهى زينة وأفخر نوع، مع أطعمة طيبة في منتهى اللذة، أفلا يقول من له ذرة من العقل: أن ذلك الأعمى المقعد ما هو إلا حارس ضعيف لمصنع معجز وخادم لدى صاحبه ذي المعجزات".[1]

(1) الكلمات، النورسي، ص 654

بلغ الرجلان الجاهل والأعمى من الضعف والعجز في قواهما الحسية والعقلية حد المنتهى، ومع ما أتيا من الأعمال ما هو من قبيل الخوارق والمعجزات التي يستحيل نسبتها أو إسنادها إليهما، بل ينسبها كل عاقل ويسندها إلى من له من كمال العقل والعلم والاقتدار على الصنعة مالا يستبعد منه شيء، وكذلك الحال مع حركة الذرات في حفنة التراب في نسبتها إلى الله تعالى من الحقائق التي لا يجادل فيها عاقل. يقول النورسي في مطابقة المثل مع تلك النسبة الربانية:

" إن حركات ذرات الهواء ووظائفها في النباتات والأشجار والأزهار والأثمار، التي كل منها كتابة إلهية صمدانية ورائعة من روائع الصنعة الربانية، ومعجزة من معجزات القدرة الإلهية، وخارقة من خوارق الحكمة الإلهية، لا تتحرك ولا تنتقل من مكان إلى آخر إلا بأمر الصانع الحكيم ذي الجلال، وبإرادة الناظر الكريم ذي الجلال.

وقس على هذا ذرات التراب الذي هو منبت لسنابل البذور والنوى، التي كل منها في حكم ماكينة عجيبة تختلف عن الأخرى، ومطبعة مغايرة للأخرى، وخزينة متباينة عن الأخرى ولوحة إعلان تعلن أسماء الله الحسنى متميزة عن الأخرى، وقصيدة عصماء تثني على كمالاته جل وعلا. ولا شك أن هذه البذور البديعة ما أصبحت منشأ لتلك الأشجار والنباتات إلا بأمر الله المالك لأمر كن فيكون، وكل شيء مسخر لأمره، ولا يعمل إلا بإذنه وإرادته وقوته، وهذا يقين وثابت قطعاً".[1]

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 654،655

ومجمل كلام النورسي ينحصر في أن حركة الذرات سواء كانت في التربة، أو في داخل النباتات، هي فوق كونها معجزة إلهية خارقة للعوائد، لا تتم أو تحدث إلا بمشيئة الله تعالى ووفقاً لإرادته في إيجاده للموجودات وخلقه للمخلوقات، ولو لم يكن الأمر كذلك فهي:

" إما أنها في موقع حاكم مسيطر على كل ذرة من الذرات وعلى مجموعها، ومحكومة في الوقت نفسه تحت أمر كل ذرة من الذرات وأمر مجموعها، وأنها تعرف معرفة كاملة، بالصورة البديعة المحيرة للألباب والنقش الرائع المليء بالحكمة، فتوجدها! وهذا محال بألف محال.. أو أنها نقطة مأمورة بالحركة نابعة من قلم قدرة الله سبحانه وقانون قَدَره". [1]

يعني أن الذرات إما أن تكون آمرة أو مأمورة، حاكمة أو محكومة، ومثل النورسي لخضوعها لمشيئة الله وإرادته بقوله:

" إن الأحجار الموجودة في قبة آيا صوفيا، إن لم تكن مطيعة لأمر بنائها ينبغي أن يكون كل حجر منها ماهراً في صنعة البناء، ويكون حاكماً على الأحجار الأخرى، ومحكوماً بأمرها في الوقت نفسه، أي يمكنه أن يحكم الأحجار فيقول لها:

- هيا أيتها الأحجار لنتحد حتى نحول دون سقوطنا". [2]

ومقصوده أن الأحجار لو لم تكن مطيعة منقادة بيسر وسهولة للباني، لاتخذت وضعاً غريباً وشاذا، بحيث يجعل منها تارة حاكمة

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 659

(2) الكلمات، النورسي، ص 659،660

وأخرى محكومة، وكذلك الحال في الذرات على فرض استقلالها عن الله في الحركة والتنقل، وهي كما يؤكد النورسي:

" أكثر إبداعاً، وأكثر إتقاناً، واكثر روعة، وأكثر إثارة للإعجاب، وأكثر حكمة من قبة آيا صوفيا بآلاف المرات".[1]

يعني أن الذرة في أصل تكوينها وَمَنْشَئِهَا بلغت الكمال المطلق الذي لا مجال فيه للمقارنة بينها وبين الصنعة البشرية، وبالتالي:

" إن لم تكن هذه الذرات منقادة لأمر الخالق العظيم، خالق الكون فينبغي إذن أن تعطى لكل منها أوصاف الكمال التي لا تليق إلا بالله".[2]

يعني لو فرض أن الذرة ليست خاضعة لله في حركتها، بل لها حركة ذاتية مستقلة تماماً عن الله تعالى، فعندئذ تستأهل كل واحدة منها عن جدارة واستحقاق ما للخالق من صفات الكمال والجمال، وأسماء الجلال والعظمة والاقتدار.

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 660

(2) الكلمات، ص660

الفصل الثاني

القرآن

إعجاز القرآن

إن الضعف الشديد الذي يواجهه قارئ القرآن، وعدم قدرته على مجاراته أو تقليده، يشعره كما لو كان عاجزاً لا يملك إزاءه قوة ولا مقدرة. ومن هنا اختلف الإسلاميون في بيان أوجه إعجازه على مذهبين:

الأول يرى أصحابه أن إعجاز القرآن يتمثل في ارتقائه في البلاغة حداً يفوق طاقة البشر ويعجزهم عن معارضته، أو بمعنى أدق أن معارضته ممكنة، ولكن الله تعالى صرفهم أو منعهم من الإتيان بمثله، ولو لم يمنعهم لأمكنهم مجاراته ومقابلته بما عندهم من مقدرة بيانية، إن لم يكن في إعجازه، فعلى الأقل في بلاغته، ليبقى القرآن في كل الأحوال معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم. ومثل النورسي لذلك المذهب بقوله:

" إن قيام الإنسان وقعوده ضمن قدرته ونطاق استطاعته، فإن قال نبي كريم لشخص ما لا استطعت من القيام إظهاراً للمعجزة، ولم يستطع الشخص من القيام فعلاً، فقد وقعت المعجزة".[1]

فمعلوم بداهة أن حركات الإنسان الاختيارية تصدر عنه بإرادته ومشيئته، وهي مندرجة بالضرورة ضمن استطاعته على الفعل والترك، فلو قال له النبي المرسل: معجزتي أن آمرك بعدم الحركة فلا تقدر عليها، وعجز المخاطب فعلا عن الحركة، فتلك بلا أدنى شك معجزة له.

ثم قال النورسي في شرحه لهذا المذهب:

" وهكذا فالعلماء الذين يقولون وفق هذا المذهب:

- لا يمكن معارضة القرآن حتى بكلمة واحدة.

هو كلام حق لا مراء فيه، لأن الله سبحانه قد منعهم عن ذلك إظهاراً للإعجاز فلا يستطيعون إذن أن يتفوهوا بشيء للمعارضة، ولو أرادوا قول شيء ما للمعارضة فلا يقدرون عليه من غير إرادة الله ومشيئته".[2]

ومرد ذلك إلى أن للإعجاز في هذه الحالة من فعل الله، أو ما يقوم مقامه، مما يدخل عادة في عدم فعل المقدور، وليس فعل مالا قدرة فيه. فهم من ناحية لا يقدرون على مضاهاته أو ما يشابهه، ولو اجتهدوا من ناحية أخرى على ذلك لما استطاعوا، فهم في كلتا الحالتين مصروفين أو ممنوعين من مجاراته.

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 246

(2) المكتوبات، النورسي، ص 246

أما المذهب الثاني من إعجاز القرآن فهو الإيجاز في اللفظ وكثرة معانيه مع البلاغة والبيان والفصاحة والنظم، التي هي بدورها مما يخرج عن وسع البشر، وخلاصة المذهب لخصها النورسي في قوله:

" إن كلمات القرآن وجمله ينظر بعضها إلى البعض الآخر، فتتواجه وتتناظر الكلمات والجمل، فقد تكون كلمة واحدة متوجهة إلى عشرة مواضع، وعندها تجد فيها عشر نكات بلاغية، وعشر علاقات تربطها مع الكلمات الأخرى".[1]

ولتوضيح مزايا ذلك المعنى أورد هذين المثلين:

" لو تصورنا قصراً عظيماً جدرانه منقشة بنقوش بديعة، ومزينة بزخارف رائعة، فإن وضع حجر يحمل العقدة الأساس لتلك الزخارف والنقوش في موضعه اللائق به - بحيث يرتبط معها جميعاً ويشرف عليها - يحتاج إلى معرفة كاملة بتلك النقوش جميعها، وبتلك الزخارف التي تملأ الجدران.

ومثال آخر نأخذه من جزء الإنسان: إن وضع بؤبؤ عين الإنسان في موضعه اللائق يتوقف على معرفة علاقة العين بالجسم كله، ومعرفة مدى علاقة وارتباط بؤبؤ العين بكل جزء من أجزاء الجسم وبوظيفته".[2]

فالقصر من حيث البناء والتحسين والتلوين بلغ المنتهى في الجمال وإتقان الصنعة، ووضع حجر واحد يتطلب معرفة شاملة وعلم محيط بكل جزئية من جزئيات تلك الزخارف والتزيينات حتى يدخل ذلك

(1) المكتوبات، النورسي، ص 246

(2) المكتوبات، النورسي، ص 246

الحجر في علاقة وثيقة مع كل ما في القصر، تتميز بالأحكام والتماسك والتناسق، وكذلك الحال مع إنسان العين في جسم الإنسان، فقد وضع في موضع يجعله في علاقة متينة ليست فقط ضمن حدود العين، بل بكل أعضاء الجسم.

وتطبيقاً لما مضى ذكره يقول النورسي في تبيانه لرأى أصحاب **المذهب الأول:**

" فقس على هذين المثالين لتعلم كيف بيّن السابقون من أهل الحقيقة ما في كلمات القرآن من الوجوه العديدة والعلاقات والأوامر والارتباطات التي تربطها مع سائر جمله وآياته، ولا سيما علماء حروف القرآن، فقد أوغلوا كثيراً في هذا الموضوع واثبتوا بدلائل أن في كل حرف من القرآن الكريم أسراراً دقيقة تسع صحيفة كاملة من البيان والتوضيح.

نعم إن في كلام البشر ما يشبه كلمات القرآن وجمله وآياته، إلاّ أن تلك الآيات الكريمة أو الكلمة والجملة القرآنية قد وضعت في موضعها الملائم لها بحيث روعي في وضعها كثير جداً من الارتباطات والعلاقات مما يلزم علماً محيطاً كلياً كي يضعها في ذلك الموضع اللائق بها".[1]

ومثلما أن القصر والجسم الإنساني بناء متكامل في مجموعه، وكل جزئية فيه لها ارتباطات واسعة وقوية مع باقي الأجزاء، كذلك الكلمة الواحدة في القرآن لها معناها المستقل في الذهن عن باقي الكلمات،

(1) المكتوبات، النورسي، ص 247

إلا أنها تعمل وضمن النسق والنظام العام بطريقة لا يمكن عزلها ولا انفصالها عن المجموع ككل.

أعظم إعجاز القرآن

إن كل جوانب الإعجاز للقرآن عظيمة، ولكن أعظمها منزلة وأعلاها رتبة، هي التي مثّل لها النورسي بقوله:

" لنفرض شجرة عجيبة في منتهى العلو والغرابة، وفي غاية الانتشار والسعة، قد أسدل عليها غطاء الغيب، فاستترت طي طبقات الغيب.

ومن المعلوم أن هناك توازناً وتناسباً وعلاقات ارتباط بين أغصان الشجرة وثمراتها وأوراقها وأزاهيرها – كما هو موجود بين أعضاء الإنسان – فكل جزء من أجزائها يأخذ شكلاً معيناً، وصورة معينة حسب ماهية تلك الشجرة.

فإذا قام أحد - من قبل تلك الشجرة التي لم تشاهد قط ولا تشاهد - ورسم على شاشة صورة لكل عضو من أعضاء تلك الشجرة، وحدّ له، بأن وضع خطوطاً تمثل العلاقات بين أعضائها وثمراتها وأوراقها وملأ ما بين مبدئها ومنتهاها، بصور وخطوط تمثل أشكال أعضائها تماماً وتبرز صورها كاملة، فلا يبقى أدنى شك من أن ذلك الرسام يشاهد تلك الشجرة الغيبية بنظره المطلع على الغيب ويحيط به علماً، ومن بعد ذلك يصورها".[1]

إن كل ما في تلك الشجرة يدعو للعجب والاستغراب، فهي:

(1) الكلمات، النورسي، ص 506

- عالية علواً بلغ حد النهاية.
- وليست مألوفة ولا مأنوسة لأحد من الخلق.
- وتمتد هنا وهناك شاغلة نطاقاً واسعاً.

ثم مع هذا فقد سترت أو أخفيت وأُبعدت عن الأنظار، فلا يراها أحد، فعدت من جملة ما غاب أو يغيب عن الأنظار.

وككل الأشجار فهناك ارتباط قوي وتعلق شديد بين جذع تلك الشجرة وبين فروعها وأزهارها وثمراتها، بحيث يشكل وحدة واحدة متكاتفة ومتعاونة فيما بينها، تكاتف وتعاون الأصل مع فروعه.

فإذا فرض أن رساماً ما رسم صورة لتلك الشجرة المحجوبة بالغيب، بلغت في دقة تفاصيلها حد التطابق والتماثل معها، فليس لهذا إلا معنى واحد وهو مقدرته الفائقة على اختراق حجب الغيب ورؤيته المباشرة لها، وإحاطته بها علماً ومعرفة.

ويرى النورسي أن أعظم درجة لإعجاز القرآن تشبه تلك الشجرة العجيبة، فيقول عنها:

" فالقرآن كهذا المثال أيضاً، فإن بياناته المعجزة التي تخص حقيقة الموجودات، قد حافظت – تلك البيانات الفرقانية – على الموازنة والتناسب، وأعطت لكل عضو من الأعضاء، ولكل ثمرة من الثمرات صورة تليق بها، حيث خلص العلماء المحققون – لدى إجراء تحقيقاتهم وأبحاثهم – إلى الانبهار والإنشداه، قائلين، ما شاء الله، بارك الله، إن الذي يحل طلسم الكون ويكشف معمى الخلق، إنما هو أنت وحدك أيها القرآن الكريم".[1]

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 506

وعلى أي حال فإن أعظم مرتبة لإعجاز القرآن وأعلى درجة، وكما يفهم من العبارة السابقة هي في كلامه المعجز، ودلالاته البينة، وحججه القوية المتعلقة بجوهر الوجود وحقيقة الموجودات، ولا يقف الإعجاز عند هذا، بل يتعداه إلى إفهام وتفهيم تلك الحقائق بيسر وسهولة، وبلا إفراط ولا تفريط.

وعندما وقف العلماء والحكماء على تلك الحقائق بأنفسهم بعد بحوث وتجارب مضنية، لم يملكوا إلا التسليم للقرآن بأنه وحده الذي يكشف حجب الغيب. ويزيل الغموض عن حقائق الكون، وبطريقة تتقاصر عندها همم العلماء والعارفين.

سمو القرآن

أن عظمة القرآن وعلو مكانته وفضله على غيره من الكتب السماوية، من الأمور التي لا خلاف عليها ومعلومة بالبداهة، ولكن عندما يستخدم المثل في تقدير حقيقة كهذه، فإن معناها ينحو منحى محسوساً يجعلها في متناول اليد، وإثباتاً لذلك روى النورسي في بيان سمو القرآن وتفوقه على غيره من الكتب هذين المثلين.

فقال في الأول:

" أن للسلطان نوعين من المكالمة، وطرازين من الخطاب والكلام:

- الأول مكالمة خاصة بواسطة هاتف خاص مع أحد رعاياه من العوام في أمر جزئي يعود إلى حاجة خاصة به.
- والآخر مكالمة باسم السلطنة العظمى، وبعنوان الخلافة الكبرى، وبعزة الحاكمية العامة، بقصد نشر أوامره السلطانية في

الآفاق، فهي مكالمة يجريها مع أحد مبعوثيه، أو مع أحد كبار موظفيه، فيه مكالمة بأمر عظيم يهم الجميع". [1]

فللسلطان في المثل نوعان من الألفاظ يقصد بها إفهام من هو متهيئ لفهمه من اتباعه.

الأول: له صفة الخصوصية، ومعنى التفرد والانفراد، وفيه يتوجه بالكلام وعن طريق وسيط إلى أحد بعينه، وفي مأرب من مآربه الشخصية.

والثاني: يأخذ صفة العمومية والشمول، ويصدر حاملاً أسماءه وصفاته العامة والخاصة، ولكن عن طريق رسول يمثله هو شخصياً، ويتضمن تكاليفه ومراداته من الرعايا، لأن الكلام يتعلق بأشياء خطيرة وجليلة وتشغل بال الجميع.

أما المثل الثاني فجاء فيه:

" رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط - حسب سعتها - نوراً وضياء يحمل الألوان السبعة في الشمس، فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو إلى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس، وليست بمقدار عظم الشمس.

بينما رجل آخر يترك المرآة ويجابه الشمس مباشرة، ويشاهد هيبتها ويدرك عظمتها، ثم يصعد على جبل عال جداً وينظر إلى شعشعة سلطانها الواسع المهيب ويقابلها بالذات دون حجاب، ثم يرجع

(1) الكلمات، النورسي، ص 146

ويفتح من بيته الصغير ومن مشغله المسقف الخاص نوافذ واسعة نحو الشمس، واجداً سبلاً إلى الشمس التي هي في أعالي السماء، ثم يجري حواراً مع الضياء الدائم للشمس الحقيقية، فيناجي الشمس بلسان حاله، ويحاورها بهذه المحاورة المكللة بالشكر والامتنان فيقول:

- إيه يا شمس يامن تربعت على عرش جمال العالم، يالطيفة السماء وزهراءها، يامن أضفيت على الأرض بهجة ونوراً، ومنحت الأزهار ابتسامة وسروراً، فلقد منحت الدفء والنور معاً لبيتي ومشتلي الصغير كما وهبت للعالم أجمع الدفء والنور.

بينما صاحب المرآة السابق لا يستطيع أن يناجي الشمس ويحاورها بهذا الأسلوب، إذ إن أثار ضوء الشمس محدودة بالمرآة وقيودها وهي محصورة بحسب قابلية تلك المرآة واستيعابها للضوء".[1]

فعلاقة الرجل الأول بالشمس وأنوارها علاقة ليست مباشرة، بل عن طريق أداة ووسيط، وما يعود عليه من منافع وفوائد مرهون بمدى قدرة المرآة واستعدادها للتلقي والقبول، مما يعني أن ارتباطه بها أشد وأقوى من ارتباطه بالشمس.

أما الثاني فعلاقته بالشمس مباشرة، ومن ثم يصل إلى مراده ومبتغاه منها رأساً وبدون عون ولا مساعدة من الآخرين، ومرد ذلك إلى أن علاقته بها حية وموصولة لا حاجب بينهما ولا فاصل، فيمكنه مخاطبتها وجهاً لوجه. في حين أن الأول محروم تماماً من تلك العلاقة الحميمة التي يتبادل فيها كل منهما المحبة مع الآخر.

---

(1) المكتوبات، النورسي، ص 146،147

ويتضح من خلال المثلين أن خطاب الله تعالى للناس في القرآن هو خطاب موجه بخصوصية شديدة لأي عبد من عباده، فمن يقرأ القرآن يقرأه وكمن يكلمه الله، وفي الوقت نفسه هو خطاب عام باسم الله وبصفة المكلّف ويتضمن أوامره ونواهيه.

وقراءة القرآن مباشرة دون وسيط فيها من الحيوية والأهمية قدراً لا يتوفر فيمن يسمعه عن غيره، مثله في ذلك مثل من يكلم الله مباشرة، ومن يكلمه عن طريق وسيط.

ويرد النورسي هذا وذاك إلى طبيعة القرآن الخارقة للعوائد، فيقول في تفسيره للمثلين:

" وهكذا فان منح القرآن الكريم أعلى مقام من بين الكلمات جميعاً، تلك الكلمات التي لا تحدها حدود، مردّه أن القرآن قد نزل من الاسم الأعظم ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى، فهو كلام الله، بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابُه بوصفه خالق السموات والأرض، وهو مكالمةٌ سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابُه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجلُ الالتفات والتكريم الرحماني نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شئ. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية، إذ في بدايات بعضها رموز وشفرات. وهو الكتاب المقدس الذي ينثر الحكمة.

ولأجل هذه الأسرار أُطلق على القرآن الكريم ما هو أهله ولائق به اسم (كلام الله) ".[1]

---

(1) الكلمات، النورسي، ص 147

أما ما ينسب لله من كلام، ولا يحمل اسم القرآن كعلم للدلالة عليه:

" فإن قسماً منه كلامه نابع باعتبار خاص، وبعنوان جزئي، وبتجل جزئي لاسم خصوصي، وبربوبية خاصة، وسلطان خاص، ورحمة خصوصية، فدرجات هذا الكلام مختلفة متفاوتة من حيث الخاص والكلى، فاكثر الإلهامات من هذا القسم إلا أن درجاتها متفاوتة جداً".[1]

ويعود الاختلاف وعدم الاتفاق، بل وحتى التباين في أحيان كثيرة فيما نسب لله تعالى من كلام، إلى أن الخطاب ليس فيه عمومية الخطاب التي في القرآن، وذلك لأنه جاء موجهاً لتحقيق أهداف محددة وجزئية وخاصة، ومثل النورسي للغالب منه بالإلهام أو الكشف أو التعليم ومن غير واسطة، أي إبلاغ ما يريد الله مخاطبته، فهو وإن حمل اسم كلام الله، إلا أنه لا يطلق عليه اسم القرآن. وذلك لخصوصية خطاب القرآن وعموميته في آن معاً.

بلاغة القرآن

إذا كانت البلاغة عند الأدباء تعني التعبير عن المعنى تعبيراً مطابقاً للألفاظ بلا زيادة ولا نقصان، فإن بلاغة القرآن في حد ذاتها معجزة تحدى الله بها المخالفين فعجزوا عن معارضته، ووجدوا فيها من الإعجاز البياني ما لا طاقة لهم به.

---

(2) الكلمات، النورسي، ص 147

وضمن العديد من الشواهد والأدلة التي حاول النورسي من خلالها الكشف عن تلك البلاغة المعجزة، قوله تعالى.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]

وقبل أن يوضح جانب البلاغة فيها، مثل لها بقوله:

" إن قائداً في حرب عالمية شاملة يأمر جيشه بعد إحراز النصر أوقفوا إطلاق النار، ويأمر جيشه الآخر، كفوا عن الهجوم، ففي اللحظة نفسها ينقطع إطلاق النار، ويقف الهجوم، ويتوجه إليهم قائلاً: لقد انتهى كل شيء واستولينا على الأعداء، وقد نصبت راياتنا على قمة قلاعهم، ونال أولئك الظالمون الفاسدون جزاءهم، وولوا إلى أسفل سافلين".[2]

فلا فارق زماني إذن بين إصدار الأمر العسكري بوقف العمليات الحربية، وبين توقف الجنود الفعلي عن القتال على امتداد ساحة المعركة، اللّهم إلا الفرق الضئيل بين الأمر وبين التنفيذ الفوري له، فيتوقف كل شيء وكأنه لم يكن هناك حرب ولا اقتتال، ويأتي كلام الآمر ليقرر إنجازات القتال، ونتائج المعركة، وثمرة الحرب.

وكذلك الحال مع تلك الآية، يقول النورسي.

" فإن السلطان الذي لا ندّ له ولا مثيل، قد أمر السماوات والأرض بإهلاك قوم نوح، وبعد أن امتثلا الأمر توجه إليهما: أيتها الأرض ابلعي ماءك، وأنت أيتها السماء اسكني واهدئي فقد انتهت مهمتك،

---

(1) هود/ 44

(2) الكلمات- النورسي ص 434

فانسحب الماء فوراً من دون تريث، واستوت سفينة المأمور الإلهي كخيمة ضربت على قمة جبل، ولقي الظالمون جزاءهم.

فانظر إلى علو هذا الأسلوب، إذ الأرض والسماء كجنديين مطيعين مستعدين للطاعة وتلقي الأوامر، فأنت ترى أن الآية قد جمعت ببيان موجز معجز جميل مجمل في بضع جمل حادثة الطوفان التي هي عامة وشاملة مع جميع نتائجها وحقائقها".(1)

أي يمكن النظر لبلاغة القرآن من جهات البلاغة الأربعة البيان والمعاني والفصاحة اللفظية والفصاحة المعنوية، فالله تعالى خاطب الأرض والسماء، وهي جماد بطريقة النداء والأمر خطابه للعقلاء المميزين:

- بأن تبلع الأرض ماءها.
- وأن تقلع السماء عن المطر.

فالبلع هو اجتياز الطعام والشراب دون استقرار في الفم، وهي هنا استعارة لإدخال الماء في باطن الأرض بسرعة كسرعة ازدراد البالع، وعلى أثره جفت الأرض تماماً، لا بحرارة الشمس، ولا بهبوب الرياح، بل بفعل أرضي محض.

واختار القرآن لاحتباس المطر لفظ "اقلع" بمعنى كف وامتنع، لأنه إذا كف نزول المطر لم يحل ماء آخر محل الذي غار في الأرض، ولذلك أمرها بالبلع، لأنه السبب الرئيسي لفيض الماء، أي أمره بالنضوب وذهابه في الأرض.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 434

وبناء الفعل للمجهول لنائب الفاعل في قوله تعالى (قُضي) لإكمال وإتمام غرق قوم نوح للعلم فقط. بأن فاعل ذلك كله ليس غير الله تعالى، أما النائب عن الفاعل في قوله (بعداً) فيجري مجرى الدعاء، وكناية عن التحقير المرادف للكراهية والنفور من القوم.

الحقيقة المطلقة

من الصعب لأصحاب النظر الضيق المحدود أن يحيطوا علما بالحقيقة المطلقة، ومن ثم فهم بأمس الحاجة إلى القرآن للإحاطة بها من جميع جوانبها، وذلك لأن كل ناظر لها:

" لا يرى تماماً بعقله الجزئي المحدود إلاّ طرفاً أو طرفين من الحقيقة الكاملة فينهمك بذلك الجانب ويعكف عليه، وينحصر فيه، فيخل بالموازنة التي بين الحقائق ويزيل تناسقها، إما بالإفراط أو التفريط".[1]

وشبّه النورسي من هذا حاله في إدراكه للحقيقة بقوله:

" لنفرض أن كنزاً عظيماً يضم مالا يحد من الجواهر الثمينة في قعر بحر واسع. وقد غاص غواصون مهرة في أعماق ذلك البحر بحثاً عن جواهر ذلك الكنز الثمين، ولكن عيونهم معصوبة فلا يتمكنون من معرفة أنواع تلك الجواهر الثمينة إلا بأيديهم، ولقد لقيت يد بعضهم ألماساً طويلاً نسبياً، فيقضي ذلك الغواص ويحكم: أن الكنز عبارة عن قضبان من الماس، وعندما يسمع من أصدقائه أوصافاً لجواهر غيرها

(1) الكلمات- النورسي ص 512

يحسب أن تلك الجواهر التي يذكرونها ما هي إلاَّ توابع ما وجده من قضبان الألماس، وما هي إلا فصوصه ونقوشه.

ولنفرض أن آخرين لقوا شيئاً كروياً من الياقوت وآخرين وجدوا كهرباً مربعاً، وهكذا، فكل واحد من هؤلاء الذين رأوا تلك الجواهر والأحجار الكريمة بأيديهم – دون عيونهم – يعتقد أن ما وجده من جوهر نفيس هو الأصل من ذلك الكنز ومعظمه، ويزعم أن ما يسمعه من أصدقائه زوائده وتفرعاته، وليس أصلاً للكنز".[1]

فالحقيقة في المثل تشبه كنز موجود في الأعماق السحيقة لبحر لا حد لسعته، وزاخر بمختلف الأحجار الكريمة، ومن يغطس في أعماقه من الغواصين بحثاً عنه، لا يرونه ولا يستطيعون التعرف على ما فيه من مجوهرات، مما يضطرهم للاعتماد على حاسة اللمس وحدها، وأثناء طلبهم له، وجد البعض منهم قطعاً طويلة من الألماس ووجد البعض ياقوتاً كروي الشكل، ووجد آخرون كهرباً مربعاً، فاعتقد كل واحد منهم أن الكنز لا يحتوي إلا على ما وقعت عليه يداه، وعند سماعه بجواهر أخرى لا تشبه تلك التي لمسها، يظن أن ما عثر عليه هو الأصل، وما سمعه تابع له وملحق به.

وبناء على ما مضى فإن أي نظرة لحقائق القرآن تقتصر على جانب واحد وتغض الطرف عن الجوانب الأخرى، تفضي بالضرورة إلى اختلال في الموازنة الدقيقة بين حقائقه، فيقول النورسي بعد ذلك التشبيه مباشرة:

---

(1) الكلمات- النورسي ص 512،513

"وهكذا تختل موازنة الحقائق، ويضمحل التناسق أيضاً ويتبدل لون كثير من الحقائق، إذ يضطر من يرى اللون الحقيقي للحقيقة إلى تأويلات وتكلفات، حتى قد يتجرأ بعضهم إلى الإنكار والتعطيل، فمن يتأمل في كتب حكماء الإشراقيين، وكتب المتصوفة الذين اعتمدوا على مشهوداتهم وكشفياتهم، دون أن يزنوها بموازين السنة المطهرة يصدق حكمنا دون تردد".[1]

إذن فالنظرة القاصرة لحقائق القرآن، هي على الدوام نظرة غامضة وغير واضحة، فيضطر صاحبها إلى بذل الجهد في تفسيرها تفسيراً لا يحتمله معناها، ولا ينسجم مع طبيعتها المتميزة، مما قد يدفعه ودون وعي منه إلى رفض الحقيقة أو إلباسها ثوباً مناقضاً لها.

وختم النورسي حديثه ليقرر هذه الحقيقة البديهية.

" إذا فعلى الرغم من أنهم يسترشدون بالقرآن، ويؤلفون في جنس حقائق القرآن، إلا أن النقص يلازم آثارهم، لأنها ليست قراناً".[2]

يعني أن الضعف وعدم الكمال سيظل جزءاً لا يتجزأ في أي مكتوب من تلك المكتوبات، حتى ولو اهتدى بهدى القرآن، ويعود ذلك إلى أنها شيء، والقرآن شيء آخر.

حقائق القرآن

ظلت حقائق القرآن على الرغم من مرور الزمان والتحولات الهائلة في العالم، معيناً لا ينضب للبشرية، فإذا تجرأ أحد ونظم – كما يقول

---

(1) الكلمات- النورسي ص 513

(2) الكلمات- النورسي ص 513

النورسي – قسماً من تلك الحقائق حسب أهوائه وجهله، ثم أراد أن يوازن بينها وبين كلامه وكلام القرآن، بهدف الاعتراض على بعض آياته وقال:

- لقد قلت كلاماً شبيهاً بالقرآن.

فمن الطبيعي أن قوله ذلك هو من السخف والحماقة ما يشبه هذا المثال:

" إن بناء شيد قصراً فخماً أحجاره من جواهر مختلفة ووضع تلك الأحجار في أوضاع وزينها بزينة ونقوش موزونة تتعلق بجميع نقوش القصر الرفيعة.

ثم دخل ذلك القصر من يقصر فهمه عن تلك النقوش البديعة، ويجهل قيمة جواهره وزينته، وبدأ يبدل نقوش الأحجار وأوضاعها ويجعلها في نظام حسب أهوائه حتى غدا بيتاً اعتيادياً، ثم جمله بما يعجب الصبيان من خرز تافهة ثم بدأ يقول:

- انظروا أن لي من المهارة في البناء ما يفوق مهارة باني ذلك القصر الفخم، ولي ثروة اكثر من بناء القصر، فانظروا إلى جواهري الثمينة".[1]

تشيد القصور في الغالب من مادة ومواد زهيدة الثمن، ومن تراب الأرض الرخيص، ولكن باني هذا القصر اختار من أحجار الأرض أغلاها ثمناً وأكثرها قيمة وما توصف في العادة بأجمل الصفات وأكرمها كالجواهر، وهو لم يكتف عند وضعها في القصر بجمالها الذاتي الأخاذ، بل لوّنها بألوان زادتها حسناً وجمالاً.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 504

ثم دخل هذا القصر من لا يقدر الجواهر وقيمتها، ولا يملك من الحس الجمالي ما يشده إليها ويبهره بها. فشرع يعدل ويغير فيه بلا علم ولا إدراك، حتى أحاله من قصر فخم لا مثيل له إلى بيت متواضع لا يختلف عن غيره في شيء. ولا يثير إلا إعجاب الأطفال وأمثالهم ممن لا يعرف حقيقته، وأخيراً يدعى ببجاحة أنه يملك من الحذق والبراعة والمال ما يفوق صاحب ذلك القصر بكثير.

فعلق النورسي على كلامه قائلاً:

" لا شك أن كلامه هذا هذيان، بل هذيان مجنون".[1]

ومقصوده أن من يقدم على معارضة القرآن، ويجترى على تقليده هو من لا ينبغي النظر إلى كلامه إلا بوصفه كلاماً غير معقول. وصادر عن مريض بأحد أمراض الاضطرابات العقلية.

خدمة القرآن

قيل للنورسي:

" - إنك تقول لكل من يأتي لزيارتك:

- لا تنتظروا من شخصي همة ولا مدداً، ولا تعدوني شخصاً مباركاً، فأنا لست صاحب مقام، فكما يبلّغ الجندي الاعتيادي أوامر مقام مشير، فأنا كذلك أبلّغ أوامر مشيرية معنوية رفيعة، وكما يقدم شخص مفلس لا يملك شيئاً بدور الدلال لدكان مجوهرات غالية جداً، فأنا كذلك دلال أمام دكان مقدس وهو القرآن الكريم.

(1) الكلمات- النورسي ص 504

هكذا تقول لكل زائر قادم إليك، ولكن عقولنا تحتاج إلى العلم كما أن قلوبنا تطلب الفيض وأرواحنا تنشد النور، وهكذا أشياء كثيرة بجهات شتى، ونأتي لزيارتك علك تفي بحاجتنا، إذ نحن بحاجة إلى طالب ولاية وصاحب همة وكمالات أكثر من حاجتنا إلى عالم، فإن كان الأمر كما تقول فقد أخطأنا إذن في زيارتك".[1]

فهؤلاء الطلاب في ترددهم على النورسي لا يسعون وراء العلوم الإسلامية التقليدية كالفقه والحديث والعقيدة، بل يبتغون نوعاً خاصاً من العلم يعرفون من خبرتهم أنه لا يوجد إلا عند العارفين بالله أصحاب الكشوفات والفتوحات الربانية، أي العلم اللدني، فاعتقدوا أنه واحد منهم أو في عدادهم.

ولكنه رد عليهم بأنه ليس كما يحسب الناس ويظنون. فما هو إلا كجندي بسيط في إبلاغه أوامر من هو أعلى رتبة منه، وكشخص فقير معدم وهو ينادي الناس لشراء سلعة لا تقدر بثمن، وما النورسي الذي يضعونه موضع العارفين بالله، وينزلونه منزلة أولياء الله الصالحين إلا كواحد من هذين يقف منادياً على كلام الله، ودال الناس على جواهره ودرره القيمة.

ومثل لهم حالته تلك بقوله:

" خادم لسلطان عظيم أو جندي تحت إمرته يسلم إلى القواد العظام والمشيرين الكبار هدايا السلطان وأوسمته الرفيعة، ويجعلهم في امتنان ورضى. فإن قال أولئك القواد والمشيرون لـمَ نتنازل بتسلم

(1) المكتوبات- النورسي ص 456

النعم السلطانية وإكرامه لنا من يد هذا الجندي البسيط. فلا شك أن ذلك يعد غروراً جنونياً.

وكذلك إذا أعجب ذلك الجندي بنفسه ولم يقم احتراماً للمشير خارج وظيفته وعد نفسه أعلى درجة منه، فليس ذلك إلا بلاهة وجنوناً.

ولو تنازل أحد أولئك القواد الممتنين وذهب إلى منزل ذلك الجندي البسيط الذي لا يجد ضيفه الكريم عنده سوى كسرة خبز، فسوف يرسل السلطان الذي يعلم حال خادمه الأمين إلى منزله طبقاً من أطيب طعام وألذه من مطبخه الخاص دفعاً للحرج عنه".[1]

فحالة النورسي إذن تشبه حالة الجندي عند سلطان مهيب، وهو يحمل عطايا سيده وهباته إلى قادة عسكريين كبار، فإذا تجاسر واحد منهم محتجاً، لماذا نهبط إلى مستوى تلقى تلك الهدايا ممن لا يكاد يساوي شيئاً في تسلسل الرتب العسكرية، فلا شك أن في تصرفه هذا من خداع النفس ما يخرجه من زمرة العقلاء.

والشيء نفسه يقال على الجندي إذا شمخ برأسه وتكبر وتعالى. فلم يراع حقهم في التقدير والاحترام، بل حسب بوصفه ممثلاً للسلطان، بأنه أرفع مكانة منهم، فلا شك أن تصرفه هذا دال على ضعف في عقله. وقلة في التمييز بين ما يجب وما لا يجب.

أما إذا تواضع أحد هؤلاء القادة الكبار، وأراد رد جميل السلطان بالإحسان إلى الجندي. وزاره في بيته. فإن السلطان لعلمه بحالة

(1) المكتوبات- النورسي ص 456،457

الجندي سيرسل إكراماً له مائدة حافلة بأطايب الأكل اعتزازاً وتكريماً له.

وكذلك الحال مع من يعمل في خدمة القرآن، فيقول عنه النورسي:

" فكما أن الأمر هكذا، في خادم السلطان، كذلك خادم القرآن الصادق، إذ مهما كان من عامة الناس، إلا أنه يبلغ أوامر القرآن الكريم باسم القرآن نفسه إلى أعظم إنسان من دون تردد ولا إحجام، ويبيع جواهر القرآن الثمينة جداً لأغنى إنسان روحاً بافتخار واعتزاز واستغناء، من دون تذلل وتوسل.

فهؤلاء مهما كانوا عظاماً لا يمكنهم أن يتكبروا على ذلك الخادم البسيط في أدائه لوظيفته. وذلك الخادم أيضاً لا يجد في نفسه ما يجعله يفتر أمام مراجعة أولئك الأفذاذ، فلا يتجاوز حده.

وإذا ما نظر بعض المعجبين بجواهر خزينة القرآن المقدسة إلى ذلك الخادم نظر الولي الصالح واستعظموه، فخليق بالرحمة المقدسة للحقيقة القرآنية أن تمدهم وتفيض عليهم بهمتها من الخزينة الإلهية الخاصة من دون علم ذلك الخادم ومن دون تدخل منه، لئلا يخجل خادمها ذاك أمام ضيفه الكريم".[1]

فخادم القرآن حتى وإن كان إنساناً بسيطاً ومن عامة الخلق، فبإمكانه إيصال معانيه والإعلان عن تعاليمه وتوجيهاته إلى أكابر الناس ورؤسائهم غير هياب ولا وجل، وبدون تلكوء أو إبطاء، وهو يؤدي تلك المهمة وقلبه عامر بالفخر والاعتزاز، ومن غير إهانة ولا امتهان لنفسه.

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 457

وفي مقابل هذا فلا أحد من هؤلاء العظماء يتباهى أو يستغل منصبه للتعالي عليه لكونه إنساناً مغموراً لا شأن له، ولا هو من جانبه لكونه خادماً لكلام الله ينخدع بتواضعهم أمامه فينحرف إلى ما لا تحمد عقباه.

أما إذا بلغ بهؤلاء القوم الحال أن أنزلوه في نفوسهم منزلة أثيرة، وتجاوز احترامهم حتى وصل حد التعظيم، فإن هذا حري أن يكون سبباً لفتوحات ربانية خاصة تتنزل عليهم. ودون أن يعرفها ذلك الخادم للقرآن. حتى لا تتكدر نفسه، وتسوء حالته أمامهم.

حكمة القرآن وحكمة الفلسفة

للقرآن حكمة وللفلسفة وغيرها من العلوم حكمة، ولكن حكمة القرآن شيء وحكمة الفلسفة شيء آخر، ولا يتضح الفرق بين الحكمتين من مقاصد الحكمة الكثيرة، إلا بعقد لا أقول مقارنة، بل مقابلة ومعارضة بينهما ليرى كل ذي فهم وبصيرة وجه الشبه والاختلاف بينهما، ولتحقيق هذه الغاية استخدم النورسي حكاية بسيطة بدأها بقوله:

" أراد حاكم عظيم ذو تقوى وصلاح وذو مهارة وإبداع أن يكتب القرآن الحكيم كتابة تيلق بقدسية معانيه الجليلة، وتناسب إعجازه البديع في كلماته، فأراد أن يُلبس القرآن الكريم ما يناسب إعجازه السامي من ثوب قشيب خارق مثله.

فطفق بكتابة القرآن، وهو مصور مبدع، كتابة عجيبة جداً، مستعملاً جميع أنواع الجواهر النفيسة والأحجار الكريمة ليشير بها إلى تنوع

حقائقه العظيمة فكتب بعض حروفه المجسمة بالألماس والزمرد، وقسماً منها باللؤلؤ والمرجان. وطائفة منها بالجوهر والعقيق، ونوعاً منها بالذهب والفضة، حتى أضفى جمالاً رائعاً وحسناً جالباً للأنظار يعجب بها كل من يراها، سواء أعلم القراءة أم جهلها.

فالجميع يقفون أمام هذه الكتابة البديعة مبهوتين يغمرهم التبجيل والإعجاب، ولا سيما أهل الحقيقة الذين بدأوا ينظرون إليها نظرة إعجاب وتقدير أشد، لما يعلمون أن الجمال الباهر هذا يشف عما تحته من جمال المعاني، وهو في منتهى السطوع واللمعان، وغاية اللذة والذوق"[1]

أراد هذا الحاكم تعظيماً منه للقرآن، وإكباراً لمعانيه المعجزة أن يكتب كلماته بطريقة يلبسها ثوباً مادياً. بأغلى وأثمن الماديات وأنفسها. فكتبه بالجواهر والأحجار الكريمة والألماس والزمرد واللؤلؤ والمرجان والذهب والفضة. فخرج منه للوجود بنسخة خلبت الألباب بحسنها وجمالها. وشدت الأنظار بألوانها المتلألئة، وعلى وجه الخصوص أولئك العارفين المدركين ببصيرتهم النافذة أن وراء كل جمال مادي يتوارى دائماً الجمال المعنوي الحقيقي.

وحكى النورسي ما فعله الحاكم بعد إكمال النسخة المزخرفة قائلا:

"ثم عرض ذلك الحاكم العظيم هذا القرآن البديع الرائع الجمال على فيلسوف أجنبي وعلى عالم مسلم، وأمرهما:

- ليكتب كُلٌّ منكما كتاباً حول حكمة هذا القرآن.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 141،142

ملمحاً إلى اختبارهما ليكافئهما".[1]

وبالفعل عكف العالمان على كتابة مكتوب عن القرآن مستخدمين في قراءتهما له النسخة المكتوبة بتلك الطريقة ذات التكلفة المادية العالية. فجاء مضمون كتاب الفيلسوف وكما يروي النورسي:

" يبحث عن نقوش الحروف وجمالها وعلاقة بعضها ببعض، وأوضاع كل منهما، وخواص جواهرها وميزاتها وصفاتها فحسب، ولم يتعرض في كتابه إلى معاني ذلك القرآن العظيم قط. إذ أنه جاهل باللغة العربية جهلاً مطبقاً، بل لم يدرك أن ذلك القرآن البديع هو كتاب عظيم تنم حروفه عن معان جليلة، وإنما حصر نظره في روعة حروفه وجمالها الخارق، ومع هذا فهو مهندس بارع، ومصور فنان، وكيميائي حاذق، وصانع ماهر، لذا فقد كتب كتابه هذا وفق ما يتقنه من مهارات ويجيده من فنون".[2]

يعني أن الفيلسوف أخرج كتابه في أطراف كلمات القرآن، أي الحروف لا من معاني تلك الكلمات ومفاهيمها ودلالاتها العلمية، ومن ثم فقد حصر جهده كله في ظاهر القرآن ومظاهره. ولأنه عالم متعدد المواهب. ويتقن فنوناً شتى فقد جاء كتابه معبراً بالفعل على ما هو ضليع وحاذق فيه.

أما العالم المسلم:

" فما أن نظر إلى تلك الكتابة البديعة حتى علم أنه: كتاب مبين وقرآن حكيم، فلم يصرف اهتمامه إلى زينته الظاهرة، ولا شغل نفسه

---

(1) الكلمات - النورسي ص 142

(2) الكلمات- النورسي ص 142

بزخارف حروفه البديعة، وإنما توجه كلياً – وهو التواق للحق – إلى ما هو أسمى وأثمن وألطف وأشرف وأنفع وأشمل مما انشغل به الفيلسوف الأجنبي بملايين الأضعاف، فبحث عما تحت النقوش الجميلة من حقائق سامية جليلة، وأسرار نيرة بديعة، فكتب كتابه تفسيراً قيماً لهذا القرآن الحكيم، فأجاد وأتقن".[1]

فاهتمام العالم المسلم إذن قد انصب على ما وراء الظاهر، أو ما وراء معاني كلمات القرآن، وذلك لعلمه أن المعنى البسيط للكلمة يحتوي من الحقائق والأسرار ما يتجاوز بكثير المفهوم العادي له، فجاء كتابه في مضمونه العلمي كاشفاً عن مراد المتكلم منه، وبالتالي كان لصيقاً به ومتمماً له.

ثم قدم كل منهما كتابه للحاكم، فتناول أولاً:

" مؤلف الفيلسوف ونظر إليه ملياً، فرأى أن ذلك المعجب بنفسه والمقدس للطبيعة، لم يكتب حكمة حقيقية قط، مع أنه بذل كل ما في طوقه، إذ لم يفهم معاني ذلك الكتاب، بل ربما زاغ واختلط عليه الأمر، وأظهر عدم توقير وإجلال لذلك القرآن، حيث إنه لم يكترث بمعانيه، وظن أنه مجرد نقوش جميلة وحروف بديعة، فبخس حق القرآن وازدراه من حيث المعنى، لذا رد الحاكم الحكيم مؤلف ذلك الفيلسوف وضربه على وجهه وطرده من ديوانه".[2]

لم يعط للقرآن حقه كاملاً غير منقوص، مما يفسر ضمناً بأنه قد عابه وجهل منزلته من حيث لا يدري.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 142

(1) الكلمات- النورسي ص 142،143

أما موقف الحاكم من كتاب المسلم فرواه النورسي بقوله:

" ثم أخذ مؤلف المسلم المحقق المدقق، فرأى أنه تفسير قيم جداً، بالغ النفع، فبارك عمله، وقدر جهده. وهنأه عليه، وقال، هذه هي الحكمة حقاً، وإنما يطلق اسم العالم والحكيم حقاً على صاحب هذا المؤلف، وليس الآخر إلاّ فنان صنّاع قد افرط وتجاوز حده، وعلى أثره كافأ ذلك المسلم واجزل ثوابه. آمراً أن تمنح عشر ليرات ذهبية لكل حرف من حروف كتابه".[1]

يفهم من وصف الحاكم لكتاب المسلم بأنه هو الحكمة حقاً وأن ما فيه ليس علماً مجرداً، بل هو علم مع زيادة مبالغة فيه، أو بمعنى آخر هو علم وعمل معاً، فكأنه قد ارجع ما في كتابه إلى القرآن، وأرجع القرآن إلى كتابه ليتطابق الكتابان معاً في كونهما حكمة ربانية خالصة.

تلك هي الحكاية التمثيلية من جوانبها المتعددة، أما الحقائق التي استندت عليها فبينها النورسي بقوله:

" فذلك القرآن الجميل الزاهي، هو هذا الكون البديع، وذلك الحاكم المهيب هو سلطان الأزل والأبد سبحانه، والرجلان الأول، أي ذلك الأجنبي، هو علم الفلسفة وحكماؤها، والآخر هو القرآن الكريم وتلاميذه".[2]

فإذا عرفنا من التفسير السابق أن القرآن هو هذا الكون الواسع الجميل، وأن الرجل الأجنبي يمثل الفلسفة وطلابها، ويمثل العالم

---

(2) الكلمات- النورسي ص 143

(1) الكلمات- النورسي ص 143

المسلم القرآن نفسه وطلابه، فإن الفارق الكبير بين الاثنين يتجلى في مقولة النورسي التالية:

" نعم، إن ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطرها قلم القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها على أوراق الأزمنة والعصور، وهو الذي ينظر إلى الموجودات – التي كل منها حرف ذو مغزى – بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل، فيقول: ما أحسن خلقه، ما أجمل خلقه، ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل، وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات.

أما ما يسمونه بعلم الحكمة وهي الفلسفة، فقد غرقت في تزيينات حروف الموجودات، وظلت مبهوتة أمام علاقات بعضها ببعض، حتى ضلت عن الحقيقة، فبينما كان عليها أن تنظر إلى كتاب الكون نظرتها إلى الحروف – الدالة على كاتبها – فقد نظرت إليها بالمعنى الاسمي، أي أن الموجودات قائمة بذاتها، وبدأت تتحدث عنها على هذه الصورة فتقول: ما أجمل هذا بدلاً من: ما أجمل خلق هذا، سالبة بهذا القول الجمال الحقيقي للشيء. فأهانت بإسنادها الجمال إلى الشيء نفسه جميع الموجودات حتى جعلت الكائنات شاكية عليها يوم القيامة".[1]

والمعنى الإجمالي أن حكمة القرآن توجه الناس دوماً إلى النظر للمخلوقات بنسبتها لله، متجاوزة مظاهرها السطحية إلى حقيقة

---

(1) الكلمات- النورسي ص 143،144

وجودها في دلالتها البينة والصريحة على خالقها ومبدعها، عندئذ يظهر جمالها كما هو عليه، جمالاً حقيقياً وأصيلاً.

أما الفلسفة فهي في أغلب أحوالها تكتفي من الوجود بظاهره ومن المخلوقات بنسبتها إلى ذاتها، وبأصالة جمالها وحسنها، مجردة إياها من أي علاقة تربطها بالله تعالى، محدثه بهذا الجهل المطبق بحقيقتها جروحاً غائرة في وجودها وجمالها، تحيل حتى ما هي عليه بالفعل إلى بهرجات زائفة لا قيمة لها.

الفصل الثالث

محمّد ﷺ

نور محمد ﷺ

مثل النورسي لمن يتبع محمداً صلى الله عليه وسلم ويهتدي بهديه من أمته وبين من أعرض عنه وترك اتباعه، بقوله:

"إذا كان ثمة قصر فخم فيه مصباح كهربائي عظيم تشعبت منه قوة الكهرباء إلى مصابيح أصغر فأصغر موزعة في منازل صغيرة مرتبطة كلها بالمصباح الرئيس، فلو أطفأ أحدهم المصباح الكهربائي الكبير، فسيعم الظلام المنازل الأخرى كلها وتستولي الوحشة فيها.

ولكن لأن هناك مصابيح في قصور أخرى غير مربوطة بالمصباح الكبير في القصر الفخم، فإن صاحب القصر هذا إن أطفأ المصباح الكهربائي الكبير فإن مصابيح صغيرة تعمل على الإضاءة في القصور الأخرى، ويمكنه أن يؤدي بها عمله فلا يستطيع اللصوص نهب شيء منه".[1]

---

(1) الكلمات- النورسي ص 417

إن صورة المثل ورموزها في منتهى الوضوح والبساطة، فلهذا القصر مصباح واحد كبير وهائل الحجم، لا ينير هو بذاته جنبات القصر، بل تنبثق منه مصابيح صغيرة وكثيرة تتوزع على القصر لتنيره، أي أن إنارة القصر تتمركز في ذلك المصباح، فإذا أخمد نوره تبعته سائر المصابيح الصغيرة، وعم الظلام جنبات المكان.

وهناك قصور أخرى عديدة لا تستمد نورها من ذلك المصباح الكبير ولا علاقة لها به، ولا تتأثر إذا أخمد نوره، بل تظل المصابيح الصغيرة المنتشرة في أرجائها تنير وتضيء تلك القصور كأن شيئاً لم يكن.

وشرح النورسي صورة المثل بقوله:

"القصر الأول هو المسلم، والمصباح الكبير هو سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم في قلب ذلك المسلم، فإن نسيه وأخرج الإيمان من قلبه – والعياذ بالله – فلا يؤمن بعد بأي نبي آخر، بل لا يبقى موضع للكمالات في روحه، بل ينسى ربه الجليل، ويكون ما أدرج في ماهيته من منازل ولطائف طعمة للظلام، ويحدث في قلبه دماراً رهيباً، وتستولي عليه الوحشة. ترى ما الذي يغني عن هذا الدمار الرهيب، وما النفع الذي يكسبه حتى يستطيع أن يعمر ذلك الدمار والوحشة.

أما الأجانب، فهم يشبهون القصر الثاني، بحيث لو أخرجوا نور محمد صلى الله عليه وسلم من قلوبهم، تظل لديهم أنوار – بالنسبة لهم – أو يظنون أنها تظل إذ يمكن أن يبقى لديهم شيء من العقيدة بالله والإيمان بموسى وعيسى عليهما السلام والذي هو محور كمال أخلاقياتهم".[1]

---

(1) الكلمات- النورسي ص 417

فـإذا كـان القصـر هـو المسـلم، ومحمـد صـلى الله عليـه وسـلم هـو المصباح الكبير، فإن عدم الإيمان به والاهتداء بهديه، لا يعني انتزاع الإيمـان مـن قلبـه فحسـب بـل يفتقـر حتـى إلـى القابليـة والاسـتعداد للإيمان بغيره من أنبياء الله ورسله، ومن ثـم يتردى في ظلمات بعضها فوق بعض، تبعث في نفسه الخوف والقلق والوحدة والاضطراب، هذا إذا لم ينحدر في هاوية سحيقة من التحلل الأخلاقي.

أما غير المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم فهم أحسن حالاً من ذلك المسلم، إذ يبقى عندهم وعلى أقل التقدير النزر اليسير من نور الهداية في البقية الباقية من إيمانهم بأنبيائهم، فهو الذي يحافظ على تماسكهم النفسي، ويحميهم من السقوط في مهاوي اللاَّدينية.

شخصية الرسول المعنوية

اقتصـرت معظـم كتـب السـيرة والتـاريخ فـي معالجتهـا لشخصـية المصطفى صلى الله عليه وسلم على الجانب البشري وحده متجاهلة شخصـيته المعنويـة أو الروحيـة، وهـي كمـا يعتقـد النورسـي الأولـى بالرعاية والاهتمام، فيقول في وصفها:

" هـذا النبـي المبـارك صـلى الله عليـه وسـلم الـذي هـو أنبـل نتـائج الكائنـات وأكمـل ثمراتهـا، والمبلـغ عـن خـالق الكـون، وحبيـب رب العـالمين، لا تبلـغ أحوالـه وأطـواره البشـرية التـي ذكرتهـا كتـب السـيرة والتاريخ الإحاطة بماهيته الكاملة ولا تصل إلى حقيقة كمالاته، فأنّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كل من جبرائيل وميكائيل مرافقين أمينين لـه فـي غـزوة بـدر أن تنحصـر فـي حالـة ظاهريـة أو آن تظهرهـا بجلاء حادثة بشرية كالتي وقعت مع صاحب الفرس الذي ابتاع صلى

الله عليه وسلم الفرس منه، ولكنه أنكر هذا البيع وطلب من الرسول شاهداً يصدقه فتقدم الصحابي الجليل خزيمة بالشهادة له".[1]

إن جل اهتمام كتاب السيرة وكما يفهم من وصف النورسي تركز على كمال بشريته صلى الله عليه وسلم وفي وقائع حياتية كثيرة ومتعددة، مع أن كمال البشرية لا يمثل إلاّ جانباً يسيراً من كماله المطلق الذي لا يمكن لحوادث بشرية قليلة أن تعبر عنه أو تعكسه على صفحة الوجود. ولأجل ذلك ينصح النورسي كل مريد ومطالع لسيرته صلى الله عليه وسلم بالآتي:

" فلئلا يقع أحد في غائلة الخطأ يلزم من يسمع أوصافه البشرية الاعتيادية أن يرفع بصره دوماً عالياً لينظر إلى ماهيته الحقيقية، وإلى شخصيته المعنوية النورانية الشامخة في قمة مرتبة الرسالة، وإلاّ أساء الأدب، ووقع في الشبهة والوهم".[2]

والنورسي بنصيحته تلك يريد من كل مؤمن أن يتخذ من أحوال وصفات الرسول صلى الله عليه وسلم البشرية أساساً ومدخلاً للتعرف على ذاته الحقيقية وشخصيته الروحية النورانية الصافية، وفي أعلى مراتب النبوة والرسالة، وإلا ظلت معرفته بعيدة عن ماهية ذاته وشخصيته، وفي حدودها الدنيا التي قد توقع في أخطاء كثيرة أجلها إيقاع الأذى بذاته الشريفة.

ولإيضاح ذلك الجانب المهمل من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، روى النورسي هذا المثل:

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 123

(2) المكتوبات- النورسي ص 123،124

" نواة للتمر وضعت تحت التراب فانفلقت عن نخلة مثمرة باسقة وهي في توسع ونمو مطرد، أو بيضة للطاووس فقست عن فرخ الطاووس بعدما سلطت عليه الحرارة، وكلما نما وكبر أصبح أجمل وأزهى بما زين قلم القدرة على كل جهاته من نقوش بديعة رائعة.

فهناك صفات وحالات خاصة تعود لكل من تلك النواة ولتلك البيضة، ويحوي كل منها مواد دقيقة لطيفة جداً، والنخلة والطاووس كذلك لهما صفات عالية، وكيفيات وأوضاع راقية بالنسبة لصفات البذرة والبيضة، فعندما تربط أوصاف النواة والبيضة بأوصاف النخل والطير وتذكران معاً، يلزم أن يرفع العقل الإنساني بصره عن النواة إلى النخلة وينظر إليها، وان يتوجه من البيضة إلى الطاووس ويمعن فيه كي يقبل تلك الأوصاف التي يسمعها، وبخلافه ينساق إلى التكذيب حين يسمع أحدهم يقول:

- لقد أخذت طناً من التمر من حفنة من النوى، أو هذه البيضة هي سلطان الطير".[1]

فالظاهر من نواة التمر المدفونة في الأرض، أو بيضة الطاووس المعرضة للحرارة، أن كل منهما تأخذ طريقها إلى الوجود بالطرق الاعتيادية للازدهار والنمو، أما في باطن كل منهما فهناك الكثير من الأحوال والصفات والحقائق مالا يسلم به العقل، ولكن إذا انتقل المرء من النواة إلى النخلة ومن البيضة إلى الطاووس، وتأمل فيهما جيداً، عندئذ يصدق بها، وإلا سيجر جراً إلى التكذيب والإنكار عند سماعه من يدعي بأنه تناول الكثير من التمر الناضج من حفنة قليلة من نواة، أو أن بيضة الطاووس هي سلطان الطير.

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 124

وقياساً على ما سبق ذكره خلص النورسي إلى القول:

" وهكذا فإن بشرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم تشبه تلك النواة أو البيضة في المثال، وماهيته المشعة بمهمة الرسالة مثلها كمثل شجرة طوبى الجنة، وطير الجنة في سمو ورقى".[1]

يعني أن بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم الظاهرة للعيان هي كالنواة أو البيضة حاملة لجملة من الأحوال والصفات المعبرة عن كماله البشري، أما حقيقة ذاته الحاملة لصفة النبوة والرسالة، وهي أعلى درجات كماله المعنوي والروحي، فتشبه في رقيها وعلوها شجرة طوبى الجنة وطير الجنة.

علاقة محمد بالله عزّ وجلّ

كشف النورسي في كتابة تمثيلية طويلة نسبياً جانب من جوانب عظمة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسر من أسرار خصوصية علاقته بالله تعالى، فقال:

" كان في زمان ما سلطان له ثروات طائلة، وخزائن هائلة تحوى جميع أنواع الجواهر والألماس والزمرد، مع كنوز أخرى عجيبة جداً، وكان صاحب علم واسع جداً وإحاطة تامة، واطلاع شامل بالعلوم البديعة التي لا تحد، مع مهارات فائقة وبدائع الصنعة".[2]

يعني أن تلك الذات السلطانية التي لا مثيل لها ولا شبيه قد حظيت بكل صفات الجمال ونعوت الكمال، ولكن ذاته وأعماله وكل ما

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 124

(2) الكلمات – النورسي ص 129

يملك هي في حقيقة أمرها ليست ظاهرة ولا مكشوفة لغيره، أو بمعنى آخر مجهولة وغير معروفة لسواه، ولكي يلفت أنظار رعيته إلى جماله وكماله، قال عنه النورسي:

" وحيث إن كل ذي جمال وكمال يجب أن يشهد ويشاهد جماله وكماله. كذلك هذا السلطان العظيم، أراد أن يفتح معرضاً هائلاً لعرض مصنوعاته الدقيقة كي يلفت أنظار رعيته إلى أبهة سلطنته وعظمة ثروته، ويظهر لهم فوارق صنعته الدقيقة وعجائب معرفته وغرائبها، ليشاهد جماله وكماله المعنويين على وجهين:

الأول: أن يرى بالذات معروضاته بنظره البصير الثاقب الدقيق

الثاني: أن يراها بنظر غيره.

ولأجل هذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شامخ جداً. وقسمه بشكل بارع إلى منازل ودوائر مزيناً كل قسم بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثار إبداعه وأجملها، ونظمه ونسقه بأدق دقائق فنون علمه وحكمته، فجهزه وحسنه بالآثار المعجزة لخوارق علمه". [1]

فالسلطان إذن يريد بناء قصر لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير. فيه تظهر ذاته وتتجلى بكل ما حظيت به من جمال وكمال، ويرى من خلاله ويعاين مصنوعاته ومخلوقاته من زاويتين متباعدتين:

الأولى: أن يراها هو ظاهرة على صفحة الوجود الخارجي رؤية ذاتية خاصة به وحده.

والثانية: أن يراها هو بنظر غيره رؤية تنسب لغيره ولها صفة الخصوصية نفسها التي لرؤيته الذاتية.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 129

ثم روى النورسي ما فعله السلطان بعد أن اكتمل بناء قصره قائلاَ:

" وبعد أن أتمه وكمّله، أقام في القصر موائد فاخرة بهيجة تضم جميع أنواع أطعمته اللذيذة، وأفضل نعمه الثمينة، مخصصاً لكل طائفة ما يليق بها ويوافقها من الموائد، فأعد بذلك ضيافة فاخرة عامة، مبيناً سخاءاً وإبداعاً وكرماً لم يشهد له مثيل، حتى كان كل مائدة من تلك الموائد قد امتلأت بمئات من لطائف الصنعة الدقيقة وآثارها، بما مد عليها من نعم غالية لا تحصى".[1]

أما دعوة صاحب القصر للمأدبة الحافلة بكل ما لذ وطاب من أصناف الأطعمة والمأكولات. فكانت عامة وشاملة لجميع من هم في مملكته وتحت سلطته، لم يستثن منهم أحد، ثم اصطفى من رعاياه دليلاً وهادياً للمدعوين، وذلك وكما يروى النورسي:

"ليعلم الناس عظمة باني القصر وصانع ما فيه من نقوش بديعة موزونة، ومعرفاً لكل الداخلين رموزه، وما تعنيه هذه المرصعات المنتظمة والإشارات الدقيقة التي فيه. ومدى دلالتها على عظمة صاحب القصر وكماله الفائق ومهارته الدقيقة، مبيناً لهم أيضاً تعليمات مراسيم التشريفات بما في ذلك آداب الدخول والتجول وأصول السير وفق ما يرضي السلطان الذي لا يُرى إلا من وراء حجاب".[2]

يعني أن مهمة ذلك العالم والعارف بالقصر وصاحبه تنحصر في تعريف المدعوين بأحوال وصفات صاحب القصر الذي لا يظهر بذاته لأحد منهم. والكشف عن أسرار صنعته، وكيفية تعلقها العجيب بصانعها، دون أن يغفل عن تذكيرهم وتنبيههم بالواجب عليهم اتباعه

---

(1) الكلمات – النورسي ص 130

(2) الكلمات – النورسي ص 130

داخل القصر وأثناء تجولهم في جنباته أو غيرها من الضوابط الحركية المقبولة عنده، والباعثة على رضائه عنهم، فقال لهم في مجمل تعريفه.

" أيها الناس إن سيدنا مليك هذا القصر الواسع البديع، يريد ببنائه هذا أن يظهر ما ترونه أمام أعينكم من مظاهر، أن يعرف نفسه إليكم، فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته، وانه يريد بهذه التزيينات الجمالية أن يحبب نفسه إليكم، فحببوا أنفسكم إليه، باستحسانكم أعماله وتقديركم لصنعته.

وانه يتودد إليكم ويريكم محبته بما يسبغه عليكم من آلائه ونعمه وأفضاله فأحبوه بحسن إصغائكم لأوامره وبطاعتكم إياه.

وانه يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الإكرام والإغداق من النعم فعظموه أنتم بالشكر.

وانه يريد أن يظهر لكم جماله المعنوي بآثار كماله من هذه المصنوعات الجميلة الكاملة فاظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائه ورؤيته ونيل رضاه

وانه يريد أن تعرفوا أنه السلطان المتفرد بالحاكمية والاستقلال بما ترون من شعاره الخاص، وخاتمه المخصص، وطرته التي لا تقلد على جميع المصنوعات، فكل شيء له، وخاص به، صدر من يد قدرته، فعليكم أن تدركوا جيداً أن لا سلطان ولا حاكم إلا هو، فهو السلطان الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل".[1]

إن صاحب القصر، وكما يفهم من كلام المعلم يريد من رعاياه واتباعه، ممن هم الآن في ضيافته معرفة ذات شقين:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 130،131

- معرفة مجردة بذاته، وما يجب عليه من تفرد وانفراد بالسلطة والسلطان، والحكم والحاكمية، واستقلال تام بالخلق والخالقية لا يشاركه فيه أحد.

- ومعرفة ذات طابع عملي وسلوكي، وهي أن يعرفوه محباً لهم رحيماً بهم، ليظهروا من جانبهم حبهم له، وطاعته والانقياد لأوامره، وشكرهم على نعمه وآلائه الكثيرة، وتعظيمهم وإجلالهم لذاته، وشوقهم للقائه ورؤيته.

وعلى أي حال فإن الذين دخلوا القصر استجابة لدعوة صاحبه ينقسمون إلى قسمين، وصف النورسي القسم الأول منهم بقوله:

" هم ذوو العقول النيرة والقلوب الصافية المطمئنة، المدركون قدر أنفسهم، فحينما يتجولون في آفاق هذا القصر، ويسرحون بنظرهم إلى عجائبه يقولون: لابد أن في هذا شأناً عظيماً، ولابد أن وراءه غاية سامية، فعلموا أن ليس هناك عبث، وليس هو بلعب، ولا بلهو صبياني، ومن حيرتهم بدأوا يقولون: ياترى أين يكمن حل لغز القصر، وما الحكمة فيما شاهدناه ونشاهده؟

وبينما هم يتأملون ويتحاورون في الأمر، إذا بهم يسمعون صوت خطبة الأستاذ العارف وبياناته الرائعة، فعرفوا أن لديه مفاتيح جميع الأسرار وحل جميع الألغاز، فأقبلوا إليه مسرعين:

- السلام عليكم أيها الأستاذ، إن مثل هذا القصر الباذخ ينبغي أن يكون له عريفاً صادقاً مدققاً أميناً مثلك، فالرجاء أن تعلمنا مما علمك سيدنا العظيم.

فذكرهم الأستاذ بخطبته المذكورة آنفاً، فاستمعوا إليه خاشعين وتقبلوا كلامه بكل رضى واطمئنان، فغنموا أيما غنيمة، إذ عملوا

ضمن مرضاة سلطانهم، فرضى عنهم السلطان بما ابدوا من رضى وسرور لأوامره، فدعاهم إلى قصر أعظم وأرقى لا يكاد يوصف، وأكرمهم بسعادة دائمة، بما يليق بالمالك الجواد الكريم، وتلائم هؤلاء الضيوف الكرام المتأدبين، وحري بهؤلاء الطيعين المنقادين للأوامر".[1]

وما انتهى إليه هؤلاء الأخيار ذوو النفوس الطيبة الكريمة والفطر السليمة من تجوالهم وطوافهم باركان القصر المختلفة هو أنه بُني لغاية كبرى، ولهدف سامٍ نبيل، ولما علموا من خطبة الأستاذ الحقيقة كلها، طابت نفوسهم فتقبلوها قبولاً رفع منزلتهم عند صاحب القصر. فاستضافهم في قصر آخر لا يقارن في جماله وبهائه بالقصر الأول، نعموا فيه بسعادة خالدة.

أما القسم الثاني من الداخلين فهم كما وصفهم النورسي:

" الذين قد فسدت عقولهم، وانطفأت جذوة قلوبهم، فما أن دخلوا القصر حتى غلبت عليهم شهواتهم، فلم يعودوا يلتفتون إلا لما تشتهيه أنفسهم من الأطعمة اللذيذة صارفين أبصارهم عن جميع تلك المحاسن، سادين آذانهم عن جميع تلك الإرشادات الصادرة عن ذلك المعلم العظيم، فأقبلوا على المأكولات بشراهة ونهم كالحيوانات، فأطبقت عليهم الغفلة والنوم وغشيهم السكر، حتى فقدوا أنفسهم لكثرة ما أفرطوا في شرب ما لم يؤذن لهم به، فأزعجوا الضيوف الآخرين بجنونهم وعربدتهم، فأساءوا الأدب مع قوانين السلطان

---

(1) الكلمات – النورسي ص 131

المعظم وأنظمته. لذا أخذهم الجنود وساقوهم إلى سجن رهيب لينالوا عقابهم الحق، جزاء وفاقاً على ما عملوا من سوء الخلق".[1]

فهؤلاء هم من ذوي النفوس المريضة والعقول السقيمة الذين صرفوا جل وقتهم في الإقبال على الأطعمة والمأكولات بإفراط مقيت، لا فرق عندهم بين الطيب منها أو الخبيث، متجاهلين تعليمات السلطان وتوجيهات معلمه، ومخالفين قواعد القصر وأنظمته بعناد الحمقى، فكان من الطبيعي أن يوقفوا عند حدهم، ويعاقبوا بعقوبات مفصلة عليهم، ولائقة بهم.

وأخيراً علق النورسي على بيت القصيد من الحكاية، فقال مخاطباً من كان يستمع إليه:

" فيا من ينصت معي إلى هذه الحكاية، لابد انك قد فهمت أن ذلك السلطان قد بنى هذا القصر الشامخ لأجل تلك المقاصد المذكورة، فحصول تلك المقاصد يتوقف على أمرين:

أحدهما: وجود ذلك المعلم الأستاذ الذي شاهدنا، وسمعنا خطابه، إذ لولاه لذهبت تلك المقاصد هباءاً منثوراً، كالكتاب المبهم الذي لا يفهم معناه، ولا يبينه أستاذ، فيظل مجرد أوراق لا معنى لها.

ثانيهما: إصغاء الناس إلى كلام ذلك المعلم وتقبلهم له، بمعنى أن وجود الأستاذ مدعاة لوجود القصر، واستماع الناس إليه سبب لبقاء القصر، لذا يصح القول: لم يكن السلطان العظيم ليبنى هذا القصر لولا هذا الأستاذ، وكذا يصح القول: حينما يصيح الناس لا يصغون إليه ولا يلقون بالاً إلى كلامه، فسيغير السلطان هذا القصر ويبدله".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 131، 132

(2) الكلمات – النورسي ص 132

ومقصود النورسي أن السلطان شيد ذلك القصر تحقيقاً للأغراض والأهداف المبسوطة فيما شرحناه من قبل، أما تحققها بالفعل فمرهون بأمرين متلازمين لا فكاك بينهما ولا انفصال:

أولهما: الارتباط الوثيق بين المعلم الأستاذ وبين الأغراض التي بنى لأجلها القصر، إذ لولاه لكانت مثل كتاب مكتوبٍ بلغة لا علم لأحد بها. فتضيع فائدته سدى.

وثانيهما: أن في وجود ذلك المعلم وسماع الناس لكلامه وجود للقصر، ولولاه لما بنى القصر. ولما استنفدت الجهود في المحافظة عليه، أما في انصراف الناس عن المعلم فتحويل للقصر إلى غير ما كان عليه.

فإذا انضمت معالم الحكاية التمثيلية بوقائعها العديدة، فإن تطبيقها على الواقع فصله النورسي في قوله:

" إن ذلك القصر هو هذا العالم (الدنيا) المسقف بهذه السماء المتلألئة بالنجوم المتبسمة، والمفروش بهذه الأرض المزينة من الشرق إلى الغرب بالأزهار المتجددة كل يوم، وذلك السلطان العظيم هو الله تعالى سلطان الأزل والأبد الملك القدوس ذو الجلال والإكرام.

أما منازل ذلك القصر فهي ثمانية عشر ألفاً من العوالم التي تزينت كل منها وانتظمت بما يلائمها من مخلوقات، أما الصنائع الغريبة في ذلك القصر فهي معجزات القدرة الإلهية الظاهرة في عالمنا لكل ذي بصر وبصيرة، وما تراه من الأطعمة اللذيذة التي فيه، هي علامات الرحمة الإلهية من الأثمار والفواكه البديعة التي تشاهد لك بوضوح في جميع مواسم السنة وخاصة في الصيف، وبالأخص في البساتين.

ومطبخ هذا القصر هو سطح الأرض وقلبها الذي يتقد ناراً، وما رأيته في الحكاية من الجواهر في تلك الكنوز الخفية، هي في الواقع أمثلة لتجليات الأسماء الحسنى المقدسة. وما رأيناه من النقوش ورموزها هي هذه المخلوقات المزينة للعالم، وهي نقوش موزونة بقلم القدرة الإلهية الدالة على الأسماء الحسنى.

أما جميع من دعوا إلى دار ضيافة الدنيا فهم إشارة إلى الإنس والجن: وما يخدم الإنسان من حيوان وأنعام.

أما ذلك المعلم الأستاذ فهو سيدنا وسيد الكونين محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الفريقان:

فالأول هم أهل الإيمان الذين يتتلمذون على مائدة القرآن الكريم الذي يفسر آيات كتاب الكون.

والآخر هم أهل الكفر والطغيان الصم البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشيطان، فما عرفوا من الحياة إلا ظاهرها، فهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

أما الفريق الأول الذين هم الأبرار السعداء، فلقد انصتوا إلى المعلم العظيم والأستاذ الجليل، إذ هو عبد وهو رسول، فمن حيث العبودية يعرف ربه، ويوصفه بما يليق به من أوصاف الجلال، فهو إذا في حكم ممثل عن أمته لدى الحضرة الإلهية، ومن حيث الرسالة يبلغ أحكام ربه إلى الجن والأنس كافة بالقرآن العظيم".[1]

صفوة القول أن النورسي استخدم تلك الحكاية الرمزية ليكشف من خلالها بعضاً من أسرار خصوصية العلاقة بين الله وبين نبيه

(1) الكلمات – النورسي ص 132،134

ورسوله وعبده محمد صلى الله عليه وسلم، أو إذا شئنا التوسع عظمة شخصية الرسول الكريم ومكانته الأثيرة عند الله. وامتيازه وتميزه على غيره من الأنبياء والرسل.

فمحمد صلى الله عليه وسلم هو وحده خلاصة النوع الإنساني، وواسطة عقده، ولأجله خلق الله تعالى كل شيء. ولولاه لما ظهر خلق ولا إيجاد، ليس هذا فحسب بل هو الغاية من الوجود كله.

كما أن محمداً من جهة ثانية هو الذي عرَّف بذات الله ووجوده وأسمائه وصفاته تعريفاً بلغ من سعته وعمقه ودقته حد التعيين الإشاري ليؤسس كل إنسان على ضوء هذه المعرفة علاقة خاصة بالله تعالى، بها ينتسب لخالقه، فينتقل دفعة واحدة من عمومية الخلق إلى خصوصية الصلة، حيث يحظى بصفة المكلَّف. وذلك للقيام بوظيفة الخليفة والنائب عن الله تعالى في أرضه وبين مخلوقاته كافة.

معجزة محمد

إن في معجزة أو معجزات المصطفى صلى الله عليه وسلم قوة ذاتية تدفع من هم مخاطبون بها للإقرار والاعتراف بصدق من حدثت على يديه، وذلك لأنها تقوم مقام قوله تعالى: صدق عبدي ورسولي فاتبعوه. وفي المثل الذي رواه النورسي توضيح وبيان لتلك المقولة جاء فيه:

" لو كنت في حضرة سلطان أو في ديوانه، وقلت لمن حولك، لقد عينني السلطان عاملاً في الأمر الفلاني، وحينما طلبوا منك دليلاً على ادعائك أومأ السلطان بنفسه: أن نعم، إني جعلته عاملاً، ألا يكون ذلك شهادة صدق لك. فكيف إذا خرق السلطان – لأجلك – عاداته وبدل

قوانينه لرجاء منك. أفلا يكون ذلك تصديقاً أقوى لدعواك وأثبت من قول نعم".[1]

يستفاد من المثل أن زعم الرجل بأنه خصص أو أُفرد وحده لوظيفة سلطانية، لا يسلم به أحد حتى ولو كان أمام السلطان، ما لم يؤيد زعمه ببرهان قاطع وحجة فاصلة لأي خلاف، ويكفي في تصديقهم له تصديق السلطان لقوله، أما إذا تجاوز التصديق. فخرق له الأعراف والعادات والتقاليد الجارية في مملكته، فإن ذلك أدعى للقبول والاعتراف من التصديق اللفظي.

وما فعله المصطفى صلى الله عليه وسلم عند دعوته لقومه كان من هذا النوع، يقول عنه النورسي:

" وكذلك كانت دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ قال: إنني رسول من رب العالمين، وأما دليلي فهو أنه سبحانه يبدل قوانينه المعتادة بالتجائي ودعائي وتوسلي إليه، وهاكم انظروا إلى أصابعي، أنه يفجر منها الماء، كما يتفجر من خمس عيون، وانظروا إلى القمر، إنه يشق لي شقين بإشارة من إصبعي، وانظروا إلى تلك الشجرة كيف تأتي لتصدقني وتشهد لي، وانظروا إلى هذه الحفنة من الطعام كيف أنها تشبع مائتين أو ثلاثمائة رجل. وهكذا أظهر صلى الله عليه وسلم مئات المعجزات أمثال هذه".[2]

أي أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يكتف فقط بالإعلان أنه مبعوث من عند الله، بل أردفه بإعلامهم أن الله سيغير له المألوف من

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 114

(2) المكتوبات – النورسي ص 115

عوائـدهم تأييـداً وتصـديقاً لـه فـي دعوتـه، وبطريقـة يـذعن لهـا العقـل وتقبلها النفس.

ظهور معجزات محمد على الكائنات

استعرض النورسي في المكتوب التاسع عشر والذي يحمل اسم المعجزات الأحمدية لأكثر من ثلاثمائة معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم، ومنها خلص ليس فقط إلى معرفة كل أنواع الكائنات به، بل أيضاً إلى أن تلك المعجزات تظهر فيها، بحيث تشير في مجملها وتفصيلها إلى أنه رسول من عند الله بوصفه رب الكائنات وخالقها، وشبه النورسي تلك المعرفة وذلك الظهور بقوله:

" نعم، كما أن موظفاً مرموقاً ذا منزلة عند السلطان تعرفه كل دائرة من دوائر الدولة، وإذا ما دخل أياً منها سيلقى ترحاباً حاراً، لأنه مأمور من قبل السلطان الأعظم، إذ لو فرضنا أنه كان مفتشاً للعدل فحسب، فسوف ترحب به دوائر العدل فقط. ولا تعرفه جيداً الدوائر الأخرى،

ولو كان مفتشاً عاماً للجيش فلا تعرفه الدوائر الرسمية الأخرى للدولة".[1]

فمعروف بنفسه أن المأمور من قبل أعلى سلطة دستورية في الدولة هو كالممثل الشخصي له، فله حق التنقل بحرية كاملة في البلاد، وتستقبله كل وحدة من وحدات الدولة استقبالها للسلطان. بحرارة وحفاوة بالغة، أما لو كان يشغل وظيفة في أي وحدة من تلك الوحدات، فقد لا تهتم به إلا الوحدات التي هو عامل فيها ومنتسب إليها.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 214

وشبيه بهذه المنزلة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيقول عنه النورسي:

" إن جميع دوائر السلطنة الإلهية تعرفه صلى الله عليه وسلم معرفة جيدة، أو يعرّفه الله لهم ابتداء من الملائكة إلى الذباب والعنكبوت، فهو بلا شك خاتم الأنبياء، وأن رسالته عامة للكائنات قاطبة لا تختص أمة دون أمة كغيره من الأنبياء والمرسلين".[1]

وما مضى ذكره بيّن بنفسه، فليس المصطفى صلى الله عليه وسلم مجهولاً لأحد من الخلق، عاقل أو غير عاقل، جماد أو نبات، فالكل على معرفة به معرفة تنهض أصلاً على دعامتين أساسيتين من دعائم نبوته:

أولهما: ختمه للأنبياء والرسل.   وثانيها: عموم رسالته.

فضائل أصحاب محمد

انتهى النورسي بعد مناقشة مستفيضة في الخلاف القديم الدائر بين أهل السنة والشيعة حول فضائل الصحابيين الجليلين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وبين فضائل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، إلى ما انتهى إليه أهل السنة والجماعة من قبله، فقال:

" إذا ما وضع في كفة ميزان الفضائل الشخصية لسيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه، أو فضائل سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وما قام كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتهما.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 214

ووضع في الكفة الأخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي رضي الله عنه ومجاهدات الخلافة في زمانه، وما اضطر إليه من معارك داخلية .... وما تعرض له بهذا من سوء الظن، فلا ريب أن كفة سيدنا الصديق رضي الله عنه، أو كفة سيدنا عمر الفاروق هي التي تكون راجحة، وهذا الرجحان هو الذي شاهده أهل السنة والجماعة، وبنوا تفضيلهم عليه".[1]

ثم أضاف إلى ذلك مرجحاً آخر، جاء فيه:

" إن حصة كل من الصديق والفاروق رضي الله عنهما من حيث ورثة النبوة وتأسيس أحكام الرسالة قد زيدت في الجانب الإلهي، فالتوفيق الذي حالفهما في زمن خلافتهما قد صار دليلاً لدى أهل السنة والجماعة، وحيث إن فضائل سيدنا على الشخصية لا تسقط من حكم تلك الحصة الزائدة الآتية من ورثة النبوة، فقد أصبح سيدنا علي رضي الله عنه شيخ القضاة للشيخين المكرمين زمن خلافتهما، وكان في طاعتهما".[2]

ومفاد ما مضى أن الخلفاء الثلاثة متماثلون في وراثة نور النبوة والإسلام، ولكن كفة المفاضلة في الأعمال تميل لصالح كل من أبى بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلك من ناحيتين:

الأولى: أن خلافة كل منهما هي امتداد طبيعي لخلافة الرسول، فهما اللذان حملا الإسلام للناس من بعده مباشرة.

والثانية: أُلهم الصحابيان وارشدا للقيام بأعمال دلت فعلاً على توفيق الله تعالى لهما. إذ في عهدهما تَمَّ الامتداد السياسي للدولة

---

(1) اللمعات – النورسي ص 36

(2) اللمعات – النورسي ص 36

الإسلامية امتداداً ضم أراضي واسعة من أملاك الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وفي فترة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

أما المثال الذي وضح به النورسي تلك الحقيقة، فجاء فيه:

" رجل ثرى جداً وزع ميراثه وأمواله الطائلة على أولاده، فأعطى لأحدهم عشرين رطلاً من الفضة، وأربعة أرطال من الذهب، وأعطى لآخر خمسة أرطال من الفضة وخمسة أرطال من الذهب، وأعطى لآخر ثلاثة أرطال من الفضة وخمسة أرطال من الذهب، فلا شك أن الآخرين رغم أنهما قد قبضا اقل من الأول كمية. إلا انهما قبضا أعلى نوعية".[1]

إن التفاوت في قسمة الثري بين أبنائه محصورة فقط بين المقدار الكمي، وبين النوع الكيفي، فالثاني والثالث وإن تسلما مقداراً من المال اقل من الأول، إلا انهما أخذا من حيث النوعية الأفضل كيفاً.

والمثل بصورته تلك هو نموذج للمفاضلة بين الصحابة.

" فإن الزيادة القليلة من حصة الشيخين من ذهب حقيقة الأقربية الإلهية المتجلية من وراثة النبوة، وتأسيس أحكام الرئاسة ترجح على الكثير من الفضائل الشخصية. وجواهر الولاية والقرب الإلهي لسيدنا علي رضي الله عنه".[2]

وعلى هذا فإن المقدار القليل في زيادة أفضال وفضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والمذكور آنفاً رجح كفتيهما على كفة على رضي الله عنه على ما تحلى به على من فضائل وراثة النبوة والقرب من الله.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 36

(2) اللمعات – النورسي ص 36،37

الفصل الرابع

الإيمان

نور الإيمان

مثلما يضيء نور الإيمان الإنسان ويظهره على حقيقته الربانية، فإنه أيضاً ينير ما يحيط به من مخلوقات وكائنات تشاركه في الوجود وفي الانتساب إلى الله تعالى، ولا يقف نور الإيمان في حدود الحاضر بل يتجاوزه ليضيء غياهب الماضي وحجب المستقبل، ولبيان هذا وذاك روى النورسي في حكاية خيالية ما رآه هو بنفسه. فقال:

" لقد رأيت في واقعة خيالية أن هناك طودين شامخين متقابلين نصب على قمتيهما جسر عظيم مدهش، وتحته واد عميق سحيق، وأنا واقف على ذلك الجسر والدنيا يخيم عليها ظلام كثيف من كل جانب، فلا يكاد يرى منها شيء، فنظرت إلى يميني فوجدت مقبرة ضخمة تحت جنح ظلمات لا نهاية لها، أي هكذا تخيلت، ثم نظرت إلى طرفي الأيسر فكأني وجدت أمواج ظلمات عاتية تتدافع فيها الدواهي المذهلة والفواجع العظيمة وكأنها تتأهب للانقضاض. ونظرت إلى أسفل الجسر فتراءت لعيني هوة عميقة لا قرار لها.

كنت لا أملك سوى مصباح يدوي خافت النور، أمام كل هذا الهدير العظيم من الظلمات، فاستخدمته فبدأ لي وضع رهيب، إذ رأيت أسوداً وضواري ووحوشاً وأشباحاً في كل مكان، حتى في نهايات وأطراف الجسر، فتمنيت أن لم أكن أملك هذا المصباح الذي كشف لي كل هذه المخلوقات المخيفة، إذ أنني أينما وجهت نور المصباح شهدت المخاطر المدهشة نفسها، فتحسرت في ذات نفسي وتأوهت قائلاً:

- إن هذا المصباح مصيبة وبلاء عليّ.

فاستشاط غيظي، فألقيت المصباح إلى الأرض وتحطم، وكأن بتحطمه قد أصبحت زراً لمصباح كهربائي هائل، فإذا به ينور الكائنات جميعاً فانقشعت تلك الظلمات، وانكشفت وزالت نهائياً، وامتلأ كل مكان وكل جهة بذلك النور وبدت حقيقة كل شيء ناصعة واضحة.

فوجدت أن ذلك الجسر المعلق الرهيب ما هو إلاّ شارع يمر من سهل منبسط، وتبينت أن تلك المقبرة الهائلة التي رأيتها على جهة اليمنى ليست إلا مجالس ذكر وتهليل وندوة كريمة لطيفة وخدمة جليلة وعبادة سامية تحت إمرة رجال نورانيين في جنائن خضر جميلة تشع بهجة ونوراً، وتبعث في القلب سعادة وسروراً.

أما تلك الأودية السحيقة والدواهي المدهشة والحوادث الغامضة التي رأيتها عن يساري، فلم تكن إلا جبالاً مشجرة خضراء تسر الناظرين، ووراءها مضيف عظيم ومروج رائعة ومتنزه رائع، نعم هكذا رأيت بخيالي، أما تلك المخلوقات المخيفة والوحوش الضارية التي

شاهدتها فلم تكن إلا حيوانات أليفة أنيسة كالجمل والثور والضأن والماعز".[1]

تتكون الحكاية من ثلاثة أجزاء مترابطة.

ففي الجزء الأول منها صور النورسي الظلمات الحالكة التي رآها تحيط به من كل جانب، والمخاطر المحدقة به أثناء وقوفه على الجسر.

وأراد في الجزء الثاني أن يتحرى عن حقيقة ما يجري أمامه، ويستكشف عما يدور من حوله، مستخدماً في ذلك مصباحاً صغيراً، فإذا به يرى حيوانات شرسة ومخيفة تنتشر في المكان، والمخاطر نفسها تحدق به، مما تسبب في حزنه واساه.

أما في الجزء الثالث والأخير فقد تغيرت الوقائع، وذلك لأنه عندما قذف بالمصباح الصغير أرضاً سقط على زر لمصباح كهربائي ضخم، فغطى نوره المكان. وانقلب ما كان يراه في الظلام من شر وقبح إلى خير وجمال.

ثم فسر وقائع الحكاية بقوله:

" فذاكما الجبلان هما: بداية الحياة ومنتهاها، أي هما عالم الأرض وعالم البرزخ، وذلك الجسر هو طريق الحياة، والطريق الأيمن هو الماضي من الزمن، والطريق الأيسر هو المستقبل منه، أما المصباح اليدوي فهو أنانية الإنسان المعتدة بنفسها والمتباهية بما لديها من علم،

---

(1) الكلمات – النورسي ص 350، 351

والتي لا تصغي إلى الوحي السماوي. أما تلك الغيلان والوحوش الكاسرة فهي حوادث العالم العجيبة وموجوداته".[1]

إن أنانية الإنسان وحبه المبالغ فيه لنفسه، هي التي تصور له الأشياء على غير حقيقتها، وتضللّه وتوهمه بما يضره ولا يفيده شيئاً، وهي التي توقف عندها النورسي دون باقي معاني ورموز الحكاية قائلاً:

" فالإنسان الذي يعتمد على أنانيته وغروره ويقع في شراك ظلمات الغفلة ويبتلى بأغلال الضلالة القاتلة، فإنه يشبه حالتي الأولى في تلك الواقعة الخيالية – حيث يرى الزمن الماضي – بنور ذلك المصباح الناقص الذي هو معرفة ناقصة منحرفة للضلالة، كمقبرة عظيمة من ظلمات العدم، ويصور الزمن من المستقبل موحشاً تعيث فيه الدواهي والخطوب محيلاً إياه إلى الصدفة العمياء كما يصور جميع الحوادث والموجودات التي كل منها موظفة مسخرة من لدن رب رحيم حكيم، كأنها وحوش كاسرة وفواتك ضارية".[2]

فإنّية الإنسان وأنانيته إذن تشبه ذلك المصباح الصغير الخافت الضوء والنور، ولا يكشف له الأشياء إلا في صورة مغايرة لحقيقتها، وتجردها على الدوام من نسبتها لله تعالى وانتسابها إليه، أو على أقل تقدير لا تصور له إلا الجانب الأسود أو المظلم فيها. أما إذا وجد الإيمان طريقه إلى قلبه، وتخلى عن الركون إليها، فانه يرى الأشياء من حوله منورة بالنور الإلهي، عندئذ تنقلب حقائقها وصفاتها وأحولها رأساً على عقب. يقول النورسي في حديثه عنها:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 351

(2) الكلمات – النورسي ص 351

" فليس الزمن الغابر إذ ذاك مقبرة عظمى كما يُتَوَهَمُ بل كل عصر من عصوره كما تشهده بصيرة القلب زاخر بوظائف عبودية تحت قيادة نبي مرسل، أو طائفة من الأولياء الصالحين، يدير تلك الوظيفة السامية ويعمها ويرسخ أركانها في الرعية على أتم وجه وأكمل صورة.

عندما يلتفت إلى يساره يتراءى له من بعيد بمنظار نور الإيمان – أن هناك انقلابات برزخية وأخروية – وهي بفخامة الجبال الشواهق قصور سعادة الجنان، وقد مرت فيها مضايف الرحمن مداً لا أول لها ولا آخر، فيتيقن بأن كل حادثة من حوادث الكون، كالأعاصير والزلازل والطاعون وأمثالها، إنما هي مسخرات موظفات مأمورات، فيرى أن عواصف الربيع والمطر وأمثالها من الحوادث التي تبدو حزينة سمجة ما هي في الحقيقة والمعنى إلا مدار الحكم اللطيفة، حتى إنه يرى الموت مقدمة لحياة أبدية، ويرى القبر باب سعادة خالدة، وقس على المنوال سائر الجهات بتطبيق الحقيقة على المثال".[1]

ومقصوده أن نور الإيمان يتجاوز تلك المعاني الضيقة ليترقى بالمؤمن فيكشف له الأشياء كلها بنسبتها الاستنادية لله تعالى، فلأجل ذلك عد علماً من نوع خاص يتخطى القشرة السطحية لمعاني الأشياء وينفذ إلى باطنها. فتتجلى له على حقيقتها الإلهية.

وعلى ضوء ذلك فلا الزمان الماضي مقبرة كبيرة واسعة للأموات يسودها الصمت الرهيب، بل تاريخ مفعم بالحيوية والعبادة ونور الإيمان، ولا الموت عدم وفناء، بل بداية لحياة جديدة وعالم آخر،

---

(1) الكلمات – النورسي ص 352

ولا تحمل تغيرات الطبيعة وثوراتها المدمرة الدمار والخراب للبشرية، بل أدوات طيعة بيد القدرة الإلهية يسوقها لحكم ومقاصد خيرة.

أثر الإيمان

مثّل النورسي لواحدة من آثار الإيمان وتأثيره في النفوس برجلين خرج كل واحد منهما إلى جهة معينة، بقصد النزهة والتفرج والاسترواح من ناحية، وللعمل والتجارة من ناحية أخرى، ووصف الأول بأنه أناني مبالغ في حبه وإعجابه بنفسه، ساعياً للتمتع بملذات الدنيا دون سواه، ووصف الثاني بنسبته الصريحة إلى الرب، أي رباني، فهو إذن متألّه، أو بمعنى آخر عابد لله زاهد في الدنيا.

ثم قص ما حدث للأول عند بلوغه مقصوده من السياحة قائلاً:

" فالأناني المغرور الذي كان متشائماً لقي بلداً في غاية السوء والشؤم في نظره جزاءً وفاقاً على تشاؤمه، حتى إنه كان يرى – أينما اتجه – عجزة مساكين يصرخون ويولولون بأيدي رجال طغاة قساة ومن أعمالهم المدمرة، فرأى هذه الحالة المؤلمة الحزينة في كل ما يزوره من أماكن، حتى اتخذت المملكة كلها في نظره شكل مأتم عام، فلم يجد لنفسه علاجاً لحاله المؤلم المظلم غير السكر، فرمى نفسه في نشوته لكيلا يشعر بحاله، إذ صار كل واحد من أهل هذه المملكة يتراءى له عدواً يتربص به، وأجنبياً يتنكر له، فظل في عذاب وجداني مؤلم، لما يرى فيما حوله من جنائز مرعبة، ويتامى يبكون بكاءاً يائساً مريراً".[1]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 9

إن انطـواء ذلـك الرجـل علـى ذاتـه، واسـتيلاء الفرديـة علـى سـلوكه وغلبتهـا علـى أفعالـه أورثـه بالضـرورة روح الاسـتياء والكراهيـة، أي الحالة الأسوأ من بين جميع الحالات النفسية، فاصبح ينظر إلى كل شيء نظرة سوداوية أفسدت عليه جمالها وحسنها وبهاءها ورونقها، وأحالـت الموجـودات إلـى جنـائز متحركـة مجـردة عـن بهجـة الحيـاة وأفراحها، حتى غدا العالم في نظره مجتمعاً كبيراً يسوده الحزن وتعمه الكآبة، ويسيطر عليه الغم.

ولم يجد الرجل من وسيلة تخلصه من حالته تلك إلا باللجوء إلى السكر ليضطرب عقله ويفقد إدراكه، فلا يعي بمن حوله، تحرراً من الآلام، وهروباً مما يكابده من مخاوف، وبهذا يكون قد يئس من كل خير، وانقطع أمله وخاب رجاؤه من كل إصلاح، وانصرف بكليته لتدمير نفسه تدميراً بطيئاً.

أما ما حدث للرجل الثاني عند بلوغه مقصده، فيرويه النورسي بقوله:

" أما الآخر الرجل الرباني العابد لله، والباحث عن الحق، فقد كان ذا أخلاق حسنة، بحيث لقي في رحلته مملكة طيبة هي في نظره في منتهى الروعة والجمال.

فهذا الرجل الصالح يرى في المملكة التي دخلها احتفالات رائعة ومهرجانات بارعة قائمة على قدم وساق، وفي كل طرف سروراً، وفي كل زاوية حبوراً، وفي كل مكان محاريب ذكر، حتى لقد صار يرى كل فرد من أفراد هذه المملكة صديقاً صدوقاً وقريباً حبيباً له، ثم يرى أن المملكة كلها تعلن – في حفل التسريح العام – هتافات الفرح بصيحة مصحوبة بكلمات الشكر والثناء، ويسمع فيها أيضاً أصوات الجوقة

الموسيقية وهي تقدم ألحانها الحماسية مقترنة بالتكبيرات العالية والتهليلات الحارة بسعادة واعتزاز سَوقاً إلى الخدمة والجندية".[1]

فالرجل الثاني مخالف للأول في مسلكه، وعلى النقيض منه في نظرته للأشياء، فهو ينظر إليها بنسبتها الاستنادية لله تعالى، فيرى أن الغالب عليها هو الحسن والجمال والسعادة والأفراح والمسرات، وما يظهر فيها بين الفينة والأخرى من قبح وشر وشقاء وأحزان، هي أعراض طارئة ونسبية، ووجودها على ما فيه من فساد، وما تلحقه من أضرار افضل من عدمها.

إن الرجل الرباني تعود مستنداً على خلفيته النفسية المتفائلة النظر إلى الموجودات في جوانبها الجميلة والخيرة. وهو لا يجهل ولا يتجاهل ما فيها من قبح وشر، ولكنه يؤثر ويفضل الالتفات إلى كمال الوجود وجماله، معرضاً عن نقصه وقبحه فمثلاً ينظر إلى الموت وهو أقبح الأشياء وأشدها إيلاماً للنفس بوصفه تسريحاً من الخدمة، وانطلاقاً إلى عالم آخر تصاحبه مظاهر البهجة والسرور لا الحزن والبكاء

وعاد الرجلان من سياحتهما على الحالة التي كانا عليها:

" فبينما كان ذلك الرجل الأول المتشائم منشغلاً بألمه والآم الناس كلها، كان الثاني السعيد المتفائل مسروراً مع سرور الناس كلهم فرحاً مع فرحهم، فضلاً عن أنه غنم لنفسه تجارة حسنة مباركة فشكر ربه وحمده".[2]

ثم دار بين الاثنين حوار قصير عن تجربتهما رواه النورسي بقوله:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 9،10

(2) الكلمات – النورسي ص 10

" ولدى عودته إلى أهله، يلقى ذلك الرجل فيسأل عنه وعن أخباره فيعلم كل شيء عن حاله فيقول له:

- يا هذا هل جننت، فإن ما في داخلك من شؤم انعكس على ظاهرك بحيث تتوهم أن كل ابتسامة صراخ ودموع، وأن كل تسريح وإجازة نهب وسلب عُدْ إلى رشدك وطهر قلبك، لعل هذا الغشاء النكد ينزاح عن عينيك، وعسى أن تبصر الحقيقة على وجهها الأبلج، فإن صاحب هذه المملكة ومالكها وهو في منتهى درجات العدل والرحمة والربوبية والاقتدار والتنظيم المبدع والرفق، وان مملكة في هذه الدرجة من الرقى والسمو بما تريك من آثار بأم عينيك لا يمكن أن تكون بمثل ما تريه أوهامك من صور.

وبعد ذلك بدأ هذا الشقي يراجع نفسه ويرجع إلى صوابه رويداً رويداً، ويفكر بعقله ويقول متندماً:

- نعم لقد أصابني جنون لكثرة تعاطى الخمر، ليرض الله عنك، فلقد أنقذتني من جحيم الشقاء". [1]

وفسر النورسي المثل أو الحكاية الرمزية، فقال مخاطباً نفسه،

" فيا نفسي، اعلمي أن الرجل الأول هو الكافر أو الفاسق الغافل، فهذه الدنيا في نظره بمثابة مأتم عام، وجميع الأحياء يبكون تألماً من ضربات زوال وصفعات الفراق، أما الإنسان والحيوان فمخلوقات سائبة بلا راع ولا مالك، تتمزق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته، وأما الموجودات الضخام – كالجبال والبحار – فهي في حكم الجنائز

(1) الكلمات – النورسي ص 10

الهامدة والنقوش الرهيبة، وأمثال هذه الأوهام المدهشة المؤلمة الناشئة من كفر الإنسان وضلالته تذيق صاحبها عذاباً معنوياً مريراً".[1]

ومرد ذلك كله وكما يفهم من النص أن الكفر والفسق لا يقطع فقط انتساب الكافر والفاسق بالله تعالى، بل يقطع سائر أنواع الانتماءات به عز وجل، سواء كانت اختيارية كما هو الحال في المخلوقات العاقلة، أو قهرية كما هو الحال في سائرها، مما يجردها بالكامل من كل المعاني التي اكتسبتها بتلك النسبة وذلك الانتساب، بل قد تكتسب في نظره، وبما تنطوي عليه نفسه من أنانية مفرطة وتشاؤم سوداوي، معاني مناقضة تماماً للمعاني التي خرج بها إلى الوجود، ومغايرة لوظائفها، ومناهضة لطبيعتها الخيرة الجميلة.

وبديهي أن الرجل الثاني يمثل العبد المؤمن، وعنه يقول النورسي:

" وأما الرجل الثاني فهو المؤمن الذي يعرف خالقه حق المعرفة، ويؤمن به، فالدنيا في نظره دار ذكر رحماني، وساحة تعليم وتدريب البشر والحيوان. وميدان ابتلاء واختبار الإنس والجن.

أما الوفيات كافة – من حيوان وإنسان – فهي إعفاء من الوظائف وإنهاء من الخدمات، فالذين أنهوا وظائف حياتهم، يودعون هذه الدار الفانية وهم مسرورون معنوياً، حيث إنهم ينقلون إلى عالم آخر غير ذي قلق، خال من أوضار المادة وأوصاب الزمان والمكان وصروف الدهر وفوارق الحدثان، لينفسح المجال واسعاً لموظفين جدد يأتون للسعي في مهامهم.

أما المواليد كافة – من حيوان وإنسان – فهي سَوقة تجنيد

---

(1) الكلمات – النورسي ص 10،11

عسكرية وتسلم سلاح، وتسنم وظائف وواجبات، فكل كائن إنما هو موظف وجندي مسرور ومأمور مستقيم راض قانع.

وأما الأصوات المنبعثة والأصداء المرتدة من أرجاء الدنيا فهي إما ذكر وتسبيح لتسنم الوظائف والشروع فيها، أو شكر وتهليل إيذاناً بالانتهاء منها، أو أنغام صادرة عن شوق إلى العمل وفرح به.

فالموجودات كلها – في نظر المؤمن – خدام مؤنسون، وموظفون أخلاء، وكتب حلوة لسيده الكريم ومالكه الرحيم، وهكذا يتجلى من إيمانه كثير جدا من أمثال هذه الحقائق التي هي في غاية اللطف والسمو واللذة والذوق".[1]

وهكذا لا يرى المؤمن بإيمانه إلا الجانب المشرق للوجود والموجودات، حيث تستحيل مظاهر الحياة كلها إلى صور وأشكال محببة للقلب، وباعثة على الفرح في النفوس، فلا الدنيا مرذولة، ولا الموت بغيض، ولا من يولد من الأحياء يولد للفناء، بل إن في حركة كل موجود منتهى سعادته وغاية رجائه.

أعلى مراتب الإيمان

إذا كان ابن عربي ومن تبعه يرون أن في الاعتقاد بوحدة الوجود هو أرفع مراتب الإيمان، فإن أهل السنة في المقابل يرون أن التوحيد هو أعلى مرتبة من مراتب الإيمان، ولبيان الفرق بين المذهبين والاعتقادين ضرب النورسي المثل التالي:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 11

" لنفرض أن هناك طاؤوساً خارقاً لا مثيل له، وهو في غاية الكبر ومنتهى الزينة، وأنه يتمكن من الطيران من الشرق إلى الغرب في لمحة وله القدرة على بسط جناحيه الممتدين من الشمال إلى الجنوب، وقبضهما في آن واحد، وعليه مئات ألوف النقوش البديعة حتى إن في كل ريشة من جناحيه إبداعاً واتقاناً في منتهى الجمال والروعة.

ولنفرض الآن أن هناك شخصين يتفرجان على هذا الطاؤوس العجيب، ويريدان التحليق بجناحي العقل إلى المراتب العالية الرفيعة لهذا الطير وبلوغ زينته الخارقة.

فطفق الأول يتأمل في وضع هذا الطاؤوس وهيكله ونقوش خوارق القدرة في كل ريشة منه، فيغمره العشق والشوق والمحبة تجاه هذا الطير، فيترك شيئاً من التفكير العميق إلى جانب مستمسكاً بالعشق ولكنه يرى أن تلك النقوش المحبوبة تتحول وتتبدل يوماً بعد يوم، وأن تلك المحبوبات التي يوليها الحب والعشق تغيب وتزول كل يوم، فكان ينبغي له أن يقول:

- إن هذه النقوش المتقنة إنما هي لنقاش مالك للخلاقية الكلية مع أحديته الذاتية، وله الربوبية المطلقة مع وحدانيته الحقيقة، إلا أنه لم يتمكن من أن يستوعب هذا ويدركه، فبدأ يسلى نفسه ويقول بدلاً من ذلك الاعتقاد:

- إن روح هذا الطاؤوس روح سامية عالية بحيث إن صانعه فيه، أو قد أصبح هو نفسه، وأن تلك الروح العالية متحدة مع جسد الطاؤوس، ولأن جسده ممتزج مع صورته الظاهرة، فإن كمال تلك الروح، وعلو ذلك الجسد هما اللذان يظهران هذه الجلوات على هذه الصورة البديعة، حتى يظهر في كل دقيقة نقشاً جديداً وحسناً مجدداً، فليس هذا إيجاد باختبار حقيقي، بل هو جلوة وتظاهر.

أما الشخص الأخر، فيقول:

إن هـذه النقـوش الموزونـة المنظمـة المتقنـة تقتضـي يقينـاً إرادة واختيـاراً وقصـداً ومشـيئة، فـلا يمكـن أن تكـون جلـوة بـلا إرادة، ولا تظاهراً بلا اختيار". [1]

فالصـورة المفترضـة هـي لطـاؤوس مخـالف فـي طبيعتـه لحجمـه التقليدي، فجسمه ضخم وكبير، وجماله وزينته يفوقان الوصف، ولـه مقدرة هائلة على الطيران من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وفي سرعة البرق، وقادر على نشر جناحيه شمالاً وجنوباً، وجمعهما في لحظة واحدة، أما ألوانهما ففي منتهى الحسن والجمال.

وإزاء هذا الطائر الرائع وقف رجلان ينظران إليه بدهشة وانبهار، وكل منهما يريد بقوة فكره وخياله الوصول إلى مستواه الرفيع وجماله المعجز الأخاذ.

فالرجل الأول هداه تفكيره الطويل ونظره المتمعن في هيكل الطائر وجماله الفريد على الوقوع في حبه، ولكن جمال الطائر لا ثبات له، فهو عرضة للتبدل والتغيير بصفة مستمرة ودائمة، فبدلاً من توجيه الحب إلى خالقه وصانعه، نراه يتحول إلى اعتقاد غريب، وهو اتحاد الصانع بصنعته، وظهوره في كل ما على الطائر من جمال وألوان ودقة في الصنعة

أما الرجل الثاني فاتجه مباشرة من جمال الطائر ودقة صنعته وكمال خلقه، إلى الاعتقاد بعلم وقدرة وإرادة واختيار وحكمة متجلية وظاهرة عليه، أي الاعتراف بوجود خالق وصانع له، منفك عنه ذاتاً ووجوداً.

فالرجـل الأول يمثـل أصـحاب وحـدة الوجـود الـذين اضـطرتهم

---

(1) اللمعات – النورسي ص 63

محبتهم الشديدة للجمال الزائل إلى الاعتقاد بان كل شيء هو الله، أو لا شيء موجود، أو أن الوجود خيال، إلى غيرها من المعاني التي تهدف إلى إدامة تلك المحبة إلى مالا نهاية. فقال النورسي معلقاً على حالتهم تلك:

" إن صفة العشق لا تريد الفراق أصلاً، وتفر منه بشدة، وترتعد فرائص العاشق من الافتراق، ويرهب من التنائي رهبته من جهنم، وينفر من الزوال نفرة شديدة، ويحب الوصال حبه لروحه ونفسه، ويرغب بشوق لا حد له – كشوقه للجنة – للقرب الإلهي، لذا يرى أن التشبث بتجلي الأقربية الإلهية في كل شيء يجعل الفراق والتنائي كأنهما معدومان، فيظن اللقاء والوصال دائمين بقوله: لا موجود إلا هو".[1]

يعني أن طبيعة المحبة القوية والولع الشديد بالمخلوقات لا تفترض عندهم الانفصال بين المحبة والمحبوب، بل تشكل فكرة الانفصال في حد ذاتها كارثة يتزلزل لها كيان المحب، وبما أن الانفصال أمر محتم وقضاء لازم فيلجأ مكرهاً إلى وجود فكرة وجود الله في كل شيء، كي يقضى بها أو من خلالها على فكرة الفراق. فيتوهم نوعاً من دوام واستمرارية الحب بقوله: لا موجود إلا هو.

أما الرجل الثاني فيمثل أهل السنة الذين يقولون:

" إن الله سبحانه بأحديته الذاتية وتنزهه عن المكان قد أحاط – من دون وساطة – بكل شيء علماً وشخّصه بعلمه ورجحه وخصصه بإرادته وأوجده وأبقاه بقدرته، فانه سبحانه يوجد جميع الكون ويخلقه ويدبر أموره كإيجاده لشيء واحد وإرادته إياه، فكما أنه يخلق الزهرة

---

(1) اللمعات – النورسي ص 61

بسهولة فانه يخلق الربيع العظيم بالسهولة نفسها، فلا يمنع شيء شيئاً قط، فلا تجزؤ في توجهه سبحانه، فهو موجود بتصرفه وبقدرته وبعلمه في كل شيء في كل آن، فلا انقسام ولا توزع في تصرفه سبحانه".[1]

وخلاصة المعنى تفيد بأن الله تعالى هو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد، ولا يتفاوت خلقه بتفاوت أحجامها، وكلها تخرج إلى الوجود بكلمة (كن) الدالة على سرعة الخلق، وعلى انفصالها عنه عز وجل، ومن ثم فلا مجال للمقارنة بين الخالق والمخلوق، فلا الله تعالى ينزل إلى مرتبة الموجودات ليتحد معها بأي معنى من معاني الاتحاد، ولا الموجودات ترتفع إلى منزلة الخالق، فتنال من الصفات والأحكام ما ليس لها.

الانتساب

شاء الله بمقتضى حكمته الأزلية أن يرتفع بالإنسان من علاقة المخلوقية إلى علاقة أخص، بها يترقى في سلم الحياة بمعنى لا يشاركه فيه غيره، فتفضل عليه بالتكليف لينتسب إليه بصفة أخص، فيها ترقية له من جهة، وتشريف له من جهة أخرى، وهي صفة المُكلَّف، إذ في العلاقة التكليفية، وفي الانتساب إليه تعالى بصفة المكلَّف ما ليس في علاقة المخلوق بالخالق.

وأطلق النورسي على ذلك الانتساب إلى الله تعالى اسم الإيمان، مما يعني أن الإيمان في الأصل هو الانتساب لله، فعد لهذا السبب

---

(1) اللمعات – النورسي ص 52

مناط التكليف الإلهي، منه تحدد العلاقة أو الرابطة بين الله تعالى وبين الإنسان، وبه ينال صفة المكلَّف.

ولتقريب ذلك المعنى وتلك الحقيقة إلى الذهن وفي صورة أقرب إلى الحس والوجدان، ساق النورسي المثل التالي:

"إذا انتسب أحد إلى السلطان بالجندية أو بالوظيفة الحكومية، فإنه يتمكن أن ينجز من الأمور والأعمال أضعاف أضعاف ما يمكن إنجازه بقدرته الشخصية، وذلك بقوة ذلك الانتساب السلطاني، فمثلاً يستطيع أن يأسر قائداً كبيراً باسم سلطانه مع أنه جندي، حيث تحمل خزائن السلطان وقطعات الجيش الأجهزة والأعتدة لما يقوم به من أعمال، فلا يحملها وحده، كما أنه ليس مضطراً إلى حملها، كل ذلك بفضل انتسابه إلى السلطان، لذا تظهر منه أعمال خارقة كأنها أعمال سلطان عظيم، وتبدو له آثار – فوق ما تبدو منه عادة – وكأنها آثار جيش كبير رغم أنه فرد.

فالنملة – من حيث تلك الوظيفة – تتمكن من تدمير قصر فرعون طاغ، والبعوضة تستطيع أن تهلك نمروداً جباراً بقوة ذلك الانتساب، والبذرة الصغيرة للصنوبر الشبيهة بحبة الحنطة تنشئ بذلك الانتساب جميع أجهزة شجرة الصنوبر الضخمة.

فلو انقطع ذلك الانتساب، وأُعفى الموجود من تلك الوظيفة فعليه أن يحمل على كتفه قوة ما ينجزه من أعمال وينوء كاهله بلوازمها ومعداتها، وبذلك لا يمكنه القيام بأعمال سوى أعمال تتناسب مع تلك القوة الضئيلة المحدودة المحمولة على ذراعه، بما يناسب كمية المعدات واللوازم البسيطة التي يحملها على ظهره، فلو طلب منه أن يقوم بأعمال كان يقوم بها بسهولة ويسر في الحالة الأولى لأظهر

عجزه، إلا إذا استطاع أن يحمّل ذراعه قوة جيش كامل، ويردف على ظهره معامل أعتدة الدولة الحربية".[1]

ويفهم من المثل أن مجرد الاستناد إلى الله تعالى يمنح الفرد حقاً في التحرك، وقوة في الأداء ينجز بها من الأعمال ما هو موكول إليه، فكأن هذا الاستناد شهادة موثقة ومعترف بها تعطيه الحرية في التصرف، وفي الوقت نفسه إعلان بأنه منتسب إلى قوة هي سبب كل ما يصدر عنه من أفعال.

فإذا آمن الإنسان بالله فإن إيمانه يعطيه وثيقة يستند عليها، فيصبح ذلك الانتساب قوة لا حد لها تمكنه من أن ينجز من الأعمال أضعاف أضعاف ما يمكن إنجازه بقدرته الذاتية.

وقد مثل النورسي لذلك بالجندي الذي بانتسابه إلى جيشه وقائده، يأتي وحد بأعمال مخالفة للمعهود، كأن يسوق قائداً إلى الأسر، وذلك لأنه يرتكز في حركته على الجيش بعدته وعتاده، ويستند في كل ما يقوم به على قائده، وينسب كل فعل صادر منه إليه.

وكذلك الحال مع النملة الصغيرة والبعوضة الضعيفة والبذرة الجامدة، فكل منها تأتي بأعمال ضخمة وكبيرة ولا تقارن أبداً بأحجامها الضئيلة، وكل ذلك بفضل انتسابها إلى الله تعالى واستنادها عليه.

فلو حدث وانقطع ذلك الانتساب، وترك كل مخلوق للانطلاق مستنداً على قواه الذاتية المجردة، فإن عليه لإنجاز أي عمل أن يحمل من الآلات والمعدات مالا يتفق مع حجمه، وحتى لو فرض مقدرته

---

(1) اللمعات- النورسي ص 278،279

على حملها فلا ينجز بها إلا الأعمال التي تتفق مع حجمها ومع ما يحمله من آلات ومعدات.

الحقائق الإيمانية

هناك الكثير من الدسائس الدخيلة التي تسعى لإفساد سلامة تفكير المؤمن، من بينها المحاولات المتكررة للإخلال بصحة نظرته إلى الحقائق الإيمانية، أو بمعنى آخر وكما يقول النورسي:

" إبطال حكم مئات الدلائل الثبوتية – حول حقيقة إيمانية – بشبهة تدل على نفيها، علماً أن القاعدة هي: أن دليلاً واحد ثبوتياً يرجح على كثير من النفي، وان حكماً لشاهد ثبوتي واحد لدعوى، يؤخذ به ويرجح على مائة من المنكرين النافين".[1]

فهناك إذن الكثير من الحجج والأدلة القوية المؤيدة للحقائق الإيمانية، ولكن هؤلاء الدساسين يوردون دوماً شبهة أو شبهتين في سعى منهم لتجريدها من ثباتها العلمي ووضوحها اليقيني، مع أنه من المعروف بداهة أن برهان واحد وشاهد واحد يؤخذ مأخذاً علمياً يزيل ويبطل نفي النافين وإنكار المنكرين.

وبيّن النورسي هذه الحقيقة بالمثال التالي:

" بناية عظيمة لها مئات من الأبواب المقفلة، يمكن الدخول فيها بفتح باب واحد منها، وعندها تفتح بقية الأبواب، ولا يمنع بقاء قسم من الأبواب مغلقة من الدخول في البناية".[2]

---

(1) اللمعات- النورسي ص 135

(2) اللمعات- النورسي ص 135

فمدخل واحد إذاً رغماً عن ذلك العدد الهائل من المنافذ المؤدية إلى داخل المبنى يقود إلى فتح باقي المنافذ، ومع هذا يظل عدد كبير منها مغلقاً أمام الداخلين.

ثم فسر النورسي المثل بقوله:

" فالحقائق الإيمانية هي كتلك البناية العظيمة، وكل دليل ثبوتي هو مفتاح يفتح باباً معيناً، فلا يمكن إنكار الحقيقة الإيمانية أو العدول عنها بمجرد بقاء باب واحد مسدود من بين تلك المئات من الأبواب المفتوحة.

ولكن الشيطان يقنع جماعة من الناس – بناء على أسباب كالجهل أو الغفلة – بقوله لهم: لا يمكن الدخول إلى هذه البناية مشيراً إلى أحد تلك الأبواب المسدودة ليسقط في الاعتبار جميع الأدلة الثبوتية.

فيغريهم بقوله: إن هذا القصر لا يمكن الدخول فيه أبداً، فأنت تحسبه قصراً وهو ليس بقصر، وليس فيه شيء".[1]

والمراد أن كل برهان يقيني أو حجة فاصلة من حقائق الإيمان تكشف عن حقيقة من حقائق الإيمان الكبرى، ومن ثم فمن المستحيل نفي أو إنكار أيّ من حقائق الإيمان لمجرد شبهات لا أساس لها من الصدق، من بين الكثير من الحجج القوية والشواهد المدحِضة.

غير أن الشيطان يحاول إيهام ضعاف الإيمان وغير العارفين، أنه يصعب فهم حقائق الإيمان صعوبة تشبه دخول ذلك المبنى من أحد أبوابه المغلقة، وذلك كي يبطل كل أدلة وبراهين الإيمان اليقينية، وهدفه سد كل المنافذ أمام المؤمن، كي لا يؤمن أبداً.

---

(1) اللمعات- النورسي ص 135

ثمرات المعراج

للمعراج النبوي كثير من الثمرات والفوائد، من بينها ثمرة واحدة أتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم، رفعت الإنسان إلى مرتبة عالية ومقام شريف، ومنحته من الفرح والسعادة مالا يوصف، لأنه إذا قيل لجندي عادي:

" لقد أصبحت مشيراً في الجيش، كم يكون امتنانه وحمده وسروره وفرحه ورضاه؟ لا يقدر حتماً، بينما الإنسان المخلوق الضعيف والحيوان الناطق والعاجز الفاني الذليل أمام ضربات الزوال والفراق، لو قيل له،

- ستدخل جنة خالدة، وتتنعم برحمة الرحمن الواسعة الباقية، وتتنزه في ملكه وملكوته الذي يسع السماوات والأرض، وتتمتع بجميع رغبات القلب في سرعة الخيال، وفي سعة الروح وجولان العقل وسريانه، وفوق كل هذه ستحظى برؤية جماله سبحانه في السعادة الأبدية.

فكل إنسان لم تنحط إنسانيته يستطيع أن يدرك مدى الفرح والسرور اللذين يغمران ذلك الذي يقال له مثل هذا الكلام".[1]

أما أولئك الذين انحطت منزلتهم فعلاً، وعجزوا عن التدرج في مدارج الكمال الإنساني ولم يتذوقوا ثمرات المعراج النبوي، فمثل لهم النورسي تلك الثمرات بمثلين، قال في الأول:

" هب أننا معك في مملكة واسعة أينما تتوجه فيها بالنظر فلا ترى إلا العداء، فكل شيء عدو لنا، وكل شيء يضمر عداوة للآخر، وكل

---

(1) الكلمات- النورسي ص 698،699

ما فيها غريب عنا لا تعرفه، وكل زاوية منها ملآى بجنائز تثير الرعب والدهشة، وتتعالى أصوات نياح واستغاثات اليتامى والمظلومين، فبينما نحن في مثل هذه المآسي والآلام، إذا بأحد يذهب إلى سلطان المملكة ويأتي منه ببشرى سارة للجميع.

فإذا بدلت تلك البشرى ما كان غريباً عنا أحباباً أودّاء، وإذا ما غيرت شكل ما كنا نراه عدواً إلى صورة أخوان أحباء، وإذا ما أظهرت لنا الجنائز الميتة المخيفة على صورة عباد خاشعين قانتين ذاكرين الله مسبحين بحمده. وإذا ما حولت تلك الصياحات والنواحات إلى ما يشبه الحمد والثناء والشكر، وإذا ما بدلت تلك الأموات والغضب والنهب إلى ترخيص وتسريح من أعباء الوظيفة، وإذا كنا نشارك الآخرين في سرورهم فضلاً عن سرورنا، عند ذلك يمكنك أن تقدر مدى السرور الذي يعمنا بتلك البشرى العظيمة".[1]

فمما لا شك فيه أن من يعيش حياة خالية ومجردة من الفرح والسرور وتعمها الأحزان والآلام من جميع مناحيها، يسعى جاهداً للخلاص من هذا الجو الكالح والدنيا الكئيبة، ولكن إذا جاء من يبلغه خبراً بقرب زوال وتبدل تلك الأحزان والآلام. وفعلاً تحول كل من فيها وما فيها إلى نقيض ما كان عليه، عندئذ يظهر الفرح والسرور الذي عم الجميع نتيجة لتلك البشارة السارة.

والإيمان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم للجن والإنس هو بشارة غيّرت الجوانب المظلمة والمحزنة للحياة، إلى نور وفرح وسرور. يقول النورسي لكل من لا يصدق بالمعراج وثمراته:

---

(1) الكلمات- النورسي ص 699

" وهكذا فإحدى ثمرات المعراج هي نور الإيمان، فلو خلت الدنيا من هذه الثمرة، أي إذا ما نظر إلى الكائنات بنظر الضلالة، فلا ترى الموجودات إلا غريبة متوحشة مزعجة مضرة، والأجسام الضخمة كالجبال جنائز تثير الدهشة والخوف، والأجل جلاد يضرب أعناق الموجودات ويرميها إلى بئر العدم، وجميع الأصوات والأصداء ما هي إلا صراخ ونعى ناشئان من الفراق والزوال.

فبينما تصور لك الضلالة الموجودات هكذا، إذا بثمرة المعراج التي هي حقائق الإيمان تنور الموجودات كلها وتبينها أنها أحياء متآخية، في تسبيح وذكر لربها الجليل، والموت تسريح من الوظيفة، وراحة منها، وتلك الأصوات تسبيحات وتحميدات".[1]

وجاء في المثل الثاني:

" هب أننا معك في صحراء كبرى، تحيط بنا عواصف رملية من كل جانب، وظلمة الليل تحجب عنا كل شيء حتى لا نكاد نرى أيدينا، والجوع يفتك بنا، والعطش يلهب أفئدتنا، ولا معين لنا ولا ملجأ. تصور هذه الحالة التي نضطرب فيها، وإذا بشخص كريم يمزق حجاب الظلام ثم يأتي إلينا، وفي معيته مركبة خارقة فارهة هدية لنا، فيقلنا بها إلى مكان أشبه بالجنة، كل شيء فيه على ما يرام، كل شيء مهيأٌ ومضمون لنا، يتولانا من هو في منتهى الرحمة والشفقة والرأفة، وقد أعد لنا كل ما نحتاجه من وسائل الأكل والشرب.

أظنك تقدر الآن كم نكون شاكرين لفضل ذلك الشخص الكريم الذي أخذنا من موضع اليأس والقنوط إلى مكان كله أمل وسرور".[2]

---

(1) الكلمات- النورسي ص 699،700

(2) الكلمات- النورسي ص 700

وفسر النورسي جزء من المثل بقوله:

" فتلك الصحراء الكبرى هي هذه الدنيا، وتلك العواصف الرملية هي حركات الذرات وسيول الزمان التي تضطرب بها الموجودات، وهذا الإنسان المسكين كل إنسان قلق ومضطرب يتوجس خيفة مما يخفيه له مقبل أيامه المظلمة المخيفة، هكذا تريه الضلالة، فلا يعرف بمن يستغيث، وهو يتضور جوعاً وعطشاً".[1]

أما من يأتي في عربة تفتن الأنظار بحسنها وجمالها، ممزقاً حجب الظلام، فهو محمد صلى الله عليه وسلم، فيحمل فيها كل من دفع به الضلال إلى هاوية اليأس والقنوط، وانقطع أمله ورجائه في الخلاص، فيحملهم جميعاً إلى جنة أعدت وجهزت بكل الطيبات.

وبما أن الجنة هي ثمرة لما يحبه الله ويرضى عنه، كذلك المعراج. فيقول النورسي في خاتمة شرحه للمثل:

" وهكذا فمعرفة مرضيات الله سبحانه، وهي ثمرة من ثمرات المعراج، تجعل هذه الدنيا مضيفاً لمضيّف جواد كريم، وتجعل الأناسي ضيوفه المكرمين، ومأموريه في الوقت نفسه، وضمن له مستقبلاً زاهياً كالجنة، وممتعاً ولذيذاً كالرحمة، وساطعاً باهراً كالسعادة الأبدية".[2]

(1) الكلمات- النورسي ص 700

(2) الكلمات- النورسي ص 700

عدم الإيمان

يشعر الكافر بعدم إيمانه بآلام الفراق وأوجاع الزوال والوحدة والغربة تحدق به من كل ناحية، وتحيل حياته إلى ظلمة حالكة لا يكاد يرى لها سبباً. ومثل النورسي لهذه الحالة قائلاً:

" كما أن لكل ثمرة من ثمار شجرة علاقة مع كل الثمرات التي على تلك الشجرة، وتكون نوعاً من رابطة الأخوة والصداقة والعلاقات المتينة فيما بينها، فلها إذن وجودات عرضية بعدد تلك الثمرات.

ولكن متى ما قطفت تلك الثمرة من الشجرة فإن فراقاً وزوالاً يحصلان تجاه كل ثمرة من الثمرات، وتصبح الثمرات بالنسبة للمقطوفة في حكم المعدوم، فيعمها الظلام، ظلام عدم خارجي".[1]

فالثمرة الواحدة على الشجرة، وان استقلت بنفسها عن باقي الثمار، إلا أن وجودها على شجرة واحدة تمدها بأسباب الحياة. يجعلها على رابطة قوية وصلة وثيقة بباقي أخواتها، مما يضفي على وجودها نوعاً من الإلفة والانسجام والصداقة، وذلك بحكم وحدة المنشأ والأصل والغاية، ولكنها إذا انفصلت عن الشجرة، وانقطع ما بينها وبين أخواتها، فإن ظلاماً قاتماً ومن نوع غريب يغطي ما بينها وبينهن، ومن داخل تلك الظلمة ينبثق العدم كنتاج طبيعي لآلام الفراق والبعد والغربة.

وهكذا الحال في عدم الإيمان وذلك وكما يقول النورسي:

" فإن كل شيء له الأشياء كلها، من نقطة الانتساب إلى قدرة الأحد الصمد، وإن لم يكن هناك انتساب فإن أنواعاً من العدم الخارجي بعدد

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 374

الأشياء كلها تصيب كل شيء، فانظر من خلال هذا الرمز إلى عظمة أنــوار الإيمــان، وشــاهد الظلمــة المخيفــة المحيطــة بــالوجود فــي الضلال".[1]

فالإيمان إذن يمثل حجر الأساس في بناء العلاقات بين الأشياء جميعها، وفي إطار تلك العلاقات تغدو الأشياء كالشيء الواحد في الوحدة والاتحاد، وبعدم الإيمان تنقطع الروابط ويحل بالضرورة العدم كحكم لازم للفوضى الشاملة وللظلام المحيط بالأشياء.

ثم عقب النورسي على ما مضى وكالدال على الاتجاه الصحيح بقوله:

" فالإيمان إذن هو عنوان الحقيقة السامية التي بُينت في هذا الرمز، ولا يمكن الاستفادة من تلك الحقيقة إلا بالإيمان، إذ كما أن كل شيء معدوم للأعمى والأصم والأبكم والمجنون، كذلك كل شيء معدوم ومظلم بانعدام الإيمان".[2]

فلا معنى للحياة وللإنسان بدون إيمان، والحياة وإن استأهلت صفة الوجود، إلا أنها تستحق الحكم عليها بالعدم، أي اللاوجود، وهو عدم يشبه عدم الأشياء لمن عطلت حواسه الإدراكية، إذ هي غير موجودة بالنسبة إليه من جهة، ولن ينتفع بها من جهة ثانية.

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 374

(2) المكتوبات- النورسي ص 375

الإيمان والكفر

خلص النورسي بعد مقارنة وافية بين حقيقة كل من الإيمان والكفر إلى الآتي:

- إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين، فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة. بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم.

- كما أن الإيمان يربط الإنسان بخالقه، ويربطه بوثاق شديد وبنسبة إليه، فالإيمان إنما هو انتساب به يكتسب الإنسان قيمة سامية، أما الكفر فيقطع تلك النسبة وذلك الانتساب، فتنقص قيمة الإنسان حيث تنحصر في مادته فحسب.

وعلى الرغم من أن الفارق الوحيد بين الإيمان والكفر مردّه إلى تلك الحركة الاختيارية المسماة بالانتساب إلى الله بصفة أخص من صفة المخلوق، وهي صفة، إلا أنه يكمن وراءه أمر غير مفهوم، مهد النورسي في الكشف عنه بالمثال التوضيحي التالي:

" إن قيمة المادة تختلف عن قيمة الصنعة ومدى الإجادة فيما يصنعه الإنسان، فنرى أحياناً القيمتين متساويتين، وقد تكون المادة أكثر قيمة من الصنعة، وقد يحدث أن تحتوى مادة حديد على قيمة فنية جمالية عالية جداً، ويحدث أن تحوز صنعة نادرة نفيسة جداً قيمة ملايين الليرات، رغم كونها من مادة بسيطة جداً.

فإذا عرضت مثل هذه التحفة النادرة في سوق الصناعيين والحرفيين المجيدين، وعرفوا صانعها الباهر الماهر الشهير، فإنها تحوز سعر مليون ليرة. أما إذا أخذت التحفة نفسها إلى سوق

الحدادين مثلاً، فقد لا يتقدم لشرائها أحد، وربما لا ينفق أحد في شرائها شيئاً". [1]

والمعنى أن ثمن الأشياء وقيمتها بتقدير المقومين لها بالدرهم والدينار يتفاوت تفاوتاً عجيباً، لا في ميزان العرض والطلب، وإنما في مدى ما بذل فيها من جهد، وما تحمله من معانٍ غاية في الروعة والجمال، إلى غيرها مما يزيد أو ينقص في قيمتها، ومع هذا وذاك تظل قيمتها الفعلية متوقفة ومرهونة بتقويم المقدرين لقيمتها من ذوي الخبرة والاختصاص.

وهكذا الحال مع الإنسان وهو الصنعة الربانية للخالق والصانع عز وجل، فإن قيمته الحقيقية تقدر وتقوم بما فيه من إيمان، فيقول النورسي:

" فإذا استقر نور الإيمان في هذا الإنسان لبين ذلك النور جميع ما على الإنسان من نقوش حكيمة، بل يستقرئها للآخرين، فيقرأها المؤمن بتفكر، ويشعر بها في نفسه شعوراً كاملاً، ويجعل الآخرين يطالعونها ويتملّونها، أي كأنه يقول: ها أناذا مصنوع الصانع الجليل ومخلوقه، انظروا كيف تتجلى فيّ رحمته وكرمه، وبما يشابهها من المعاني الواسعة بتجلي الصنعة الربانية في الإنسان". [2]

فقيمة الإنسان المعنوية إذن لا تقدر أو تقوّم إلا بالإيمان، لأن بنور الإيمان تظهر فعلاً دقة الصانع ومهارته في التشكيل وتتراءى من خلاله بارزة للعيان، ودالة عليه، وذلك لأن الإيمان وكما يقول النورسي:

---

(1) الكلمات- النورسي ص 348،349

(2) الكلمات- النورسي ص 349

" الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع سبحانه، يقدم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية، ولمعان المرآة الصمدانية، فيتحول هذا الإنسان – الذي لا أهمية له – إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفاً يؤهله للضيافة الربانية في الجنة".[1]

ومقصود النورسي بذلك أن حركة الانتساب الاختيارية تنقل الإنسان إلى منزلة جديدة، وتترقى به إلى مقام رفيع لم يكن له بحكم كونه مخلوقاً، فيقفز دفعة واحدة من عمومية الخلق إلى خصوصية الصلة، حيث تتجلى فيه أسماء الله وصفاته، وبها تتحقق صفة العبودية، وهي أخص من صفة الخلافة والنيابة عن الله.

وعلى النقيض من الإيمان ونوره، الكفر، الذي يقول عنه النورسي:

" أما إذا تسلل الكفر – الذي هو عبارة عن قطع الانتساب إلى الله – في الإنسان، فعندئذ تسقط جميع معاني نقوش الأسماء الحسنى الإلهية الحكيمة في الظلام وتمحى نهائياً، ويتعذر مطالعتها وقراءتها، أما ما تبقى منها مما يتراءى للعين فسوف يعزى إلى الأسباب التافهة وإلى الطبيعة والمصادفة، فتسقط نهائياً وتزول، حيث تتحول كل جوهرة من تلك الجواهر المتلألئة إلى زجاجة سوداء مظلمة وتقتصر أهميتها على المادة الحيوانية وحدها. وغاية المادة وثمرتها هي قضاء حياة قصيرة جزئية يعيشها صاحبها وهو أعجز المخلوقات وأحوجها

---

(1) الكلمات- النورسي ص 349

وأشقاها، ومن ثم يتفسخ في النهاية ويزول، وهكذا يهدم الكفر الماهية الإنسانية ويحيلها من جوهرة نفيسة إلى فحمة خسيسة". [1]

ولا يفهم للكفر معنى عند النورسي أكثر من أن الإنسان اختار بمحض إرادته الحرة ألاّ يقيم صلة أو علاقة بالله تمتاز بصفة الخصوصية، وباختياره هذا لا ينفصم ما بينه وبين الله من علاقة أو صلة، بل يتجرد تماماً من كل قيمة يمكن أن يكتسبها بالإيمان، وربما انحدر إلى منزلة دون منزلة الحيوان بكثير.

الكافر

يصل الكافر بجحوده لله تعالى وإنكاره لأسمائه وصفاته إلى درجة ينعدم فيها الشعور بنفسه، عندها يداهمه خوف شديد وحرص مقيت على مقومات وجوده، أما موته فهو عدم وفراق أبدي لا لقاء بعده بمحبوباته وهو مع هذا كله يعيش حياة تبدو في ظاهرها كما لو كانت هي الحياة الكاملة بكل أفراحها وملذاتها ومباهجها، ولكن في باطنها أكذوبة كبرى تظهره في مظهر المخدوع الغافل، والمثل المطابق لحالته هو وكما يرى النورسي المثل المشهور القائل:

" يحكى أنه قيل للنعامة (إبل الطير) لماذا لا تطيرين، فإنك تملكين الجناح، فقبضت وطوت جناحيها قائلة: أنا لست بطائر بل إبل، فأدخلت رأسها في الرمل تاركة جسدها الضخم للصياد، فاستهدفها. ثم قالوا لها: فاحملي لنا إذن هذا الحمل إن كنت إبلاً كما تدعين، فعندها صفت جناحيها ونشرتهما قائلة: أنا طائر، لتفلت من تعب

(1) الكلمات- النورسي ص 349، 350

الحمـل، فظلـت وحيـدة دون غـذاء ولا حمايـة مـن أحـد، وهـدفاً للصيادين".[1]

فالنعامة في إنكار كونها طائراً لئلا تعامَل معاملة الطيور، وفي عدم اعترافها بكونها حيواناً حتى لا تجبر على حمل ما تحمله الحيوانات، إنما تغش نفسها غشاً مكشوفاً لا ينطلي على أحد، ولا يبعد عنها الصيادين، ولا يجنبها أذاهم، والكافر حاله حال النعامة، فهو كما يقول عنه النورسي:

" حينما يرى الموت والزوال عدماً، يحاول أن ينقذ نفسه من تلك الآلام بالتمسك والتشبث بما أخبر به القرآن الكريم والكتب السماوية جميعها إِخباراً قاطعاً عن الإيمان بالآخرة، والذي ولد عنده احتمالاً للحياة بعد الموت.

وإذا قيل له: فما دام المصير إلى عالم البقاء، فلمَ إذن لا تؤدي الواجبات التي يفرضها عليك هذا الإيمان كي تسعد في ذلك العالم.

يجيب من زاوية كفره المشكوك، ربما ليس هناك عالم آخر، فلمَ إذن أرهق نفسي؟ بمعنى أنه ينقذ نفسه من آلام الإعدام الأبدي من الموت بما وعد القرآن بالحياة الباقية، فعندما تواجهه مشقة التكاليف الدينية يتراجع وبتشبث باحتمالات كفره المشكوك، ويتخلص من تلك التكاليف.

أي أن الكافر – من هذه الزاوية- يظن أنه يتمتع أكثر من المؤمن في حياته الدنيا، لأنه يفلت من عناء التكاليف الدينية باحتمالات كفره، وفي الوقت نفسه لا يدخل تحت قساوة الآلام الأبدية باحتماله الإيماني.

---

(1) اللمعات- النورسي ص 121،122

ولكن هذا في واقع الحال مغالطة شيطانية مؤقتة تافهة بلا فائدة".[1]

والمستفاد مما مضى ذكره أن الكافر كالنعامة، فهو عندما يجابه بحقيقة الموت المرة، والفراق الأبدي، لا يجد مفراً من التسليم بما جاء به الوحي عن اليوم الآخر والحياة الأخرى، وعندما يجابه باعترافه وتصديقه الضمني، ويطلب انطلاقاً منه بالإيمان، يجنح مخادعاً نفسه بالتقليل من فكرة حياة أخرى، والتهوين من شأنها.

وهكذا يظل متأرجحاً بين محاولته الدؤوب لإنقاذ نفسه من العدم، وبين عدم إيمانه الذي يدفعه للنأي بنفسه عن التكاليف الإلهية الصعبة، فلا هو بتصديقه الإيماني نجا من قوة وقع الموت وقسوة الفراق، ولا هو استراح من صعوبة الالتزام بالتكليف الإلهي وحمل نفسه على مشقاته، وذلك بلا شك قصور في الفهم، وعدم تمييز بين الأشياء.

---

(1) اللمعات- النورسي ص 122

الفصل الخامس
العبادة

العبادة والسجود

تعبر مخلوقات الله تعالى على مختلف أجناسها وأنواعها عن محبتها له عز وجل، بنوع من التذلل والخضوع يبلغ في حركته الداخلية غايته ومنتهاه، وأُطلق على ذلك التذلل والخضوع في العقيدة الإسلامية اسم العبادة تارة واسم السجود تارة أخرى.

غير أن عبادة المخلوقات وسجودها لله تعالى يختلف ويتنوع باختلاف وتنوع وظائفها وما خلقت لأجله، ومثل النورسي لذلك التنوع والاختلاف قائلاً:

" إن ملكاً عظيماً وسلطاناً ذا شأن يستخدم أربعة أنواع من العمال في بناء قصر أو مدينة:

النوع الأول: هم عبيده، هذا النوع لا مرتّب لهم ولا أجرة، بل ينالون ذوقاً في منتهى اللطف، ويحصلون على غاية الشوق في كل ما يعملونه ويؤدونه بأمر سيدهم، بل يزدادون متعة وشوقاً من أي كلام في مدح سيدهم ووصفه. فحسبهم الشرف العظيم الذي ينالونه

بانتسابهم إلى سيدهم. فضلاً عن تلذذهم لذة معنوية أثناء إشرافهم على العمل باسم ذلك المالك. وفي سبيله ونظره إليهم. فلا داعي إلى مرتب ولا رتبة ولا أجرة.

النوع الثاني: هم خدام بسطاء لا يعرفون لماذا يعملون، بل ذلك المالك العظيم هو الذي يستخدمهم ويسوقهم إلى العمل بفكره وعلمه، ويعطيهم أجرة جزئية تناسبهم، وهؤلاء الخدام لا يعرفون نوع الغايات الكلية والمصالح العظيمة التي لا تترتب على عملهم، حتى حدا ببعض الناس أن يتوهم أن عمل هؤلاء لا غاية له إلا أجرة جزئية تخصهم بالذات.

النوع الثالث: هم الحيوانات التي يملكها ذلك المالك العظيم ويستخدمها في أعمال بناء القصر والمدينة، ولا يعطيها إلا علفها، فهذه الحيوانات تتمتع بلذة في أثناء قيامها بعمل يوافق استعداداتها، إذ القابلية والاستعداد إن دخلت طور الفعل بعدما كانت في طور القوة الكامنة، تنبسط وتتنفس. فتورث لذة، وما اللذة الموجودة في الغايات الموجودة في الفعاليات كلها إلا نابعة من هذا السر، فأجرة هذا القسم من الخدام ومرتبهم هو العلف مع لذة معنوية، فهم يكتفون بهما.

النوع الرابع: وهم عمال يعرفون ماذا يعملون، ولماذا يعملون ولمن يعملون، فضلاً عن معرفتهم لم يعمل العمال الآخرون، وما الذي يقصده المالك العظيم، ولم يدفع الجميع إلى العمل، فهذا النوع من العمال لهم رئاسة على العمال الآخرين، والإشراف عليهم، ولهم مرتباتهم حسب درجاتهم ورتبهم". [1]

فالنوع الأول من العبيد هم من لا جزاء لهم على عملهم ولا مكافأة عليه. بل هم يجدون في عملهم من المتعة واللذة ما يغنيهم عن

---

(1) الكلمات- النورسي ص 404،403

المثوبة، إذ يكفيهم فخراً انتسابهم لسيدهم والائتمار بأمره والعمل على طاعته.

والنوع الثاني هم من ينقادون للعمل كرهاً وإجباراً، وذلك لأنهم لا يدركون قيمة عملهم ولا يعرفون مقاصده وأهدافه، ومن هنا كان لهم من الأجرة والجزاء نصيباً يلائمهم، وبالقدر المساوي لجهدهم المبذول فيه.

أما **النوع الثالث** فهم الحيوانات التي تساعد في أعمال البناء مساعدة فيها متعة موافقة لاستعدادها الطبيعي في خدمة سيدها. ومن ثم تنال مكافأة مادية هي العلف، ومعنوية هي التلذذ بطاعة سيدها والانقياد لأوامره.

والنوع الرابع والأخير من العمال، فهم على معرفة وعلم ليس فقط بالواجب الملقى على عواتقهم، بل أيضاً مدركين تماماً لماذا خصوا بهذا العمل دون غيره من الأعمال، ومن هو الذي يعملون له، كما أنهم من جهة أخرى على إلمام واسع بأعمال الآخرين في القصر. ومقصود صاحب القصر وغايته من تلك الأعمال التي يسوق إليها الجميع، ونتيجة طبيعية لعلمهم ومعرفتهم تلك تَبَوءُوا مركز القيادة والإشراف على غيرهم، ولهم من الأجر والمكافأة كل على حسب نوعية عمله، ووفقاً لعلمه ومعرفته.

وعلى المنوال السابق بيّن النورسي عبادة كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى، فقال:

" إن مالك السماوات والأرضين ذا الجلال، وباني الدنيا والآخرة، ذا الجلال وهو رب العالمين، يستخدم الملائكة والحيوانات والجمادات والنباتات والإنسان في قصر هذا الكون ضمن دائرة

الأسباب، ويسوقهم إلى العبادة لا لحاجة، فهو الخالق، بل لإظهار العزة والعظمة وشئون الربوبية وأمثالها من الحكم.

وهكذا فقد كلّف هذه الأنواع بأربعة أنماط من العبادة:

القسم الأول: الذين يمثلون العبيد في المثال هم الملائكة فهم لا مراتب لهم في الرقي المجاهدة، إذ لكل منهم مقام ثابت ورتبة معينة، إلا أن لهم ذوقاً خاصاً في عملهم نفسه، وهم يستقبلون الضيوف الربانية – حسب درجاتهم – في عباداتهم نفسها.

بمعنى أن أجرة خدماتهم مندرجة في عين أعمالهم، إذ كما يتلذذ الإنسان من الماء والهواء والضياء والغذاء، كذلك الملائكة يتلذذون ويتغذون ويتنعمون بأنوار الذكر والتسبيح والحمد والعبادة والمعرفة والمحبة، لأنهم مخلوقون من نور، فيكفيهم النور غذاء، بل حتى الروائح الطيبة من النور، هي الأخرى نوع من غذائهم حيث يسرون بها.

القسم الثاني من العمال هم النباتات والجمادات، وهؤلاء العمال لا مرتب لهم ولا مكافأة، لأن لا اختيار لهم، فأعمالهم خالصة لوجه الله، وحاصلة بمحض إرادته سبحانه وباسمه وفي سبيله، وبحوله وقوته، إلا أنه يستشعر من أحوال النباتات أن لها نوعاً من التلذذ في أدائها وظائفها في التلقيح والتوليد وإنماء الثمار، إلا أنها لا تتألم قط بخلاف الحيوانات التي لها الآم ممزوجة باللذائذ حيث إن لها اختياراً، ولأجل عدم الاختيار في أعمال النباتات والجمادات تكون أثارهما أتقن وأكمل من أعمال الحيوانات التي لها اختيار.

القسم الثالث من العمال في قصر الكون، هو الحيوانات، وحيث إن الحيوانات لها نفس مشتهية، واختيار جزئي، فلا تكون أعمالها

خالصة لوجه الله، بل تستخرج النفس حظها وشهوتها من عملها، لذا يمنح مالك الملك ذو الجلال والإكرام أجرة ومرتباً ضمن أعمالها، تطمئن نفوسها وتشبعها.

القسم الرابع هو الإنسان، فالإنسان الذي هو من أنواع الخدم العاملين في هذا القصر، قصر الكون، هذا الإنسان شبيه بالملائكة وشبيه بالحيوان من جهة أخرى، إذ يشبه الملائكة في العبادة الكلية، وشمول الإشراف وإحاطة المعرفة، وكونه داعياً إلى الربوبية الجليلة، بل الإنسان هو أكثر جامعية من الملائكة، لأنه يحمل نفساً شريرة شهوية – بخلاف الملائكة – وأمامه نجدان، له أن يختار، إما رقياً عظيماً، أو تدنياً مريعاً، ووجه شبه الإنسان بالحيوان هو أنه يبحث في أعماله عن حظ لنفسه، وحصة لذاته".[1]

ويفهم مما مضى ذكره أن مخلوقات الله تعالى وإن اشتركت جميعها في صفة العبودية، إلا أن عبادتهم من حيث هي إظهار للخضوع وأداء للتكاليف تقسم إلى نوعين:

أولهما: عبادة تسخير أو بالتسخير، وذلك للحيوانات والجمادات وما في حكمها، فهي تساق جميعها لتؤدي أعمالاً، لا أقول كرهاً، بل قهراً وبلا إرادة، وبدون عوض ولا تعويض.

أما من حيث الجزاء والمكافأة، فإن تدخل عنصر الاختيار البسيط لدى الحيوانات في عبادتها والمتمثل في سعادتها وأفراحها وآلامها وأحزانها هو الذي كفل لها قدراً ضئيلاً ونصيباً محدوداً من التوبة، يشيع الرضا في نفوسها، في حين أن النباتات والجمادات لا اختيار لها على الإطلاق في عبادتها، فهي طوع إرادة الله وتحت مشيئته، وبالتالي

(1) الكلمات- النورسي ص 404،406،407

لا جزاء لها ولا أجرة، وهو الذي جعل أعمالها من حيث دقة الصنعة والأحكام متفوقة ومتقدمة كثيراً على أعمال الحيوانات.

وثانيها: عبادة بالاختيار، وهي لذوي الإرادة والعقل والفهم عن الله، أو بمعنى أدق ذوي العلم، كالملائكة والإنس وما في حكمهم. فللملائكة عبادة محدودة، ومكلفون بأفعال بعينها، ولكن طبيعة النور الذي خلقوا منه تجعلهم في مقام قريب من الله، مما أدى إلى أن يكون داعيهم للفعل أجلّ من أن يكون من أجل الشهوة. واجلّ من أن يكون بمشقة أو غير مشقة، مما جعل جزاءهم ومثوبتهم مساوقة لأعمالهم ومنطوية داخلها وفضلاً من الله.

أما الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذي يشبه الكثير من مخلوقات الله، فهو يشبه الملائكة في سهولة طاعته لله، ويشبه الحيوانات في أنانيتها وحبها لنفسها، ويختلف عن الملائكة في سعة اختياره، المبرأة تماماً عن القهر والإجبار إلى غيرها من الحقائق التي بوأته مكانة الخليفة والنائب عن الله، وتلك مجتمعة جعلت من عبادته كما لو كانت ضرباً من الشكر.

النيّة

سئل النورسي كيف للمؤمن أن يقابل نعم الله عليه بشكره عليها، مع أن الشكر هو أمر توجبه النعم إيجاب مقابلة بين النعم من جهة وإظهارها من جهة أخرى. وهو رغماً عن هذا سيظل في الحدود الدنيا من التعظيم والإجلال للمنعم.

فردّ عليه النورسي رداً مباشراً وسريعاً قائلاً:

- بالنية

ثم أتبع رده عليه بالمثل التالي:

" إن رجلاً يدخل إلى ديوان السلطان بهدية زهيدة متواضعة بقيمة خمسة فلوس، ويشاهد هناك هدايا مرصوصة تقدر أثمانها بالملايين أرسلت إلى السلطان من ذوات مرموقين، فعندها يناجي نفسه: ماذا أعمل. إن هديتي زهيدة، لا شيء، إلا أنه يستدرك ويقول:

- يا سيدي، إنني أقدم لك جميع هذه الهدايا باسمي، فإنك أهل لها، ويا سيدي العظيم لو كان باستطاعتي أن أقدم لك أمثال هذه الهدايا الثمينة لما ترددت.

وهكذا فالسلطان الذي لا حاجة له إلى أحد والذي يقبل هدايا رعاياه رمزاً يشير إلى مدى إخلاصهم وتعظيمهم له، يقبل تلك الهدية المتواضعة جداً من ذلك الرجل المسكين، كأعظم هدية، وذلك بسبب تلك النية الخالصة منه، والرغبة الصادقة، واليقين الجازم السامي".[1]

ولا شك أن الرجل العامي البسيط حين يقارن بين هديته التي لا تكاد في قيمتها في المادية تساوي شيئاً، وبين الهدايا الكثيرة التي لا تقدر بثمن، ومن أناس لهم حظوة ومكانة رفيعة عند السلطان، يحتقر هديته ويزدريها، ولكنه سرعان ما عوض شعوره بالنقص، فسعى إلى نوال رضا السلطان بأن بادر نيابة عن الآخرين وباسمه هو شخصياً بتقديم كل ما أهدي إليه. وبهذه النية المجردة من كل شيء إلا رضا السلطان، تقبلها منه راضياً عنه.

وهكذا وكما يرى النورسي، فإن العبد الذي يقول عند التشهد (التحيات لله) ينوي بها قوله:

---

(1) الكلمات- النورسي ص 415

" إنني أرفع إليك يا إلهي باسمي هدايا العبودية لجميع المخلوقات – التي هي حياتها – فلو كنت أستطيع أن أقدم التحيات إليك يا ربي بعددهم لما أحجمت ولا ترددت، فإنك أهل لذاك، بل أكثر".[1]

فسلام العبد لربه، وإن كان سلاماً فردياً، إلا أنه يوجهه باسمه ونيابة عن جميع العباد والمخلوقات لله تعالى، ولو كان يملك من الأهلية والاستعداد ما يقدمه عن كل واحد منهم، فرداً فرداً لما امتنع ولا قصر.

ثم علق النورسي على مقولة ذلك العبد بقوله:

" فهذه النية الصادقة، هي الشكر الكلي الواسع".[2]

فإذا كانت نية العبد هي على الدوام قصداً وتوجهاً لله، وانبعاثاً قلبياً لكل ما يحبه ويرضاه، فهي في كل الحالات عبادة لا تختلف عن سائر العبادات الحركية والفعلية في شيء. والعبادة كما عرفنا هي ضرب من ضروب الشكر. فهو على هذا حركة تعبدية خالصة زائدة عن رضا العبد، وتأتي مساوقة لقواعد الإيمان، وفيها التعبير المباشر عن حب العبد وتعظيمه لربه.

والله تعالى وكما يرى النورسي ينزل النية منزلة الحدث، ويعاملها معاملة الحدث في الرضا والقبول، فيقول عنها.

" وحيث إن الله تعالى يعلم ما يحدث وكيف يحدث، فإنه يقبل النية الصادقة كأنها عبادة فعلية، أي كأنها حدثت، ومن هنا نعلم كيف أن نية المؤمن خير من عمله".[3]

---

(1) الكلمات- النورسي ص 415

(2) الكلمات- النورسي ص 415

(3) الكلمات- النورسي ص 415

الدعاء

استفاض النورسي في حديث له عن الدعاء، فتوقع أن يسأله مستمعيه:

- إننا كثيراً ما ندعو الله فلا يستجاب لنا، رغم أن كثيراً من الآيات تصرح بأن كل دعاء مستجاب.

وكان ردّه المنتظر عليهم هو:

" إن استجابة الدعاء شيء وقبوله شيء آخر، فكل دعاء مستجاب إلاّ أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه منوط بحكمة الله سبحانه".[1]

ثم مثل لمقولته السابقة قائلاً:

" يستصرخ طفل عليل الطبيب قائلاً:

- أيها الطبيب انظر واكشف عني.

فيقول الطبيب:

- أمرك يا صغير.

فيقول الطفل:

- أعطني هذا الدواء.

فالطبيب حينذاك إما أن يعطيه الدواء نفسه، أو يعطيه دواء أكثر نفعاً وأفضل منه، أو يمنع عنه العلاج نهائياً، وذلك حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة".[2]

إن الطفل وكما هو واضح يطلب الدواء الذي يظن أو يعتقد أو يرى أن فيه شفاءه، دون مراعاة لاعتبارات كثيرة لم يضعها في حسابه،

---

(1) الكلمات- النورسي ص 356

(2) الكلمات- النورسي ص 356

ولكن تقدير الطبيب ومنحه الدواء مبني على ما فيه علاجه وصلاح بدنه.

وكذلك الحال في دعاء العبد لربه، فهو كما يقول النورسي:

" إما أنه يقبل مطلب العبد ويستجيب له مباشرة بعد الدعاء نفسه، أو يمنحه أفضل منه، أو يرده، وذلك حسب اقتضاء الحكمة الربانية، لا حسب أهواء العبد المتحكمة وأمانيه الفاسدة".[1]

ومقصوده أن دعاء العبد مقبول عند الله في كل الحالات، ولكن الاستجابة له وقضاء حوائجه فمن مقتضيات الحكمة الإلهية، وموجبات المشيئة المطلقة المسيرة لشؤون العباد، وفقاً لتقدير خاص محجوب في مقاصده القريبة والبعيدة عن مداركهم، ومستور عن إفهامهم.

الصلاة

إن أهمية الصلاة من الأمور التي لا تخفى على أحد، وقيمتها الكبيرة والعظيمة لا يجادل فيها أحد، إلا أن النورسي أراد ومن خلال مثال بسيط الوصول بتلك المعرفة إلى حد اليقين، فقال:

" يرسل حاكم عظيم - ذات يوم – اثنين من خدمه إلى مزرعته الجميلة، بعد أن يمنح كل منهما أربعاً وعشرين ليرة ذهبية، ليتمكنا بها من الوصول إلى المزرعة التي هي على بعد شهرين، ويأمرهما:

- انفقا من هذا المبلغ لمصاريف التذاكر ومتطلبات السفر، واقتنيا ما يلزمكما هناك من لوازم السكن والإقامة، هناك محطة للمسافرين،

---

(1) الكلمات- النورسي ص 356

على بعد يوم واحد، توجد فيها جميع أنواع وسائط النقل من سيارة وطائرة وسفينة وقطار، ولكل ثمنه.

يخرج الخادمان بعد تسلمهما الأوامر، كان أحدهما سعيداً محظوظاً، إذ صرف شيئاً يسيراً مما لديه لحين وصوله المحطة، صرفه في تجارة رابحة يرضى بها سيده، فارتفع رأسماله من الواحد إلى الألف، أما الخادم الآخر فلسوء حظه وسفاهته صرف ثلاثاً وعشرين مما عنده من الليرات الذهبية في اللّهو والقمار، فأضاعها كلها إلا ليرة واحدة منها لحين بلوغه المحطة.

خاطبه صاحبه.

- يا هذا، اشتر بهذه الليرة الباقية لديك تذكرة سفر، فلا تضيعها كذلك، فسيدنا كريم رحيم، لعله يشملك برحمته، وينالك عفوه عما بدر منك من تقصير، فيسمحوا لك بركوب الطائرة، ونبلغ معاً محل إقامتنا في يوم واحد، فإن لم تفعل ما أقوله لك فستضطر إلى مواصلة السير شهرين كاملين في هذه المفازة مشياً على الأقدام، والجوع يفتك بك، والغربة تخيم عليك وأنت وحيد شارد في هذه السفرة الطويلة". [1]

إن محور الحكاية يدور حول حاكم ائْتَمَنَ اثنين من خدمه على أداء مهمة محددة، ومنح كلاً منهما عدداً محسوباً من النقود، لتعينه وتساعده على إنجاز ما أُؤتُمِنَ عليه، وتعفيه من ذل التسول، وتغنيه عن السؤال.

وكان أحد هذين الخادمين عاقلاً ومتزن النفس، فانفق القدر اليسير من النقود قبل وصوله إلى نقطة الانطلاق، واستثمر الباقي في أعمال

---

(1) الكلمات- النورسي ص 15،16

عادت عليه بأضعاف أضعاف المبلغ المعهود به إليه، أما الخادم الآخر فكان ناقص العقل خفيف النفس، فأنفق ما معه فيما لا ينبغي من وجوه التبذير، وبقيت له قطعة نقدية واحدة لدى وصوله إلى محطة الانطلاق.

ولما علم رفيقه بسوء فعلته نصحه بشراء تذكرة سفر، لعل من بيده الأمر يشفق عليه ويتيح له الفرصة لبلوغ مقصده، كما حذره في الوقت نفسه من أنه في حالة تعذر حصوله على التذكرة، فإن عليه مواجهة الكثير من الصعوبات في طريق طويل وهو وحيد لا رفيق له، والأخطار تحدق به من كل ناحية.

عندئذ تساءل النورسي:

" ترى لو عاند هذا الشخص، فصرف حتى تلك الليرة الباقية في سبيل شهوة عابرة، وقضاء لذة زائلة، بدلاً من اقتناء تذكرة سفر هي بمثابة مفتاح كنز له، ألا يعني ذلك أنه شقي خاسر، وأبله بليد حقاً، ألا يدرك هذا أغبى إنسان". [1]

يعني أن من يرمى بطوق النجاة الوحيد الممتد إليه هو بلا أدنى شك تعس وهالك لا محالة، وأحمق ضعيف العقل، ومحروم من الذكاء، والفهم، وحقيقة مَنْ هذا حاله تتمثل ظاهرة للعيان حتى عند أقل الناس فطنة وأبعدهم عن العلم والمعرفة.

ثم أوضح النورسي عناصر المثل بقوله:

" إن ذلك الحاكم هو ربنا وخالقنا جل وعلا، أما ذلكما الخادمان المسافران، فأحدهما هو المتدين الذي يقيم الصلاة بشوق ويؤديها حق الأداء، والآخر هو الغافل عن التارك الصلاة، وأما تلك الليرات الذهبية

---

(1) الكلمات- النورسي ص 16

(الأربعة والعشرون) فهي الأربع والعشرون ساعة من كل يوم من أيام العمر، وأما ذلك البستان (المزرعة) فهو الجنة، وأما تلك المحطة فهي القبر.

وأما تلك السياحة والسفر الطويل في رحلة البشر نحو القبر والماضية إلى الحشر والمنطلقة إلى دار الخلود، فالسالكون لهذا الطريق الطويل يقطعونه على درجات متفاوتة، كل حسب عمله ومدى تقواه. فقسم من المتقين يقطعون في يوم واحد مسافة ألف سنة كأنهم البرق، وقسم منهم يقطعون في يوم واحد مسافة خمسين ألف سنة كأنهم الخيال، وقد أشار القرآن العظيم إلى هذه الحقيقة في آيتين كريمتين.

وأما التذكرة فهي الصلاة التي لا تستغرق خمس صلوات مع وضوئها أكثر من ساعة". [1]

مقصود النورسي من المثل بعناصره المختلفة يدور حول الصلاة، ويسعى للإعلان عن قيمتها وأهميتها بوصفها أجل العبادات وأيسرها أداء، وأقلها كلفة في الوقت والجهد، ومن لا يصلى لا يعد في نظره متجاوزاً لحد الشرع، ولا ينزل منزلة العاصي الفاسق فقط، بل هو في الواقع فاسد العقل، ضعيف الرأي ويحشر في زمرة من لا فطنة له ولا ذكاء.

ولأجل هذا ختم النورسي تفسيره مذكراً بأنه لا فرق بين مَنْ لا يصلى، وبين من هو مجرد عن الفهم والبصيرة، قائلاً:

" لئن كان دفع نصف ما يملكه المرء ثمناً لقمار اليانصيب - الذي يشترك فيه أكثر من ألف شخص - يعد أمراً معقولاً، مع أن احتمال

---

(1) الكلمات- النورسي ص 16،17

الفوز واحد من ألف، فكيف بالذي يحجم عن بذل واحد من أربعة وعشرين مما يملكه في سبيل ربح مضمون، ولأجل نيل خزينة أبدية، باحتمال تسع وتسعين من مائة، ألا يعد هذا العمل خلافاً للعقل ومجانباً للحكمة، ألا يدرك ذلك كله من يعد نفسه عاقلاً". [1]

وفي مثل آخر مطابق للمثل السابق، ومشابه له، ولا يختلف عنه في شيء، سعى النورسي لتصوير أهمية الصلاة وفضلها، ليس فقط كعبادة على رأس العبادات، بل كالثوب المفصل على مقياس العبد، وكوظيفة موافقة له، وملائمة لطبيعته، ومنسجمة مع فطرته وما جبل عليه، فروى قائلاً:

" كان في الحرب العالمية، وفي أحد الأفواج، جنديان اثنان:

أحدهما مدرب على مهمته مجد في واجبه، والآخر جاهل بوظيفته متبع هواه، كان المتقن واجبه يهتم الاهتمام كله بأوامر التدريب وشؤون الجهاد، ولم يكن ليفكر قط بلوازم معاشه وأرزاقه، حيث إنه أدرك يقيناً أن إعاشته ورعاية شؤونه وتزويده بالعتاد، بل حتى مداواته إذا تمرض بل حتى اللقمة – إذا احتاج الأمر – في فمه إنما هو واجب الدولة، وأما واجبه الأساس فهو التدريب على أمور الجهاد ليس إلا، مع علمه أن هذا لا يمنع من أن يقوم بشؤون التجهيز وبعض أعمال الإعاشة كالطهي وغسل المواعين، وحتى في هذه الأثناء لو سئل ماذا تفعل؟ لقال إنما أقوم ببعض واجبات الدولة تطوعاً، ولا يجيب: إنني أسعى لأجل كسب لوازم العيش.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 17

أما الجندي الآخر الجاهل بواجباته فلم يكن يبالي بالتدريب ولا يهتم بالحرب، فكان يقول: ذلك من واجب الدولة، ومالي أنا؟ فيشغل نفسه بأمور معيشته ويلهث وراء الاستزادة منها حتى كان يدع الفوج ليزاول البيع والشراء في الأسواق.

فقال له صديقه المجد ذات يوم:

- يا أخي إن مهمتك الأصلية هي التدرب والاستعداد للحرب، وقد جيء بك إلى هنا من أجل ذلك، فاعتمد على السلطان واطمئن إليه في أمر معاشك. فلن يدعك جائعاً. فذلك واجبه ووظيفته، ثم إنك عاجز وفقير لن تستطيع أن تدبر أمور معيشتك بنفسك، وفوق هذا فنحن في زمن جهاد وفي ساحة حرب عالمية كبرى، أخشى أنهم يعدونك عاصياً لأوامرهم فينزلون بك عقوبة صارمة".[1]

وما رواه النورسي يعد من بديهيات العمل في الجيوش، فكل جندي قد حدد له وبدقة مهامه ودوره سواء في أوقات السلم أو في الحرب، وأُمر وعلى نحو قاطع ألا يشغل نفسه بأي عمل آخر ولو كان جزئياً يخل بوظيفته، أما احتياجاته وضروريات حياته، وكل ما يساعده على إنجاز المهام الموكلة إليه والمطلوبة منه فقد وفرتها له الدولة التي يحمل اسمها ويقاتل في سبيلها.

فهناك إذن وظيفتان في المثل بينهما النورسي في قوله:

" نعم إن وظيفتين اثنتين تبدوان أمامنا.

إحداهما: وظيفة السلطان، وهي قيامه بإعاشتنا، ونحن قد نستخدم مجاناً في إنجاز تلك الوظيفة.

---

(1) الكلمات- النورسي ص 18،19

وأخراهما: هي وظيفتنا نحن، وهي التدريب والاستعداد للحرب، والسلطان يقدم لنا مساعدات وتسهيلات لازمة".[1]

أما عند تفسيره للمثل فقد ركز النورسي على الرزق بوصفه الشاغل الأكبر عن الصلاة، والصارف للعبد عنها، جاء فيه.

" إن تلك الساحة التي تمور موراً بالحرب هي هذه الحياة الدنيا المائجة، وأما ذلك الجيش المقسم إلى الأفواج فهو الأجيال البشرية، وأما ذلك الفوج نفسه، فهو المجتمع المسلم، وأما الجنديان الاثنان، فأحدهما هو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب للكبائر، وهو ذلك المسلم السعيد الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب.

أما الآخر فهو الفاسق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد اتهام الرازق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل الحصول على لقمة أن تفوته الفرائض وتتعرض له المعاصي.

وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق ومقاومته شياطين الإنس والجن، وإنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك والخسران المبين.

وأما تلك الوظيفتان الاثنتان، فإحداهما منح الحياة ورعايتها، والأخرى عبادة واهب الحياة ومربيها والسؤال منه، والتوكل عليه والاطمئنان إليه". [2]

إن عناصر التفسير تنصب على قضية واحدة تشغل بال الجميع، وتقف وراء معظم فروقات العباد للمنهج الرباني، وهي هم الرزق،

---

(1) الكلمات- النورسي ص 19
(2) الكلمات- النورسي ص 19

وتدبير حاجات الحياة اليومية، وقد تصرف في أحيان كثيرة حتى عن الصلاة، وبطريقة توحي بالشك والارتياب في قدرة الله على توفير أسباب الحياة وقوامها، وهو ما نبه إليه النورسي بقوله:

" فالذي يترك صلاته لأجل هموم العيش مثله كمثل ذلك الجندي الذي يترك تدريبه وخندقه ويتسول متسكعاً في الأسواق، بينما الذي يقيم الصلاة دون أن ينسى نصيبه من الرزق يبحث عنه في مطبخ رحمة الرزاق الكريم لئلا يكون عالة على الآخرين فجميل عمله، بل هو رجولة وشهامة ضرب من العبادة".[1]

فمن يقلق ويحزن على رزقه وقوته إلى درجة تتشوش فيها نفسه، ويترك لشدة وقعها عليه الصلاة، يشبه جندياً انصرف عن عمله متسولاً رزقه في اكثر أماكن الحياة ضجة وصخباً، في حين أن من لا يغفل عن الصلاة يشبه الجندي المرابط في ميدان الجهاد، وهو على ثقة ويقين أن الله هو كافله وضامن رزقه، فلا يتعب نفسه في البحث عنه، وينصرف بكليته إلى واجبه.

الصارف عن الصلاة

يزعم البعض من قصيري النظر، ومن ذوي الهمم الضعيفة، أن ما يردهم عن الصلاة ويبعدهم عنها ويجعلهم كالمقصرين فيها، ليس أمور الحياة التافهة، بل ما تفرضه عليهم ضروريات كسب العيش ومطالبه الكثيرة. فمثّل لحالتهم تلك بقوله:

" إن كانت الأجرة اليومية لشخص مائة قرش، وقال أحدهم تعال

---

(1) الكلمات- النورسي ص 20

واحفر لعشر دقائق في هذا المكان، فإنك ستجد حجراً كريماً كالزمرد قيمته مائة ليرة، كم يكون عذراً تافهاً بل جنوناً إن رفض ذلك بقوله: لا لا أعمل، لان أجرتي اليومية ستنقص". [1]

فالمفروض على ذلك العامل من عمل لا يستغرق سوى فترة قصيرة من الزمن يحصل بها على كنز تزيد قيمته كثيراً عن أجرته اليومية المعتادة، فإن رفض العرض ولم يقبل به متحججاً بأسباب واهية، فمن غير شك أن امتناعه هذا يضعه في منزلة المعتوهين.

" إن جميع ثمار سعيك وعملك في هذا البستان ستنحصر في نفقة دنيوية تافهة، دون أن تجنى فائدتها وبركتها، بينما لو صرفت وقت راحتك بين فترات العمل في أداء الصلاة، لتحصلت على راحة الروح وتنفس القلب إضافة إلى نفقتك الأخروية، وزادت أخرتك مع نفقتك الدنيوية المباركة". [2]

يعني أن نتائج تعبه وشقاءه في هذه الدنيا لأجل الدنيا يستهلك في الدنيا ويزول بزوالها جانبها المعنوي والروحي، أما إذا استنفد طاقاته في الصلاة، فسيحظى بثمرات روحية وقلبية يضاف إليها خيرات الدنيا والآخرة.

الحمد لله

إن الحمد والمدح والشكر والثناء كلها أفعال تنبئ عن تعظيم الله المنعم على عباده بنعم تفيض منه وحده، ونعمه تعالى ليست إلا ثمرة

---

(1) الكلمات- النورسي ص 301

(2) الكلمات- النورسي ص 301

من الثمار الطيبة لرحمته تعالى عليهم، ومن هنا فإن فرحتهم بها تتجاوز بكثير لذتها المادية قصيرة الأجل، ومثل لها النورسي بقوله:

" إن ملكاً عظيماً وسلطاناً ذا شأن، إذا أرسل إليك هدية ولتكن تفاحة مثلاً. فإن هذه الهدية تنطوي على لذة تفوق لذة التفاح المادية بأضعاف أضعاف، تلك هي لذة الالتفات الملكي. والتوجه السلطاني المكلل بالتخصيص والإحسان".[1]

إن هدية الملك العظيم على ضآلة حجمها وصغر شأنها، قد حملت لذلك الإنسان البسيط من معاني المودة والرحمة والإكرام والاحترام ما جعلته يفرح فرحاً لا يقارن بفرحته المادية الزائلة عند أكلها، وتبقى هذه المعاني حية في قلبه مدى الحياة.

وكذلك الحال في حمد العباد وشكرهم لربهم على نعمه عليهم، فإنها وكما يعقب النورسي على المثل:

" تفتح أمامك باباً واسعاً تتدفق منه لذة معنوية خالصة هي ألذ من تلك النعم نفسها بألف ضعف وضعف، وذلك بالحمد والشكر، أي بالشعور بالإنعام عن طريق النعمة، أي بمعرفة المنعم بالتفكر في الإنعام نفسه، أي بالتفكر والتبصر في التفات رحمته سبحانه وتوجهه إليك وشفقته عليك ودوام إنعامه عليك"[2]

وعلى هذا فإن العبد عندما يقول من صميم قلبه (الحمد لله) تعظيماً لله واعترافاً له على ما أسدى إليه من نعم، فإنه يحس من مجرد تلفظه بها إحساساً عميقاً بقوة توجه الله تعالى إليه بالإحسان والإكرام، ويقر

---

(1) المكتوبات- النورسي ص 292

(2) المكتوبات- النورسي ص 292،293

معترفاً بعطاياه تعالى له، عندئذ يجتاحه من الفرح والسرور القلبي والنفسي ما يفوق بمراحل كثيرة أفراح ومسرات النعمة نفسها.

التوكل

يذهب النورسي إلى أن مثل التوكل على الله وغير المتوكل:

" كمثل رجلين قاما بحمل أعباء ثقيلة حملت على رأسهما وعاتقهما فقطعا التذاكر وصعدا سفينة عظيمة، فوضع أحدهما ما على كاهله حال دخل السفينة وجلس عليه يرقبه، أما الآخر فلم يفعل مثله لحماقته وغروره، فقيل له:

- ضع عنك حملك الثقيل لترتاح من عنائك.

فقال:

- كلا إني لست فاعلاً ذاك مخافة الضياع، فإن على قوة ولا أعبأ بحملي وسأحتفظ بما املكه فوق رأسي وعلى ظهري.

فقيل له ثانية:

- ولكن أيها الأخ إن هذه السفينة السلطانية الأمينة التي تأوينا وتجري بنا هي أقوى واصلب عوداً منا جميعاً، وبإمكانها الحفاظ علينا وعلى أمتعتنا أكثر من أنفسنا، فربما يغمى عليك فتهوى بنفسك وأمتعتك في البحر، فضلاً عن إنك تفقد قوتك رويداً رويداً، فكاهلك الهزيل هذا، وهامتك الخرقاء هذه لن يسعهما بعد حمل هذه الأعباء التي تتزايد، وإذا رآك ربان السفينة على هذه الحالة فسيظنك مصاباً بمس من الجنون، وفاقداً للوعي، فيطردك ويقذف بك خارجاً، أو يأمر بإلقاء القبض عليك ويودعك السجن، قائلاً:

- إن هذا خائن يتهم سفينتنا ويستهزئ بنا.

وستصبح أضحوكة الناس، لأنك بإظهارك التكبر الذي يخفى ضعفاً وبغرورك الذي يحمل عجزاً، وبتصنعك الذي يبطن رياء وذلة، قد جعلت من نفسك أضحوكة ومهزلة، ألا ترى أن الكل باتوا يضحكون منك ويستصغرونك.

وبعد ما سمع كل هذا الكلام عاد ذلك المسكين إلى صوابه فوضع حمله على أرض السفينة وجلس عليه وقال:

- الحمد لله، ليرض الله عنك كل الرضا، فلقد أنقذتني من التعب والهوان ومن السجن والسخرية".[1]

فالرجل الأول بمجرد جلوسه على السفينة تخلص مما كان يثقل كاهله من أحمال. فوضعها جانباً. في حين أن الثاني وخشية منه على فقدانها من جهة، واستناداً على تمتعه بطاقة هائلة على الحمل، أبقاها على ظهره.

وأشفق عليه كل مَنْ رآه، ورثوا لحالته الباعثة على السخرية والاستهزاء، والدالة على نقيض ما حاول أن يظهر به، ثم لفتوا نظره إلى ثلاثة أمور فاتت عليه:

أولها: أن القوة التي يعتمد عليها قابلة للنفاد تدريجياً مع مضى الزمن، وضغط الحمولة الزائدة عليه

وثانيها: مقدرة السفينة على المحافظة على من فيها من الركاب وأمتعتهم.

وثالثها: ربما فسر قائد السفينة تصرفه هذا على أنه ضرب من الجنون لا يصح ترك صاحبه طليقاً بين الركاب، فيأمر بإبعاده أو حبسه.

(1) الكلمات- النورسي ص 353

وعلى أي حال فإن الرجلين – وكما بدأنا الكلام – يمثل أحدهما العبد المؤمن المتوكل على الله، ويمثل الثاني المؤمن غير المتوكل، والسفينة هي الحياة الدنيا، فالمتوكل يظهر دوماً في الدنيا عجزه وافتقاره واعتماده المطلق على الله، كما أنه يسلم أموره كلها لله، أما غير المتوكل فهو من يعتمد على نفسه ويعول في حركته على قواه الذاتية. مما يجعله قليل الثقة فيما عند الله. فلا يرجو منه ولا يأمل فيه خيراً.

يقول النورسي في مقارنته بينهما.

"فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من ضيق الحوادث، مستنداً إلى قوة إيمانه فيبحر متفرجاً على سفينة الحياة من خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام.

قائلاً: توكلت على الله، ويسلم أعباءه الثقيلة أمانة إلى يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثم يستطيع أن يرتفع طائراً إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى اسفل سافلين".[1]

ومن المقارنة بين الاثنين مع اشتراكهما في الإيمان، يتضح أن المؤمن المتوكل يشعر على الدوام لخفة حمله وأعبائه بالأمان والاطمئنان والسكينة والراحة النفسية، في حين أن حياة غير المتوكل

---

(1) الكلمات- النورسي ص 352

تنطوي على مشاكل عديدة، ويعيش في ظل هموم لا حصر لها، وقد ينتهي به الحال إلى التردي إلى هاوية سحيقة لا قرار لها.

صبر النفس على العبادة

إن تعب العبادات والجهد الشاق المبذول في أدائها، ثم التفكير الدائم في عبادات الأيام القادمة، وما فيه هو الآخر من الآلام، قد يدفع بالنفس إلى إظهار حالات متعددة من التذمر، أكثرها شيوعاً بين المؤمنين، قلة الصبر تارة، ونفاده تارة أخرى. ومثل النورسي للنفس في عدم صبرها بـ:

" القائد الأحمق الذي وجه قوة عظيمة من جيشه إلى الجناح الأيمن للعدو. في الوقت الذي التحق ذلك الجناح من صفوف العدو إلى صفه فأصبح له ظهيراً، ووجه قوته الباقية إلى الجناح الأيسر للعدو في الوقت الذي لم يكن هناك أحد من الجنود، فأدرك العدو نقطة ضعفه فسدد هجومه إلى القلب فدمره هو وجيشه تدميراً كاملاً". [1]

فقلة عقل القائد وفساد تدبيره تتجلى بوضوح في سوء إدارته للجيش التي أخلّت بميزان القوة في المعركة، إذ دفع بقوته الضاربة إلى موقع ليس فيه خطر عليه فحسب، بل إن جنود ذلك الجناح انقلبوا معينين له وناصرين. ثم دفع بقوته الوحيدة إلى موضع لا جنود فيه ليحاربهم، فكشف بهذا التخبط عن مركز الضعف فيه. فوجه إليه عدوه ضربات في القلب دمرت جيشه ومزقته، وألحقت به هزيمة ساحقة.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 299

والنفس التي لا صبر لها على مشقة العبادات تشبه ذلك القائد. وعلل النورسي عدم صبرها بقوله:

" لأن صعوبات الأيام الماضية وأتعابها قد ولت، فذهبت آلامها وظلت لذتها وانقلبت مشقتها ثواباً، لذا لا تولد مللاً بل شوقاً جديداً وذوقاً ندياً وسعياً جاداً للمضي والإقدام، أما الأيام المقبلة فلأنها لم تأت بعد، فإن صرف التفكير فيها من الآن نوع من الحماقات والبله، إذ يشبه ذلك البكاء والصراخ من الآن، لما قد يحتمل أن يكون عليه من العطش والجوع في المستقبل".[1]

فما مضى حاملاً معه تبعه، وولت آلامه إلى غير رجعة، تاركة وراءها رغبة صادقة وإرادة قوية للمزيد من التعبد، أما المستقبل فإن مجرد التفكير فيه دال على قلة العقل وفساده، ويشبه العويل والصراخ في هذه اللحظة على ما ينتظر وقوعه من جوع وعطش في المستقبل.

وأخيراً ختم النورسي حديثه مرشداً النفس لما فيه صلاحها، قائلاً:

" فما دام الأمر هكذا، فإن كان لك شيء من العقل، ففكري من حيث العبادة في هذا اليوم بالذات، قولي: سأصرف ساعة منه في واجب مهم لذيذ جميل، وفي خدمة سامية رفيعة ذات أجر عظيم وكلفة ضئيلة، وعندها تشعرين أن فتورك المؤلم قد تحول إلى همة حلوة ونشاط لذيذ".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 299
(2) الكلمات – النورسي ص 299

الطاعة والمعصية

اشترط النورسي أنه يحسن للعابدين في عبادتهم لله تعالى أن ينظروا إليها من زاوية المكسب والخسارة، وذلك لأن في الطاعة أرباحاً عظيمة وبركة في العمر وزيادة في الرزق، وفي المعصية خسارة فادحة ونقصان في الأجل وضيق من الرزق وضياع للجهد، ومثّل لهما بقوله:

" تسلم جنديان اثنان ذات يوم أمراً بالذهاب إلى مدينة بعيدة، فسافرا معاً، إلى أن وصلا مفترق طريقين، فوجدا هناك رجلاً يقول لهما:

- أن هذا الطريق الأيمن، مع عدم وجود الضرر فيه، يجد المسافرون الذين يسلكونه الراحة والاطمئنان والربح مضموناً بنسبة تسعة من عشرة. أما الطريق الأيسر فمع كونه عديم النفع يتضرر تسعة من عشرة من عابريه علماً أن كليهما في الطول سواء. مع فرق واحد فقط، هو أن المسافر المتجه نحو الطريق الأيسر غير المرتبط بنظام وحكومة، يمضي بلا حقيبة متاع ولا سلاح. فيجد في نفسه خفة ظاهرة وراحة موهومة، غير أن المسافر المتجه نحو الطريق الأيمن المنتظم تحت شرف الجندية، مضطر لحمل حقيبة كاملة من مستخلصات غذائية تزن أربع أوقيات وسلاحاً حكومياً يزن أوقيتين يستطيع أن يغلب به كل عدو".[1]

فالجنديان تلقيا أمراً واحداً لأداء عمل واحد وهو التوجه إلى موضع بعينه، ولما بلغا مكاناً تتشعب فيه الطرق، لقيا رجلاً صالحاً

---

(1) الكلمات – النورسي ص 12

كشف لهما أن الطريق الأيمن لا يجد فيه السالك أذى ولا مكروهاً، ومن ثم فراحته مضمونة ومكاسبه متحققة، أما الطريق الأيسر فمع كونه عديم الفائدة، لا يسلم سالكه من مكدرات السفر كالضيق والعنت وغيرها من الآلام.

غير أن الفارق الجوهري بين الطريقين ينحصر في أن من يختار الطريق الأيمن عليه أن ينتسب إلى جهة ما، فيحمل اسمها، ليمنح بذلك الانتساب صفة أخص يعرف بانتمائه إليها. ومن ثم يكلف إلزاماً ووجوباً بتكاليف محددة صعبة وشاقة في حملها.

أما من يختار الطريق الأيسر فهو على العكس من الأول لا ينتمي إلى جهة بعينها، ولا يحمل اسماً أو صفة تميزه عن غيره، فلا يكلّف ولا يلزم بشيء محدد يبذل فيه جانباً كبيراً من جهده وطاقته، ومن ثم لا يعاني عسراً في اليسر ولا تعباً في النفس

ثم انتقل النورسي بعد نصح الرجل وإعلامه للجنديين بطبيعة الطريقين إلى رواية ما حدث لكل واحد منهما، فقال:

" وبعد سماع هذين الجنديين كلام ذلك الرجل الدليل، سلك المحظوظ السعيد الطريق الأيمن، ومضى في دربه حاملاً على ظهره وكتفه رطلاً من الأثقال، إلا أن قلبه وروحه قد تخلصا من آلاف الأرطال من ثقل المنة والخوف.

بينما الرجل الشقي المنكود الذي آثر ترك الجندية ولم يرد الانتظام والالتزام، سلك سبيل الشمال، فمع أن جسمه قد تخلص من ثقل رطل فقد ظل قلبه يرزح تحت آلاف الأرطال من المن والأذى، وانسحقت روحه تحت مخاوف لا يحصرها الحد، فمضى في سبيله

مستجدياً كل شخص وجلاً مرتعشاً من كل شيء، خائفاً من كل حادثة، إلى أن بلغ المحل المقصود فلاقى هناك جزاء فراره وعصيانه.

أما المسافر المتوجه نحو الطريق الأيمن – ذلك المحب لنظام الجندية والمحافظ على حقيبته وسلاحه – فقد سار منطلقاً مرتاح القلب مطمئن الوجدان من دون أن يلتفت إلى منة أحد أو يطمع فيها أو يخاف من أحد، إلى أن بلغ المدينة المقصودة وهناك وجد ثوابه اللائق به كأي جندي شريف أنجز مهمته بالحسنى". [1]

ومفاد الرواية أن التكاليف التي آثر الجندي سالك الطريق الأيمن حملها، تبدو في ظاهرها ثقيلة على النفس ومتعبة للجسم، ولكن فيها خلاصه ونجاته وتحرره من مخاوف الطريق ومفاجئاته غير المتوقعة، في حين أن من يرفض تحمل تبعاتها جرد فوراً من صفة الجندية واسم الجندية، ولكنه غدا وحيداً بلا ناصر ولا معين. فانتابته المخاوف، واجتاحته الهموم، ولما وصل المدينة تعرض للعقوبة الشديدة، ليس لمخافته للتكليف، وإنما لمخالفته لمطلق الأمر بالتكليف.

وعلى العكس منه الجندي الذي آثر طائعاً مختاراً تحمل ما أمر بحمله، فقد انطلق مستريحاً في طريقه بصفة الجندية واسم الجندي، غير هياب ولا وجل، لاطمئنانه ويقينه بسلامة اختياره، وبقوة من يتحرك باسمه إلى أن دخل المدينة، فاستحق الثواب كأي مكلّف أدى ما يجب عليه أداءه.

وفسر النورسي المثل فقال مخاطباً نفسه ونفس كل عابد:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 12،13

" اعلمـي أن ذينـك المسـافرين أحـدهما أولئـك المستسـلمون المطيعون للقانون الإلهي، والآخر هم العصاة المتبعون للأهواء.

وأما ذلك الطريق فهو طريق الحياة الذي يأتي من عالم الأرواح ويمر من القبر مؤدياً إلى عالم الآخرة.

وأما تلك الحقيبة والسلاح فهما العبادة والتقوى، فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيل ظاهراً، إلا أن لها في معناها راحة وخفة عظيمتين لا توصفان، ذلك لأن العابد يقول في صلاته (لا إله إلا الله)، أي لا خالق ولا رازق إلا هو، النفع والضرر بيده، وأنه حكيم لا يعمل عبثاً، كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان".[1]

وكما هو واضح من التفسير، فإن الجندي أو المسافر هو المكلّف بتكاليف شرعية فيها عليه كلفة ومشقة، فمن يأتمر بالأمر ويمتثل له، خاضعاً لإرادة المكلّف فهو الطائع المنقاد لله تعالى، ومن يعاند ويخالف الأمر التكليفي فهو العاصي الذي لا يرجو ثواباً بفعله.

أما الطريق فمجاز عن الحياة الدنيا التي أعدت خصيصاً كمكان للتكاليف، فسميت بدار التكليف كما سميت الآخرة بدار الجزاء، وجهزت بكل المقومات التي يحتاج إليها المكلَّف في حركته التكليفية.

وأما الحقيبة أو حمل السلاح فهي العبادة التي رغماً عن صعوبتها ومشقتها، ووقعها المؤلم على النفس، ففيها الراحة والطمأنينة في الدنيا، وتعود على العباد بالنفع الجزيل بعد الموت.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 13

فرح الله

إذا كان فرح الكريم بكرمه والشفيق بشفقته أضعاف أضعاف فرحة من يكرم ويشفق عليه. فكيف بفرحة الله تعالى بمن نالوا رحمته ورضاه أليست أكثر بكثير من أفراح ومسرات عباده برحمته عليهم ورضاءه عنهم، ومعنى جليل القدر كهذا لا يدرك إلا من خلال ثلاثة أمثلة رواها النورسي على النحو التالي.

" **المثل الأول**: شخص سخي كريم ذو شفقة ورأفة، أعد ضيافة جميلة للفقراء المحتاجين، فبسط ضيافته الضخمة على إحدى سفنه الجوالة، واطلع عليهم وهم يتنعمون بإنعامه تنعماً ذا امتنان، ترى كم يكون ذلك الشخص الكريم مسروراً فرحاً، وكم يبتهج بتنعم هؤلاء الفقراء، وتلذذ الجياع منهم، ورضى المحتاجين منهم، وثنائهم عليه.

والمثل الثاني: إذا قام صناع ماهر بصنع حاكٍ جميل ينطق من دون حاجة إلى اسطوانة، ووضعه موضع التجربة والعرض للآخرين، فعبر الجهاز عما يريده منه وعمل على أفضل وجه يرغب فيه. فكم يكون مفتخراً برؤية صنعته على هذه الصورة، وكم يكون مسروراً، حتى إنه يردد في نفسه: بارك الله.

والمثل الثالث: إن حاكماً عادلاً يجد لذة ومتعة عندما يأخذ حق المظلوم من الظالم، ويجعل الحق يأخذ نصابه. ويفتخر لدى صيانته لحق الضعفاء من شرور الأقوياء لدى منحه كل فرد ما يستحقه من حقوق". [1]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 744،745

فلا يملك كل من الكريم والصانع الماهر والحاكم العادل في الحقيقة إلا القدر اليسير والحظ الضئيل من جهدهم، فالكريم ليس له فضل في إعداد المائدة ودعوة المدعوين، والصانع لم يصنع إلا شيئاً صغيراً محدود القيمة، وكذلك الحاكم العادل، فعدله نابع من تطبيقه للشرع الحكيم.

ومع كل هذا فإن الفرحة تغمر قلوبهم وتنشرح صدورهم طرباً وسروراً لما أدوه من أعمال، فكيف بمن نسبة الفعل إليه نسبة ذاتية، ولا يشاركه فيه أحد، ألا يفرح لفرحة عباده فرحاً هو أسمى وأنزه بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والنزاهة مما يظهر على عباده.

الوعيد

تساءل النورسي قائلاً:

- ما أساس الحكمة التي تبنى عليها تلك الزواجر والتهديدات المرعبة والشكاوى القرآنية الصادرة من عظمته الجليلة تجاه هذا الإنسان الذي لا يملك إلا جزءاً من إرادة اختيارية وكسباً فقط، فلا قدرة له على الإيجاد قطعاً، وكيف يتم الانسجام والتوفيق بينهما.

وقبل الإجابة عن مغزى وعيد الله وزجره وتهديده لهذا المخلوق الذي لا حول ولا قوة ضرب مثلين متكاملين، جاء في الأول منهما:

" بستان عظيم جداً يحوى ما لا يعد ولا يحصى من الأثمار اليانعة والأزاهير الجميلة، عين عدد كبير من العاملين والموظفين للقيام بخدمات تلك الحديقة الزاهرة، إلا أن المكلَّف بفتح المنفذ الذي يجري منه الماء للشرب وسقي البستان، تكاسل عن أداء مهمته، ولم

يفتح المنفذ، فلم يجر الماء، بمعنى أنه أخل بكل ما في البستان أو سبب في جفافه".[1]

يعني أن المكلَّف بأهم وظيفة وأخطر عمل وهو إدارة الممر الوحيد الذي يمد البستان بأسباب بلغ من الإهمال وعدم الإحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه حد التثاقل، فلم يسمح للماء بسقي أشجاره ونباتاته، مما يعتبر عمله هذا في حكم القاصد والمتعمد إلحاق أفدح الضرر بالبستان وأشجاره وثماره.

أما ردة الفعل إزاء ذلك المهمل لعمله، فرواها النورسي بقوله:

" وعندها فإن لجميع العاملين في البستان حق الشكوى من ذلك العامل المتقاعس عن العمل، فضلاً عن شكاوى ما أبدعه الرب الجليل والخالق الكريم، وما هو تحت نظر شهوده العظيم، بل حتى للتراب والهواء والضياء حق الشكوى من ذلك العامل الكسلان، لما سبب من بوار مهماتهم وعقم خدماتهم. أو إخلال بها على الأقل".[2]

أي أن ما فعله ذلك العالم شيء لا يمكن التغاضي عنه ولا السكوت عليه، وذلك لما يترتب عليه من نتائج لا تقف عند حد بعينه، فلا عجب أن أبدى زملاؤه شعورهم بالاستياء، ليس فقط على عمله، بل أيضاً لما سببه لهم من كساد في أعمالهم، وضياع لمجهوداتهم.

أما المثل الثاني فتمم للأول ورواه النورسي قائلاً:

" سفينة عظمية للسلطان، إن ترك فيها عامل بسيط وظيفته الجزئية، فسيؤدي تركه هذا إلى إخلال بنتائج أعمال جميع العاملين في السفينة وإهدارها، لأجل ذلك فإن صاحب السفينة، وهو السلطان العظيم

---

(1) الكلمات – النورسي ص 190،191

(2) الكلمات – النورسي ص 191

سيهدد ذلك المقصر على القول: من أنا حتى استحق كل هذا التهديد المروّع، وما عملي إلا إهمال تافه جزئي".[1]

فالمثل يؤكد تأكيداً أشبه بالشرط اللازم؛ أن رفض أي عامل في السفينة لواجبه المكلَّف به. حتى لو كان من الأعمال التي لا يؤبه بها في العادة لحقارتها، له نتائج تنعكس على جميع الأعمال في السفينة، بل قد تسبب في إبطال منظومة العمل برمته، ولأجل ذلك حق لمالك السفينة أن يتوعده وينذره بإنزال أقصى العقوبات عليه، وليس من حق ذلك المتوانى والمهمل الاحتجاج على الوعيد بتفاهة عمله واستهانة الناس به.

ومن هنا علق النورسي قائلاً:

" ذلك لأن عدماً واحداً يؤدي إلى مالا يتناهي من أنواع العدم، بينما الوجود يثمر ثمرات حسب نوعه، لأن وجود الشيء يتوقف على وجود جميع الأسباب والشروط، بينما انعدام ذلك الشيء وانتفاؤه من حيث النتيجة إنما هو انتفاء شرط واحد فقط. وبانعدام جزء منه".[2]

ويرى النورسي بما وراء هذا التعليق إلى أن ترك العمل هو في حكم العدم، أو بمعنى أخر هو ضد الوجود، أو هو اللاوجود بعينه. واللاوجود نفي للوجود، والوجود يقتضي دوماً شيئاً متحققاً بالفعل، أو على الأقل وجوداً عينياً في الظاهر، أما عدم الشيء فلا يضاف أو يسند إليه، أي للعدم، إذ لا وجود بعده، وبالتالي لا يتصور له وجود أصلاً.

وتأسيساً على ذلك المعنى وانطلاقاً منه خلص النورسي إلى القول:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 191
(2) الكلمات – النورسي ص 191

" ومـن هنـا غـدا – التخريـب أسـهل مـن التعميـر – دسـتوراً متعارفـاً لـدى النـاس، ولمـا كانـت أسـس الكفـر والضـلال والطغيـان والمعصـية إنكاراً ورفضاً وتركاً للعمل وعدم قبول، فصورتها الظاهرية مهما بدت إيجابية وذات وجود، إلا أنها في حقيقتها انتفاء وعدم، لذا فهي جناية سارية".[1]

والمعنـى أنـه وعلـى الـرغم مـن العنصـر الإيجـابي والإيجـادي فـي الكفر والضلال، وغيرها من صور الإنكار والرفض للعمل، إلا أنها في حقيقتها الوجودية عدم وانتفاء، ولكن العدم فيها يقيد ولا يطلق ولا يضاف بالضرورة إلى ما يضاده، فيقال مثلاً أنه عدم إيمان وعدم طاعة إلى غيرها من صور الإضافة والإسناد.

وعيد الله على الذنب الصغير

يقف المرء في كثير من الأحيان حائراً ومتردداً من وعيد الله المرعب، وتهديـده الشـديد، وإنـذاره المتكـرر للفاسـدين والمنحـرفين عـن منهجـه، لمجـرد ارتكـابهم لـذنب صـغير لا أهميـة لـه. ولاقتـرافهم خطيئـة لا ضـرر منها. وبما لا يتناسب أبداً مع حجمها، فما الحكمة وراءه، وما سره.

يقول النورسي في حديثه عن تلك الحكمة وذلك السر:

" إن فـي وسـع الشـياطين ومـن تـبعهم أن يقومـوا بتخريـب مـدمر بحركة بسيطة تصدر منهم، لأنهم يسلكون طريق الضلالة، فيلحقون بفعل جزئي يصدر منهم خسائر جسيمة بحقوق الكثيرين.

مثلهم في هذا كمثل رجل ركب سفينة تجارية عامرة للملك، ثم

---

(1) الكلمات – النورسي ص 191

خرقها خرقاً بسيطاً، أو ترك واجباً كان عليه أن يؤديه، فأهدر بفعله هذا جهد مَن في السفينة، وأفسد عليهم جني ثمار عملهم فيها، وأبطل نتائج أعمال كل من له علاقة بها، لذا سيهدده الملك الذي يملك السفينة تهديدات عنيفة، باسم جميع رعاياه في السفينة، وجميع المتضررين فيها، وسيعاقبه أشد العقاب حتماً، لا لحركته الجزئية أو لتركه الواجب، وإنما للنتائج المترتبة على تلك الحركة، أو الترك البسيط، وليس لتجاوزه حمى الملك. وإنما لتعديه على حقوق الرعية جميعها".[1]

قدم النورسي للمثل بلفت الأنظار إلى مقدرة الشيطان العجيبة على إحداث أضرار هائلة، وفساد رهيب من عمل صغير لا يؤبه له يصدر عنهم، فتنتج عنه آثار تصيب جمعاً غفيراً من الخلق.

ومثل الشياطين في أعمالهم تلك مثل رجل جلس على ظهر سفينة لسلطان فعمل فيها شقاً صغيراً، أو قصّر في عمل واجب عليه، فأعماله تلك على ضآلتها وصغر حجمها لها من التأثير مالا يقف عليه وحده، بل يتخطاه للآخرين فتصيبهم بأضرار بالغة.

فمن البديهي إذن أن ينبه ويحذر من عواقب الإقدام على تلك الأفعال، ويتوعد بأقصى العقوبة وأشدها إيلاماً، ليس لإحداها لها ضمن دائرة ضيقة المساحة، بل لتداعياتها الكثيرة والمتنوعة والتي تصيب الآخرين بأضرار ليست في الحسبان.

والسفينة المذكورة في المثل تشبه وكما يذهب النورسي:

" الأرض، ففيها مع المؤمنين أهل الضلال من حزب الشيطان الذين يستخفون بنتائج الوظائف الحكيمة للموجودات الرائعة، بل

---

(1) اللمعات – النورسي ص 112

يعدونها عبثاً وباطلاً، فيحقرون بذلك جميعها، مما تشكل خطيئاتهم ومعاصيهم الجزئية في الظاهر، تجاوزاً واضحاً وتعدياً صارفاً على حقوق الموجودات كافة، لذا فإن الله سبحانه وهو ملك الأزل والأبد، يحشد التهديدات المروعة ضد ذلك التدمير الصادر من أهل الضلالة".[1]

وتعليق النورسي أو تفسيره للمثل لا يزيد عما قيل آنفاً.

فإن الذنوب والخطايا مهما كانت صغيرة وضئيلة في حجمها إلا أن معناها كبير جداً. وخطورتها عظيمة، إذ بها يظهر فاعلها عن استهتار بالغ بحقوق الآخرين. وتدمير هائل لقيمهم الأخلاقية، ناهيك عن آثارها السيئة التي لا يسلم منها أحد، فلا عجب أن يقابلها الحق عز وجل بسلسلة طويلة وعنيفة من الإنذارات والتحذيرات بسوء العاقبة وفداحة المال.

التجارة الرابحة

شبّه النورسي المسلم وماله وجهاده في سبيل الله وغيرها من أعماله الصالحة ببضائع يتجر فيها بغرض الربح والفائدة، والله تعالى هو من يجعل قيمتها مساوية لها، فيشتريها منه، فقال:

" وضع سلطان – ذات يوم – لدى اثنين من رعاياه وديعة وأمانة لكل منهما مزرعة واسعة، فيها كل ما تتطلبه من مكائن وآلات وأسلحة وحيوانات وغيرها، وتوافق أن كان الوقت آنذاك وقت حرب طاحنة، لا يقر قرار لشيء، فإما أن تبدله الحرب وتغيره، أو تجعله أثراً

(1) اللمعات – النورسي ص 112

بعد عين، فأرسل السلطان رحمة منه وفضلاً أحد رجاله المقربين مصحوباً بأمره الكريم ليقول لهما:

بيعوا لي ما لديكم من أمانتي لأحفظها لكم، فلا تذهب هباء في هذا الوقت العصيب، وسأردها لكم حالما تضع الحرب أوزارها، وسأوفي ثمنها لكم غالياً، كأن تلك الأمانة ملككم، وستشغل تلك المكائن والآلات التي في حوزتكم الآن في معاملي وباسمي وعهدتي، وسترتفع أثمانها من الواحد إلى الألف، فضلاً عن أن جميع الأرباح ستعود إليكم أيضاً، وسأتعهد عنكم بجميع تكاليفها ومصاريفها، حيث إنكم عاجزون فقراء لا تتحملون مصاريف تلك المكائن، وسأرد لكم جميع وارداتها ومنافعها، علماً أني سأبقيها عندكم لتستفيدوا منها وتتمتعوا بها إلى أن يحين وقت أخذها، فلكم خمس مراتب من الأرباح في صفقة واحدة.

وإن لم تبيعوها لي فسيزول حتماً كل ما لديكم، حيث ترون أن أحداً لا يستطيع أن يمسك ما عنده، وستحرمون من تلك الأثمان الغالية، وستهمل تلك الآلات الدقيقة النفيسة والموازين الحساسة والمعادن الثمينة، وتفقد قيمتها كلياً، وذلك لعدم استعمالها في أعمال راقية، وستتحملون وحدكم إدارتها وتكاليفها، وسترون جزاء خيانتكم للأمانة، فتلك خمس خسائر في صفقة واحدة، وفوق هذا كله إن هذا البيع يعني أن البائع يصبح جندياً حراً أبياً خاصاً بي، يتصرف باسمي ولا يبقى أسيراً عادياً وشخصاً سائباً". [1]

إن عملية البيع والشراء التي تمت أو سوف تتم بين السلطان وبين اثنين من رعاياه، ارتفعت بالعلاقة بينهما من علاقة الحاكم بالمحكوم،

(1) الكلمات – النورسي ص 21،22

والأعلى بالأدنى، إلى علاقة أخص، وفيها من الملازمة والمصاحبة، أكثر ما فيها من الثبات والديمومة. فالسلطان وهو المشترى سيدفع ثمن المزرعة ومحتوياتها وثمراتها، وتؤول إليه بموجب الثمن المقدر لها، وعلى البائعين بناء على ذلك التنازل عن حقهما، وأخذ ثمنها عداً ونقداً في حاضر الزمان أو مستقبله.

وبما أن البيع والشراء يجري بين الطرفين برغبتهما الحرة، فقد دار بين المشتري والبائعين الحوار الذي رواه النورسي على النحو التالي:

" انصت الرجلان ملياً إلى هذا الكلام الجميل والأمر السلطاني فقال العاقل الرزين منهما:

- سمعاً وطاعة لأمر السلطان، رضينا بالبيع بكل فخر وشكر.

أما الآخر المغرور المتفرعن فقد ظن أن مزرعته لا تبيد أبداً، ولا تصيبها تقلبات الدهر، واضطرابات الدنيا: فقال.

- لا ومَن السلطان؟ لا أبيع ملكي ولا أفسد نشوتي".[1]

ثم يروي النورسي في الخاتمة ما آلت إليه أحوال كل منهما، قائلاً:

" ودارت الأيام، فاصبح الرجل الأول في مقام يغبطه الناس جميعاً، إذ أضحى يعيش في بحبوحة قصر السلطان، يتنعم بألطافه، ويتقلب على أرائك أفضاله، أما الآخر فقد ابتلى شر بلاء حتى يرثى لحاله الناس كلهم، رغم انهم قالوا: إنَّ يستحقها، إذ هو الذي ورط نفسه في مرارة العذاب جزاء ما ارتكب من خطأ، فلا دامت نشوته ولا دام ملكه".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 22

(2) الكلمات – النورسي ص 22

والمعنى أن من باع طائعاً مختاراً للسلطان ما أودع عنده وأؤتمن عليه، حظي وفي فترة قصيرة بقدر من الأرباح، تمنى معها كل من رآه أو سمع به، لو كان في محله، أما الآخر فقد تعرض لجهله وسوء تقديره لشتى أنواع الخسائر والابتلاءات، أنزلته مجتمعة منزلة الميت، فبكاه من عرف حالته وأبَّنوه كما يُؤَبَّنُ الميت، ولا يذكرونه في مصيبته إلا بالصفات الحميدة والخصائص الطيبة.

تلك هي المعالم البارزة لوقائع المثل، أما تفريغ عناصرها على الواقع فيرويه النورسي بقوله:

" فيا نفسي المغرورة انظري من خلال منظار هذه الحكاية إلى وجه الحقيقة الناصعة، فالسلطان هو سلطان الأبد والأزل، وهو ربك وخالقك، وتلك المزرعة والمكائن والموازين هي ما تملكينه في هذه الحياة الدنيا من جسم وروح وقلب. وما فيها من سمع وبصر وعقل وخيال، أي جميع الحواس الظاهرة والباطنة، وأما الأمر السلطاني المحكم فهو القرآن الكريم، الذي يعلن هذا البيع والتجارة الرابحة في هذه الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [1]

وأما الميدان المضطرب والحرب المدمرة فهي أحوال هذه الدنيا، إذ لا قرار فيها ولا ثبات". [2]

وخلاصة ما يستفاد من تفسير النورسي للمثل أن المؤمن العاقل لو نظر إلى أحوال الدنيا وتقلباتها، وتأمل جيداً في عاقبة أمرها، لانقاد طائعاً مختاراً للأمر الإلهي والتكليف السلطاني، وباع نفسه وعقله

---

(1) التوبة/ 111

(2) الكلمات – النورسي ص 22،23

وقلبه وكل ما يملك لله تعالى، وهو على ثقة ويقين بأن الله هو وحده الضامن لأرباحها.

البدعة

يواجه المسلمون على الدوام بطائفة من العلماء لا يتحرجون من التحدث في الدين بغير علم، ولا يتورعون عن إصدار فتاوى لا أصل لها في الشرع موقعين أفدح الأضرار بالناس، وعن هؤلاء يقول النورسي:

" أية مصلحة يجدونها في فتوى يفتونها يعارضون بها بديهيات الشعائر الإسلامية[1] بما فيه ضرر ومن غير ضرورة، ويرون أن الشعائر قابلة للتبديل، فإن كان ثمة شيء، فلربما انتباه مؤقت ناشئ من سطوع المعنى المؤقت، هو الذي خدعهم".[2]

يعني أن باطلهم قائم على ادعائهم بقابلية الشريعة للتجدد بتجدد الزمان، وظهور مشكلات جديدة تتطلب حلولاً تتفق مع روح الزمان وروح الحياة، فيأتون فعلاً بأفكار جديدة تلفت الانتباه، وتثير الناس بجدتها وطرافتها. ولكنها تشبه البرق الخاطف في سرعة ظهورها وزوالها، وهي التي أوهمتهم بأنهم على حق فيما يدعون.

أما المثل المعبر عن واقع هؤلاء الأدعياء فرواه بقوله:

" لو سلخ جلد حيوان، أو نزع غلاف ثمرة. فإن ظرافة مؤقتة تبدو من اللحم والثمرة، ولكن بعد مدة قليلة يسودّ ذلك اللحم الظريف

---

(1) المقصود رفع الأذان بغير العربية
(2) المكتوبات – النورسي ص 510

والثمرة اللطيفة، وذلك بتأثير ما يغلفها من غلاف عرضي غريب كثيف ملوث فيتعفنان".[1]

إن نزع جلد الحيوان وغشاء الثمرة في حينه. وحتى لو أحدث تشوهاً وقبحاً فيهما، إلا أن جدته تظهره على غير حقيقته، وكلما تقادم عليه الزمان تحللت عناصره وتغير شكله ولونه، واتخذ وضعاً لا يطاق، وكذلك الحال مع الشعائر والعبادات الإسلامية، فهي:

" بمثابة جلد حي مثاب عليه، ولدى انتزاعه يظهر شيء من نور المعاني مؤقتاً، وتطير أرواح تلك المعاني المباركة - بمثل لطافة الثمرة المنزوع منها الغلاف - تاركة ألفاظها البشرية في القلوب والعقول المظلمة، ثم تغادر ويذهب النور، ولا يبقى غير الدخان".[2]

فكأن من يتصدى للفتوى بهواه في قضايا الدين، يجردها مما عليه من جمال وبهاء، فتبدو في أول أمرها بديعة وخلابة لذوي الاستعداد الطبيعي للانحراف، فتستقر في عقولهم محدثة جروحاً غائرة في بواطنهم، ثم تزول تدريجياً إلى أن تتلاشى تاركة وراءها اسوداداً في النفس وظلمة في القلب.

الذنوب والآثام

إن أي فعل يصدر عن العبد المؤمن مخالفاً لإرادة الله تعالى هو في حقيقته خروج عن طاعته، ويؤدي خروجه عن الطاعة إلى وصفه وتسميته بصفات وأسماء عديدة تبعاً لمدى بعده أو قربه منها، مثل

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 510
(2) المكتوبات – النورسي ص 510،511

الذنوب والإثم والخطيئة والزلة والفسوق والفاحشة والغش والجناية والباطل والسوء والغلط والظلم والبطلان والاعتداء والعدوان والبغي والمنكر والرذيلة والضلال والفجور.

وعلى الرغم من الاختلاف الواضح في مراتبها الأدائية والفعلية، والتباين الملحوظ في عقوبتها وجزائها، إلا أنها تشترك جميعاً وكما يقول النورسي في قوة كل منها على أن:

" يتوغل في القلب ويمد جذوره في أعماقه، وما ينفك ينكت فيه نكتاً سوداء، حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً فيغلظ ويقسو. نعم إن كل إثم وخطيئة يؤدي إلى الكفر، فإن لم يمح ذلك الإثم فوراً بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية. بل إلى حية معنوية تعض القلب وتؤذيه".[1]

إذن فالمؤمن إذا لم يتدارك نفسه بالتوبة والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة لارتكاب ما فيه مخالفة لإرادة الله، فإن الثمرة المرة الناتجة عنها هي اسوداد القلب وتحجره وظلمته حتى يخلو تماماً من نور الإيمان، فيقع دون وعي منه في دائرة الكفر، وتبياناً لهذه الحقيقة المؤلمة، يقول النورسي:

" فمثلاً: إن الذي يرتكب شراً آثماً يخجل منه، وعندما يستحي كثيراً من اطلاع الآخرين عليه، يثقل عليه وجود الملائكة والروحانيات، ويرغب في إنكارهم بأمارة تافهة.

ومثلاً: إن الذي يقترف كبيرة تفضي إلى عذاب جهنم، إن لم يتحصن تجاهها بالاستغفار، فما أن يسمع نذير جهنم وأهوالها يرغب

---

(1) اللمعات – النورسي ص 11

في أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأة لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة.

ومثلاً: إن الذي لا يقيم الفرائض ولا يؤدي وظيفة العبودية حق الأداء وهو يتألم من توبيخ آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فإن تكاسله عن أداء الفرائض إزاء الأوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضيقاً شديداً وظلمة قاتمة في روحه، ويسوقه هذا الضيق إلى الرغبة في أن يتفوه ويقول ضمناً:

- ليته لم يأمر بتلك العبادة.

وتثير هذه الرغبة فيه الإنكار الذي يشمّ منه عداء معنوياً تجاه ألوهيته سبحانه فإذا ما وردت شبهة تافهة إلى القلب حول وجوده سبحانه. فانه يميل إليها، كأنها دليل قاطع، فينفتح أمامه باب عظيم للّهلاك والخسران المبين.

ولكن لا يدرك هذا الشقي أنه قد جعل نفسه بهذا الإنكار، هدفاً لضيق معنوي أرهب وأفظع بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله كمن يفر من لسع البعوض إلى عض الحية".[1]

فهناك إذن ثلاثة أنواع من المعاصي يرتكبها ثلاثة أصناف من المؤمنين لكل منها أثارها المدمرة على المؤمن وعلى إيمانه وهي:

الأولى: هي التي ترتكب بعيداً عن أعين الناس، ويحرص المؤمن على كتمانها وعدم التحدث بها إلى أحد، وينتج عن تلك الشرية كراهية مضمرة للعالم الروحاني غير المنظور، وعلى وجه أخص الملائكة المطلعين على سره والعارفين بإثمه وذنبه.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 11،12

والثاني: من يرتكب كبيرة من الكبائر عقوبتها نار جهنم، فإذا هو أصر عليها، ولم يتب عنها، آل به الأمر هو الآخر إلى الأماني الباطلة، بألاّ يكون للنار وجود، ثم ينتهي به الحال إلى عدم الاعتراف بها أو التسليم بوجودها، بأعذار وحجج واهية ومتهافتة.

والثالثة: من لا يلتزم بأوامر الله، ولا يطيعه فيما يجب الطاعة فيه. لا رفضاً ولا إنكاراً، بل تثاقلاً عن أدائها، وتوانياً في القيام بها، ويترتب على ذلك خشونة في النفس، وضيق في الصدر، وظلمة في القلب يتمنى من شدة وقعها عليه، لو لم تشرع عبادة أصلاً، فيتردى بسهولة إلى رفض العبادة وعدم قبولها. ويجره ذلك إلى الشك في وجود الله، ولا يحتاج بعدها إلا لدليل عارض للوقوع في الكفر والإلحاد.

التنبيه الرباني

قد يفجع المؤمن بكثير من نوائب الدهر في نفسه وماله وولده وأهله وأحبائه، فتحيل حياته إلى الآم وأحزان موصولة، وهي في غالبها وكما يرى النورسي ليست بذات شأن. أي ليست بمصائب تساوى في ضررها تلك التي تصيب الدين وتقدح في العقيدة، بل هي على حد تعبيره:

" تنبيه رحماني، يبعثه الله سبحانه إلى عبده ليوقظه من غفلته"[(1)]

أي هي إعلام من الله لعبده يريد بها أن يطلعه ويوقفه على أمر يعود عليه بالنفع في دنياه وآخرته، بمعنى تحذيره مما أصابه في حياته التعبدية من سهو ونسيان، وتخويفه من إهماله لفروضه وواجباته.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 16

ومثل النورسي لذلك التنبيه الرباني بـ:

" تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذرها من أمر خطير مضر، فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان". [1]

يعني أن الراعي عندما يقذف أغنامه بحجر أو يرميها بعصا، لدى خروجها عن مرعاها، فهو لا يقصد بذلك إيذاءها، أو إيقاع الضرر بها، بل يبغي تذكيرها وإعلامها بأنها قد تجاوزت الحدود، وهي بدورها تدرك غرض راعيها وهدفه، فتعود برغبة منها ورضى إلى دائرة مرعاها، فلا تغادره أو تخرج منه.

وهكذا المصائب التي تحل بالمؤمن، فهي في غالبها تحذير من الله وإعلام بضرورة تصحيح مساره والعودة إلى الطريق القويم.

إدامة الإخلاص

لا يحتاج العاملون في مجال الدعوة لله تعالى إلى الإخلاص وحده في عملهم. بل يحتاجون معه أيضاً إلى ما يديم الوفاق الصادق بينهم. لأن في إدامة الوفاق إدامة للإخلاص، وفي دوام الإخلاص واستمراريته ثبات على الوفاق ودوام عليه. وروى النورسي ثلاثة أمثال لبيان التلازم بينهما، بدأ بإخلاص ووفاق أهل الدنيا، فقال:

" لقد اتخذ أرباب الدنيا – الاشتراك في الأموال – قاعدة يسترشدون بها لأجل الحصول على ثروة طائلة أو قوة شديدة، بل اتخذ من لهم التأثير في الحياة الاجتماعية – من أشخاص أو جماعات

(1) اللمعات – النورسي ص 16

وبعض الساسة – هذه القاعدة رائداً لهم. ولقد كسبوا نتيجة لاتباعهم هذه القاعدة قوة هائلة وانتفعوا منها نفعاً عظيماً، رغم ما فيها من أضرار واستعمالات سيئة، ذلك لأن ماهية الاشتراك لا تتغير بالمساوي والأضرار التي فيها، لأن كل شخص – وفق هذه القاعدة – يحسب نفسه بمثابة المالك لجميع الأموال، وذلك من زاوية مشاركته في المال ومن جهة مراقبته وإشرافه عليه. برغم انه لا يمكنه أن ينتفع من جميع الأموال". [1]

ومقصوده أن محبي الدنيا والعاملين من اجلها قد وضعوا ومن واقع خبرتهم الطويلة قواعد كثيرة لزيادة ثروتهم وأموالهم، من بينها ضرورة أن يشارك كل منهما الآخر في المال. وبهذا التعاون والاتفاق في الرأي والعمل يمكن لكل واحد منهم من جمع أموال طائلة.

ثم عقب النورسي على هذه القاعدة قائلاً:

" وعلى كل فإن هذه القاعدة إذا دخلت في الأعمال الأخروية تحمل سر الدخول بتمامها في حوزة كل فرد من أولئك الأفراد المشتركين فيها، دون نقصان أو تجزئة". [2]

يعني: لو طبقت هذه القاعدة على الأعمال الأخروية، فلا شك أنها سوف تأتي بنتائج وفوائد جليلة القدر ولا تقارن بالأعمال الدنيوية، ولإفهام هذا المعنى لذوي العقول النيرة ضرب النورسي المثل التالي:

" اشترك خمسة أشخاص في إشعال مصباح زيتي، فوقع على أحدهم إحضار النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه، وعلى الأخير علبة الكبريت،

(1) اللمعات – النورسي ص 248
(2) اللمعات – النورسي ص 248

فعندما أشعلوا المصباح أصبح كل منهم مالكاً لمصباح كامل. فلو كان لواحد من أولئك المشتركين مرآة كبيرة معلقة بحائط، إذن لأصبح منعكساً في مرآته مصباح كل – ما في الغرفة – من دون تجزؤ أو نقص".[1]

يريد أن تعاون أولئك النفر على إضاءة مصباح واحد، قد جعل كل واحد منهم شريكاً للآخرين فيه. وصاحب ملك له، وتعاون هؤلاء يشبه تعاون الدعاة وإخلاصهم، فيقول النورسي في شرحه للمثل:

" وهكذا الأمر في الاشتراك في الأمور الأخروية بسر الإخلاص، والتساند بسر الأخوة، وضم المساعي بسر الاتحاد، إذ سيدخل مجموع أعمال المشتركين، وجميع النور النابع منها، سيدخل بتمامه في دفتر أعمال كل منهم وهذا أمر مشهود وواقع بين أهل الحقيقة، وهو من مقتضيات سعة رحمة الله سبحانه وكرمه".[2]

والمراد أن تعاون المهتمين بالثواب الأخروي، وإخلاصهم العمل لوجه الله تعالى، ومساندة كل منهم للآخر، ومؤازرته له في عملهم، سوف يوضع يوم القيامة في ميزان حسناتهم، ولا ينقص أجره من أجور إخوانه شيئاً.

أما المثل الأخير فهو خاص بأصحاب الصناعة والحرفيين الذين هم بدورهم يستندون في عملهم على قاعدة أساسية وهي: المشاركة في الصنعة والمهارة، ونص المثل.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 248

(2) اللمعات – النورسي ص 249

" قام عشرة من صناعي إبر الخياطة بعملهم، كل على انفراد، فكانت النتيجة ثلاث إبر فقط لكل منهم في اليوم الواحد، ثم اتفق هؤلاء الأشخاص حسب قاعدة – توحيد المساعي وتوزيع الأعمال – فأتى أحدهم بالحديد والآخر بالنار وقام الثالث بثقب الإبرة والآخر إدخالها النار. والآخر بدأ بحدها.

وهكذا، فلم يذهب وقت أحد سدى، حيث انصرف كل منهم إلى عمل معين وأنجزه بسرعة، لأنه عمل جزئي بسيط أولاً ولاكتسابه به الخبرة والمهارة فيه ثانياً، وحينما وزعوا حصيلة جهودهم رأوا أن نصيب كل منهم في يوم واحد ثلاثمائة إبرة بدلاً من ثلاث ابر، فذهبت هذه الحادثة أنشودة يترنم بها أهل الصناعة والحرف، الذين يدعون إلى توحيد المساعي وتوزيع الأعمال".[1]

فهؤلاء الصناع الحرفيون عندما خلا كل واحد بعمله، ولم يشرك معه أحداً كانت حصيلة عمله ضئيلة للغاية، ولكن عندما طبقوا على أنفسهم قاعدة توحيد المساعي وتوزيع الأعمال، والقائمة أصلاً على ضرورة مشاركة كل منهم للآخرين، مع اهتمام كل واحد منهم وتركيزه على ما هو متخصص فيه، كان ناتج العمل المشترك خرافياً لا يصدق.

وانطلاقاً من المثل السابق خاطب النورسي المشتغلين بهموم الدعوة قائلاً:

" فيا إخواني ما دامت تحصل مثل هذه الفوائد العظيمة نتيجة الاتحاد والاتفاق في أمور دنيوية، وفي مواد كثيفة، فكم يكون يا ترى ثواب أعمال أخروية ونورانية، وكم يكون الثواب المنعكس من أعمال

---

(1) اللمعات – النورسي ص 249

الجماعة كلها بالفضل الإلهي في مرآة كل فرد منها، تلك الأعمال التي لا تحتاج إلى تجزئة ولا انقسام، فلكم أن تقدروا ذلك الربح العظيم، فإن مثل هذا الربح العظيم لا يُفوّت بالحسد وعدم الإخلاص".[1]

فإذا كان تطبيق تلك القاعدة على أمور دنيوية زائلة بهذا القدر من الكثرة، فما حجم الجزاء على أعمال قصد بها رضى الله وأريد بها نوال ثوابه، وهو ليس كالأعمال الدنيوية التي يحتم إنجازها تقسيم العمل وتجزئته على ذوى الاختصاص. فلا مجال أبداً للمقارنة بين العملين، على الرغم من اتفاقهما في المنهج والغاية.

الابتلاء

يرى البعض في ابتلاء الله تعالى لمن لم يرتكب إثماً أو يقترف ذنباً، وفيما ينزله الله عليه من شدائد ومكروهات، ظلم وجور في حقهم، لا يليق بعدل الله ولا يتفق مع كماله، فصحح النورسي اعتقادهم ذلك بمثل خاطب به واحد منهم، قائلاً:

" ترى لو أن صنّاعاً ماهراً، جعلك نموذجاً مقابل أجرة، وألبسك ثوباً زاهياً خاطه بأفضل ما يكون، ثم بدأ يقصره ويطوله ويقصه، ثم يقعدك وينهضك ويثنيك، كل ذلك لكي يبين حذاقته ومهارته، فهل لك أن تقول له،

- لقد شوهت جمال ثيابي الذي زادني جمالاً، وقد أرهقتني لكثرة ما تقول لي، اجلس انهض.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 249،250

فلا ريب انك لا تقدر على هذا القول، بل لو قلته، فهو دليل الجنون ليس إلا" .[1]

فالمثل يفترض في المخاطب ومن الناحية النظرية انه وُظف من قبل صانع متمكن من صناعته (خياط) للقيام ولفترة محدودة من الزمان بدور النموذج (مثال الشيء)، نظير مكافأة مالية مقدرة، ولما قبل العمل وهو عالم بطبيعته، بدأ الخياط في شغله، فطرح عليه ثوباً غطاه. تلاه بأعمال المقص فيه تطويلا وتقصيراً، هذا في الوقت الذي كان يطلب منه القيام تارة والجلوس تارة أخرى، والتحرك يميناً وشمالاً حسب متطلبات الثوب.

فهل من المقبول والجائز أن يشكو ذلك العامل من إفساد ثيابه وتجريدها من جمالها، أو التذمر بأنه حمّل من العمل مالا يطاق، ألا يدل ذلك على خبل وفساد في التفكير؟

إن ابتلاء الله تعالى لعباده واختباره لهم يشبه عمل ذلك الخياط، فيقول النورسي في شرحه له:

" على غرار هذا فإن الصانع الجليل قد ألبسك جسماً بديعاً مزيناً بالعين والأذن والأنف وغيرها من الأعضاء والحواس، ولأجل إظهار آثار أسمائه الحسنى المتنوعة يبتليك بأنواع البلايا، فيمرضك حيناً ويمتعك حيناً بالصحة أحياناً أخرى، ويجيعك مرة أخرى ويشبعك تارة ويظمئك أخرى، وهكذا لتتقوى ماهية الحياة، وتظهر جلوات أسمائه الحسنى.

فإن قلت، لماذا تبليني بهذه المصائب؟ فإن مئة من الحكم الجليلة تسكتك، إذ من المعلوم أن السكون والهدوء والرتابة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجود وخير. فالحياة تتكمل

---

(1) المكتوبات – النورسي ص53،54

بالحركة، وتترقى بالبلايا، وتنال حركات مختلفة بتجليات الأسماء وتتصفى وتتقوى وتنمو وتتسع حتى تكون متحركاً لكتابة مقدراتها، وتفي بوظائفها وتستحق الأجر الأخروي".[1]

والمعنى أن الله تعالى الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم يبتلي مخلوقه الفريد بالخير والشر، وبالمضار والمسار، لا بغرض الوقوف على ما يجهل منه، أو التعرف على حاله، وإنما لتحقيق أمرين متلازمين.

أولهما: شكر الله على نعمه والصبر على ابتلاءاته القدرية، وذلك لتشدَّ قواه على مواجهة تقلبات الحياة.

وثانيهما: ظهور أسماء الله تعالى عليه، مثل الرحمن والرحيم والشافي والرزاق والمعين وغيرها.

فإذا بادر مخلوقه تحت وطأة الآلام وثقل المصائب وتساءل ما المقصود من وراء كل هذه الإبتلاءات، فالرد المباشر عليه هو أن في الجمود والعدم شر، وفي الحركة والوجود خير، والحياة نفسها لا تبلغ كمالها المنشود إلا بهما معاً، وفي هذا وذاك خير كثير، أقله الحصول على المثوبة الأخروية، وأعلاه نوال القرب من الله تعالى لكونه مظهراً لأسمائه وصفاته.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص54

شكوى المريض

بإمكــان أي مــريض وبمنتهــى اليســر والســهولة تحويــل معاناتــه ومكابدتـه للأوجـاع إلـى عبـادة خالصـة لله تعـالى، وذلـك بـدلاً عـن الشكوى أو النظر إلى الأصحاء والمتعافين من الأمراض، النظر إلى من هو أشد منه مصيبة، وممن لا شفاء ولا علاج لأمراضهم، فيشكر الله قانعاً بما هو فيه، راضياً بقضاء الله وقدره.

أما المثال التوضيحي الذي رواه النورسي فنصه:

" شخص يأخذ بيد مسكين ليصعده إلى قمة منارة ويهدي إليه في كل درجة من درجات المنارة هدية، وأخيراً يختم تلك الهدايا بأعظم هدية يهبها له عند قمة المنارة، وإذا كان المفروض على هذا المسكين أن يقدم الشكر والامتنان إزاء الهدايا المتنوعة، تراه يتناسى كل تلك الهدايا التي أخذها على تلك الدرجات أو يعدها غير ذات بال. فلا يشكر، رافعاً ببصره إلى من هو أعلى منه شاكياً قائلاً:

- لو كانت هذه المنارة أعلى مما هي عليه، لأبلغ أعلى درجة من هذه الدرجات، لـمَ لم تصبح مثل ذلك الجبل الشاهق ارتفاعاً أو المنارة المجاورة".[1]

ظل الرجل على فقره وشدة احتياجه، وطوال المراحل التي مر بها في طريقه إلى رأس المنارة يتسلم هدايا قيمة، وبلا مقابل، وعند وصوله إلى القمة أُهدي إليه أيضاً هدية أخرى أفضل وأعظم، ولكنه بدلاً من تقديم أسمى آيات الشكر والامتنان لذلك الواجب، نراه وبلا

(1) اللمعات – النورسي ص 332

سبب معقول يتوجع ويشكو مر الشكوى من قلة طول المنارة وقصرها الذي وقف بها عند حد لا يتفق ورغباته.

فحال المريض الذي لا يكف عن التذمر والتنكر لنعم الله عليه يشبه حال ذلك المسكين. فيقول النورسي في شرحه له:

" وهكذا يأتي هذا الإنسان ويظهر الشكوى من عدم تمتعه بالصحة والعافية نتيجة بعض العوارض، أو لإضاعته النعم بسوء اختياره، أو من سوء الاستعمال، أو لعجزه عن الوصول إليها، ثم يقول:

- يا ويلتا ماذا جنيت حتى حل بي ما حل.

ناطقاً بما يشي بانتقاد الربوبية الإلهية، فهذه الحالة هي مرض معنوي ومصيبة أكبر من المرض المادي والمصيبة التي هو فيها، فهو يزيد مرضه بالشكوى، كمن يتصارع ويده مرضوضة، لكن العاقل يتمثل قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[1]

صابراً حتى ينتهي ذلك المرض من أداء وظيفته ويمضي إلى شأنه"[2]

والمراد أن من يتذمر أو يتوجع، فكأنما يشكو الله لعباده، أو على أقل تقدير يظهر حكمه وقضاءه وقدره فيه كما لو كان أمر لا ينبغي ولا يجوز صدوره منه عز وجل، أو عيباً لا يليق بالذات الإلهية، وذلك التنكر والإنكار هو في حد ذاته مرض أجلّ وأخطر وأشد إيلاماً للنفس والبدن من المرض الذي أودى به إلى هذه الحالة من كفران للنعم، واتهام لله تعالى في أحكامه.

---

(1) البقرة/ 156

(2) اللمعات – النورسي ص 332

الفصل السادس

السلوك

الحرص والقناعة

إن كل صفة وخصلة من صفات وخصال الإنسان المعلومة لها نهاية محتومة، ما عدا الحرص، لأنه عين الطلب أو هو غاية الطلب، وهو في زيادة مضطرة، ولا يظهر الحرص في أمر من أمور الإنسان الحياتية ظهوره في الرزق، ولا علاج له إلا في القناعة والرضا بالمقسوم.

أما تأثير الحرص السيء على الرزق فيظهر وكما يرى النورسي:

" بدءاً من أوسع دائرة في عالم الأحياء وانتهاء إلى أصغر فرد فيه. بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان ويبرز أثره النافع في كل مكان".[1]

ومثال ذلك

" إن النباتات والأشجار المثمرة المفتقرة إلى الرزق – وهي التي تعد نوعاً من الأحياء – تهرع إليها أرزاقُها سريعة وهي منتصبة في

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 351

أماكنها متسـمة بالتوكـل والقناعـة دون أن يبـدو منهـا أثـر للحـرص. بـل تتفوق على الحيوانات في تكاثرها وتربية ما تولد من ثمرات.

أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلا بعد جهد جهيد ومشقة، وبكمية زهيدة ناقصة. وذلك لأنها تلهث وراءها بحرص، وتسعى في البحث عنها حثيثاً، حتى إننا نرى في عالم الحيوان نفسه أن الأرزاق تسبغ على الصغار الذين يعبرون عن توكلهم على الله بلسان حالات ضعفهم وعجزهم، فيُرسل إليهم رزقهم المشروع اللطيف الكامل من خزينة الرحمة الإلهية، بينما لا تحصل الحيوانات المفترسة التي تنقض على فرائسها بحرص شديد إلاّ بعد لأي كبير وتحر عظيم.

ونرى الحال في عالم الإنسان، إذ اليهود الذين هم أحرص الناس على حياة، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، بل يعشقونها حب العاشق الولهان حتى سبقوا الأمم في هذا المجال، قد ضربت عليهم الذلة والمهانة، وألحقت بهم حملات القتل بيد الأمم الأخرى، كل ذلك مقابل حصولهم بعد عناء طويل على ثروة ربوية محرمة خبيثة، لا ينفقـون منهـا إلا النـزر اليسـير، وكـأن وظيفـتهم كنزهـا وادخارهـا فحسب". [1]

إن السهولة والسرعة التي ترزق بها النباتات وهي ثابتة ومستقرة في أماكن وجودها، كامنة من أنها قد عبرت بعجزها المطلق عن الحركة، عن استسلامها ورضاها بواقعها الحياتي، ويشارك النباتات في تلك السهولة والسرعة صغار الحيوانات الضعيفة، أما كبار الحيوانات والمفترسة منها، فلا ترزق إلا بعد جهد ومشقة، وبكميات لا تفي

(1) المكتوبات – النورسي ص 351،352

باحتياجاتها الغذائية، وذلك راجع إلى شدة حرصها، وقوة جشعها، وعدم رضاها بالقليل.

ومن عجز النباتات، وعدم قناعة الحيوانات الكبيرة خلص النورسي للقاعدة التالية:

" إن الحرص سبب الحرمان، أما التوكل والقناعة فهما وسيلتا الرحمة والإحسان".[1]

يعني أن ما في الحرص من إفراط في شدة الكدح، والإسراف في الطلب، يقود مباشرة إلى عدم الحصول على الرزق بسهولة، وعكسه تماماً الاستسلام والرضا بما قسم الله، فهو مفتاح كل خير وبركة في الرزق.

أما طمع اليهود وشدة حرصهم على الحياة والمال، فقد صار مضرب الأمثال، حتى أورثهم الفقر والذل والمسكنة والنهم الزائد عن الحد والتحقير من قبل الناس. وغيرها من الخصال والصفات المميتة للنفس الكريمة.

ومن حالة اليهود خلص النورسي أيضاً إلى القاعدة التالية:

" إن الحرص معدن الذلة والخسارة في عالم الإنسانية".[2]

ومفاد القاعدة إن الحرص أصل تدور عليه كل الصفات المرذولة في الإنسان، وكل ما يصادفه في حياته من احتقار وامتهان فمرده إليه. ودافع قوي لإهدار كرامته وعزة نفسه.

وشبه النورسي حال الحريص والقانع بقوله:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 352

(2) المكتوبات – النورسي ص 352

"ويمكن أن نشبه القانعين من الناس والحريصين منهم بشخصين يدخلان مضيفاً كبيراً أعده شخص عظيم ذو شأن، يتمنى أحدهما في أعماقه قائلاً:

- لو أن صاحب الديوان يأويني مجرد إيواء، وأنجو من شدة البرد الذي في الخارج لكفاني، وحسبي ذلك، ولو سمح لي بأي مقعد متيسر في أدنى موقع فهو فضل وكرم.

أما الآخر فيتصرف كأن له حقاً على الآخرين، وكأنهم مضطرون أن يقدموا له الاحترام والتوقير، لذا يقول في أعماقه بغرور:

- على صاحب الديوان أن يوفر لي أرفع مقعد وأحسنه.

وهكذا يدخل الديوان وهو يحمل هذا الحرص، ويرمق المواقع الرفيعة في المجلس، إلا أن صاحب الديوان يرده ويرجعه إلى أدنى موقع في المجلس، وهو بدوره يمتعض ويستاء، ويمتلئ غيظاً على صاحب الديوان.

ففي الوقت الذي كان عليه أن يقدم الشكر الذي يستوجبه، قام بخلاف ما يجب عليه، وأخذ بانتقاد صاحب الديوان، فاستثقله صاحب الديوان. بينما رحب بالشخص الأول الذي دخل الديوان وهو يشع تواضعاً، يلتمس الجلوس في أدنى مقعد متوفر، إذ سرّته هذه القناعة البادية منه التي بعثت في نفسه الانشراح والاستحسان، وأخذ يرقيه إلى أعلى مقام وأرقاه. وهو بدوره يستزيد من شكره ورضاه كلما صعدت به المراتب".[1]

فحال القانع يشبه حال من يدخل مأوى، وهو لا يريد من صاحبه

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 352،353

سوى القليل الذي يرد عنه أذى البرد، ولو كان في أضيق مكان وأبعده عن المنزل.

أما الآخر فيدفعه حرصه وشدة رغبته في الأفضل والأحسن على طلب أعلى المواضع المعدة خصيصاً للخاصة من الزوار، مما يتسبب في إحلاله وعلى غير هواه في أحقر المواضع

إن القناعة والتواضع البادية في حركات وأفعال ذلك الشخص هي التي أثارت إعجاب صاحب المأوى، وأدخلت السرور والفرح في نفسه، فأحله على غير رغبة منه في أعلى موضع وأحسنه، أما الحرص والتكبر والتعالي فهو الذي مر عليه غضب وغيظ صاحب المأوى، فوضعه في أخس موضع من المضيف.

وعلى أي حال فإن الأثر السيء للحرص، وعواقبه الوخيمة ملحوظة من كل جانب من جوانب السلوك البشري، ومن أمثلتها التي رواها النورسي قائلاً:

" يمكن أن يشعر كل شخص استياء واستثقالاً في قلبه تجاه متسول يلح بحرص شديد، حتى انه يرده، بينما يشعر إشفاقاً وعطفاً تجاه متسول أخر وقف صامتاً قنوعاً، فيتصدق عليه ما وسعه.

ومثلاً، إذا أردت أن تغفو في ليلة أصبتَ فيها بالأرق. فإنك تهجع رويداً رويداً إن أهملته ولم تبال به، ولكن إن حرصت على النوم وقلقت عليه وبدأت تتمتم: ترى متى أنام، أين النوم مني، لتبدد النوم ولفقدته كلياً.

ومثلاً: تنتظر أحدهم بفارغ الصبر، وأنت حريص على لقائه لأمر مهم فتشعر بالقلق قائلاً: لم لم يأت، ما باله تأخر، وفي النهاية يزيح الحرص الصبر من عندك، ويضطرك إلى مغادرة مكان الانتظار يائساً،

وإذا بالشخص المنتظر يحضر بعد هنيهة، ولكن النتيجة المرجوة قد ضاعت وتلاشت".[1]

أما السر الكامن خلف تلك الأمثال، والحكمة المتوارية في معانيها فيبينه النورسي قائلاً:

" مثلما يترتب وجود الخبز على أعمال تتم في المزرعة والبيدر والطاحونة والفرن. فإن ترتب الأشياء كذلك يقترن بحكمه التأنّي والتدرج، ولكن الحريص بسبب حرصه لا يتأنّى في حركاته ولا يراعي الدرجات والمراتب المعنوية الموجودة في ترتب الأشياء، فإما أن يقفز ويطفر فيسقط، أو يدع إحدى المراتب ناقصة فلا يرتقي لغايته المقصودة".[2]

إن توزيع الأرزاق – وكما يفهم من العبارة السابقة – يتم وفقاً لتقدير الله، وطبقاً لحكمة تراعي ما يصلح عنده الناس ولا يفسدون، وبميزان دقيق يحقق العدل في العطاء، والحريص لا يضع في اعتباره كل هذه المعاني، ولا يرزق مع شدة سعيه وكدحه إلا ما هو مقدر ومقسوم له.

عداء المؤمن لأخيه

إن ما يضمره المؤمن في قلبه من حقد وغضب لأخيه المؤمن هو في الحقيقة ظلم فادح لا يحتمل. ومثل النورسي لهذا العداء الذي قد يصرفه حتى عن نفسه، فقال مخاطباً له:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 353

(2) المكتوبات – النورسي ص 353

" هب أنك في سفينة أو في دار ومعك تسعة أشخاص أبرياء ومجرم واحد، ورأيت من يحاول إغراق السفينة، أو هدم الدار عليكم فلا مراء – في هذه الحالة – ستصرخ بأعلى صوتك محتجاً على ما يرتكبه من ظلم قبيح، إذ ليس هناك قانون يسوغ إغراق سفينة برمتها تضم مجرمين طالما فيها برئ واحد".[1]

فلا شك أن في محاولة إغراق سفينة، أو تدمير بيت، لمعاقبة مجرم واحد، أو الانتقام منه، جريمة وجور لا يقبله عقل ولا تقره شريعة، فوق كونه استهتاراً بالغاً بقيمة الحياة الإنسانية، ومنه خلص النورسي للقول:

" فكما أن هذا ظلم شنيع وغدر فاضح، كذلك انطواؤك على عداء وحقد مع المؤمن الذي هو بناء رباني وسفينة إلهية لمجرد صفة مجرمة فيه، تستاء منها أو تتضرر بها. مع أنه يتحلى بتسع صفات بريئة، بل بعشرين منها كالإيمان والإسلام والجوار الخ، فهذا العداء والحقد يسوقك حتماً إلى الرغبة ضمناً في إغراق سفينة وجوده، أو حرق كيانه، وما هذا إلا ظلم شنيع وغدر فاضح".[2]

فلا يعقل إذن أن يحمل المؤمن لأخيه عداوة وغضب لوجود عيب أو نقص في مسلكه، قد يجره إلى إيذائه وإهلاكه، متجاهلاً وجود حسنات كثيرة فيه، فيكون حاله في الظلم وعدم الوفاء بحقوق أخوة الإيمان كَمَنْ يحاول إغراق السفينة، وتقويض البيت من أركانه لوجود مجرم فيه، دون مراعاة لقيمة الحياة الإنسانية في حد ذاتها.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 340

(2) المكتوبات – النورسي ص 340

الصلح

يعتقد النورسي أنه لا حل لمعظم الخلافات والخصومات الناشبة بين الأهل والأقارب والمعارف إلا بالصلح والمصالحة بين الطرفين المتعادين، وهو سلم أمر به القرآن، ودعا إليه الحق، وفيه مصلحة للطرفين، وتقتضيه الإنسانية، ويحث عليه الرسول عليه السلام.

وأوضح النورسي تلك الضرورة الملحة للسلم والمسالمة من خلال المثال التالي:

" إن أحداً قد قتل شقيق شخص آخر أو أحد أقربائه، فهذا القتل الناجم من لذة غرور الانتقام التي لا تستغرق دقيقة واحدة تورثه مقاساة ملايين الدقائق من ضيق القلب وآلام السجن، وفي الوقت نفسه يظل أقرباء المقتول في قلق دائم وتحيّن الفرص لأخذ الثأر، كلما فكروا بالقاتل ورأوا ذويه، فتضيع منهم لذة العمر ومتعة الحياة، بما يكابدون من عذاب الخوف والقلق والحقد والغضب".[1]

إن الفعل الذي تأثر به في واقع الأمر شخص واحد هو المقتول، تتسع دائرة تأثيره لشناعته، فيتأذى منه أهل القاتل والقتيل على السواء، ولا راحة ولا اطمئنان ولا سلام ولا سكينة، إلا في الصلح الذي تدعو إليه الحقيقة، وتحث عليه مصلحة الجميع، فيقول النورسي في بيانه الأمرين معاً:

" لأن الأجل واحد لا يتغير، فذلك المقتول على كل حال ما كان سيظل على قيد الحياة ما دام أجله قد جاء، أما ذلك القاتل فقد أصبح وسيلة لذلك القضاء الإلهي، فإن لم يحل بينهما الصلح، فسيظلان

---

(1) الكلمات – النورسي ص 169

يعانيان الخوف وعذاب الانتقام مدة مديدة، فإن لم يكن ذلك القتل قد نجم من عداء أصيل ومن حق دفين، وكان أحد المنافقين سبباً في إشعال الفتنة، فيلزم الصلح فوراً، لأنه لولا الصلح لعظمت تلك المصيبة الجزئية ودامت، بينما إذا تصالح الطرفان، وتاب القاتل عن ذنبه، واستمر على الدعاء للمقتول، فإن الطرفين يكسبان الكثير، حيث يدب الحب والتآلف بينهما، فيصفح هذا عن عدوه، ويعفو عنه واجداً أمامه أخوة أتقياء أبراراً بدلاً من شقيق واحد راحل، ويستسلمان معاً لقضاء الله وقدره".[1]

فالنورسي يرى أن ضرورة الصلح نابعة من حقيقة إيمانية كبرى وهي أن من قتل إنما قتل بأجله، والتسليم بها كاف لأن يستل من قلوب الجميع كل عداء قد يتولد بينهم. بل قد ينقلبوا أحبة وأخوة يسود بينهم السلام والوئام، بدلاً عن الحقد والكراهية.

أخلاق النورسي

لاحظ العديد ممن يتولون خدمة النورسي سواء في أماكن إقامته الجبرية أو أثناء فترات سجنه الطويلة، سلوكه اللافت للنظر في أخلاقياته. وفي مسلكه تجاههم، فوجه إليهم مكتوباً خاصاً لإزالة حيرتهم وللكشف عن الغموض في شخصيته، وأيضاً للتعديل من حسن الظن المفرط الذي يحمله له البعض منهم، جاء فيه.

" إن الإنسان قد يحمل شخصيات عدة، وتلك الشخصيات ذات أخلاق متمايزة متباينة، فمثلاً:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 169، 170

إن الموظف الكبير له شخصية خاصة به أثناء اشغاله مهمته من موقعه الرفيع ومقام وظيفته، هذا المقام يتطلب وقاراً وأطواراً ليصون كرامة موقعه وعزة مقام المسؤولية، فإظهار التواضع لكل زائر فيه تذلل وتهوين من شأن المقام.

ولكن هذا الشخص نفسه يملك شخصية أخرى خاصة به في بيته وبين أهله، وذلك يتطلب منه أخلاقاً مباينة لما في الوظيفة، بحيث كلما تواضع أكثر كان أفضل وأجمل، في الوقت الذي إذا أبدى شيئاً من الوقار يعد ذلك تكبراً منه.

أي أن هناك شخصية خاصة بالإنسان باعتبار وظيفته، هذه الشخصية تخالف شخصيته الحقيقية في نقاط كثيرة، فإن كان ذلك الموظف أهلاً لوظيفته وكفؤاً لها، ويملك استعداداً كاملاً لإدارة عمله، فإن كلتا الشخصيتين متقاربتان بعضهما من بعض، بينما لو لم يكن أهلاً لوظيفته وفقيراً في قابلياته كأن يكون جندياً نصب في مقام مشير، فالشخصيتان تتباعدان بعضهما عن بعض، إذ صفات الجندي الاعتيادية وأحاسيسه البسيطة لا تنسجم مع ما يقتضيه مقام المشير من أخلاق رفيعة".[1]

والمراد أن شخصية المرء تتبدل وتختلف تبعاً للدور المنوط به أداءه في المجتمع، إذ كل دور أو وظيفة تتطلب مسلكاً معيناً وأخلاقاً خاصة، بها ينسجم مع محيطه الاجتماعي، ويستطيع من خلالها القيام بدوره كاملاً.

فإذا كان موظفاً وتبوأ مركزاً قيادياً في الدولة، فعندها يظهر بشخصية يغلب عليها الرزانة والحلم، مع حزم وصراحة وصلابة في

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 410،411

الرأي، وإظهار نقيض هذه، يضعف من هيبة وظيفته، ويقلل من شأنه هو في عين أقرانه وفي أعين من هم دونه في المرتبة والوظيفة.

أما في محيط الأسرة فيظهر بشخصية يغلب عليها التواضع والبساطة، ويسودها الشفقة والرحمة والتودد، فإذا ظهر بنقيضها، نفر منه أقرب الناس إليه، وابتعدوا عنه كراهية لتعاليه وتجبره عليهم، ويغدو وجوده بينهم لا يحتمل.

على أن المحك الأساس في سلامة الشخصية متعددة الجوانب هو خلوها من التعقيد، وبعدها عن التكلف، وسهولة التعامل معها، وبذلك يمكنه أداء مختلف الوظائف بسهولة ويسر. تثبت فعلاً مقدرته على العمل، وصلاحيته له، وتهيؤه واستعداده التام للقيام به.

وبناء على ذلك كشف النورسي لمريديه عن شخصياته المتعددة قائلاً:

" وهكذا فإن في أخيكم هذا الفقير ثلاث شخصيات، كل منها بعيدة عن الأخرى كل البعد، بل بعداً شاسعاً جداً.

الأولى: شخصية مؤقتة لخدمة القرآن وحده، بكوني دلالاً لخزينة القرآن الحكيم السامية، فما تقتضيه وظيفة الدعوة إلى القرآن والدلالة عليه من أخلاق رفيعة سامية ليست لي، ولا أنا أملكها، وإنما هي سجايا رفيعة يقتضيها ذلك المقام الرفيع، وتلك الوظيفة الجليلة. فكل ما ترونه من أخلاق وفضائل من هذا النوع فهي ليست لي، وإنما هي خاصة بذلك المقام. فلا تنظروا إليّ من خلالها.

والثانية، حينما أتوجه إلى بابه وأتضرع إليه. ينعم عليّ سبحانه بشخصية خاصة في أوقات العبادة، بحيث إن تلك الشخصية تولد أثاراً ناشئة من أساس معنى العبودية، وذلك الأساس هو معرفة الإنسان

تقصيره أمام الله، وإدراك فقره نحوه، وعجزه أمامه، والالتجاء إليه بذل وخشوع، فأرى نفسي بتلك الشخصية أشقى وأعجز وأفقر وأكثر تقصيراً أمام الله من أي أحد كان من الناس. فلو اجتمعت الدنيا في مدحي والثناء عليّ لا تستطيع أن تقنعني بأنني صالح وفاضل.

والثالث: هي شخصيتي الحقيقية، أي شخصيتي الممسوخة من سعيد القديم، وهي عروق ظلت في ميراث سعيد القديم، فتبدو فيّ أحياناً رغبة في الرياء وحب الجاه، وتبدو فيّ أخلاق وضيعة مع خسة في الاقتصاد، حيث إنني لست سليل عائلة ذات حسب". [1]

فالنورسي إذن يظهر لمحبيه بثلاث شخصيات، وذلك من خلال ثلاثة مواقف:

أولها: كونه خادماً للقرآن ومفسراً له، وذلك يتطلب منه بالضرورة إظهار أخلاق القرآن الرفيعة وصفاته السامية.

وثانيها: قيامه بعبادة الله واستغراقه في ذكره، فيهب الله له وقت العبادة والذكر شخصية يظهر فيها ذلك العبد العاجز المسكين، المقصر في حقوق نفسه وحقوق ربه، وهي الشخصية التي لا يرى في نفسه فضلاً ولا صلاحاً.

وثالثها: وهي شخصيته الجديدة المنتقلة إليه من شخصية سعيد القديم، ولأجل ذلك فهي ليست ثابتة في أخلاقها، بل متقلبة، فتارة تتقرب من الدنيا، وتارة تبتعد عنها فتظهر شخصية سعيد الجديد خادم القرآن والعامل لأخراه.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 411

التعارف والتعاون

يرى النورسي أن الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[1]

وضعت قاعدة جليلة للتعارف والتعاون بين المسلمين، وشبَّه ذلك بتعارف الجند وتعاونهم في الجيش الواحد، فقال:

" يقسم الجيش إلى فيالق وإلى فرق وإلى ألوية وإلى أفواج وإلى سرايا وإلى فصائل وإلى حظائر، وذلك ليعرف كل جندي واجباته حسب تلك العلاقات المختلفة المتعددة، وليؤدي أفراد ذلك الجيش تحت دستور التعاون وظيفة حقيقية عامة لتعاون حياتهم الاجتماعية من هجوم الأعداء، وإلاّ فليس هذا التقسيم والتمييز إلى تلك الأصناف لجعل المنافسة بين فوجين، أو إثارة الخصام بين سريتين، أو وضع التضاد بين فرقتين".[2]

إن الهدف الجوهري من تقسيم الجيش ذلك التقسيم المتناهي في دقته في الرتب والمناصب والوحدات المقاتلة، هو تحقيق أعلى درجات الانضباط بين الجنود، وذلك من خلال معرفة كل جندي بما يجب أداؤه وعمله، وليتعاون الجميع فيما بينهم تعاوناً قوياً، حفاظاً على حياتهم، وتنفيذاً للمهام الملقاة على عواتقهم بكل حزم وشدة، ولا يراد بطبيعة الحال من تلك القسمة ولا ذلك النظام خلق أي شكل من أشكال الشقاق والمنازعات بين الجند أو وحداتهم يؤدي إلى

---

(1) الحجر/ 23

(2) المكتوبات – النورسي ص 413

الفوضى وتفكيك الجيش.

والمثل في صورته تلك ينطبق تمام الانطباق على المجتمع المسلم يقول عنه النورسي:

" وكذلك الأمر في المجتمع الإسلامي الشبيه بالجيش العظيم، فقد قسّم إلى قبائل وطوائف، مع أن لهم ألف جهة وجهة من جهات الوحدة، إذ خالقهم واحد، ورازقهم واحد، ورسولهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ووطنهم واحد، وهكذا واحد واحد، إلى الألوف من جهات الوحدة التي تقتضي الأخوة والمحبة والوحدة، بمعنى أن الانقسام إلى طوائف وقبائل – وكما تعلنه الآية – ما هو إلا للتعارف والتعاون لا للتناكر والتخاصم".[1]

فعلى الرغم من أن المجتمع المسلم يشكل أمة واحدة متحدة في كل شيء، إلا أن سنة الحياة اقتضت تقسيمها إلى كيانات اجتماعية متفرقة، وجماعات كثيرة مستقلة بنفسها، وذلك بقصد معرفة كل منهم للآخر، لتتقوى بينهم أخوة الإيمان، ووحدة الإسلام، ولإشاعة روح التعاون فيما بينهم. ولتشتد به عرى المحبة، وذلك لأن في جهلهم لبعضهم البعض، وفي عدم تعاونهم، يسود التخاصم والعداء.

كفران النعمة

إذا أنعم الله تعالى على عبده بنعمة، وأبدى إزاءها من ضروب التواضع حد الإنكار وعدم الاعتراف، فقد جحدها وكفر بها، كما أن التحدث بها متفاخراً ومتباهياً أمام الناس، هو أيضاً في حكم الجحود

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 413،414

والكفران، وكلاهما فيه من الضرر والأذى الشيء الكثير، ولا سبيل إلى الخلاص منهما، إلا باتباع نصيحة النورسي التي جاء فيها،

" الإقرار بالمزايا والفضائل دون ادعاء تملكها، أي إظهارها أنها آثار إنعام المنعم الحقيقي جل وعلا".[1]

أي الاعتراف بالنعمة وإثبات كونها فضلاً وإحساناً من عند الله، ولكن دون نسبتها لنفسه على جهة الملك والملكية، ثم مثل لها بقوله:

" إذا ألبسك أحدهم بدلة فاخرة جميلة، وأصبحت بها جميلاً وأنيقاً، فقال لك الناس، ما أجملك، لقد أصبحت رائعاً بها، وأجبتهم متواضعاً: كلا من أنا، أنا لست شيئاً، أين الجمال من هذه البدلة، فإن جوابك هذا كفران بالنعمة بلا شك، وسوء أدب تجاه الصانع الماهر الذي ألبسك البدلة، وكذلك إن قلت لهم مفتخراً: نعم أنني جميل فعلاً، فأين مثلي في الجمال والأناقة، فعندها يكون جوابك فخراً وغروراً".[2]

ومن المثل يتبين أَنَّ خطأَ من يتواضع إلى من أحسن إليه إلى حد الإنكار الصريح وعدم الاعتراف بالجميل، لا يختلف عن خطأ من يتباهى بما أحسن إليه إلى حد التبجح الفارغ والمخرج الوحيد من هذين الضارين هو الذي ارتأه النورسي في قوله:

" الاستقامة بين كفران النعمة والافتخار هو القول:

" نعم أنني أصبحت جميلاً حقاً، ولكن الجمال لا يعود لي، وإنما إلى البدلة، بل الفضل يخص الذي ألبسنيها".[3]

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 477

(2) المكتوبات – النورسي ص 477

(3) المكتوبات – النورسي ص 477

يعني أن الخلاص والصلاح في الاعتدال والاستواء والتوسط بين الموقفين المتعارفين، الجحود والتبجح، فيقرّ معترفاً بالنعمة والإحسان إليه، على ألاّ يدعي لنفسه حظاً فيها، وألاّ ينسب شيئاً ليس له، بل للواهب المعطى.

حب الجاه

يميل كل إنسان بطبعه إلى احتلال منزلة عالية ورفيعة المستوى، بين أقرانه وفي أعين الناس، وربما انساق بدافع الحرص على الشهرة وذيوع الصيت إلى إصدار كثير من المعاني الخيرة في نفسه، هذا إذا لم تدفعه دفعاً للوقوع في المهالك.

والصورة التالية هي خير مثال لما يفعله حب الجاه في النفوس، قال فيه النورسي:

" هب أن جامع آيا صوفيا، مكتظ بأهل الفضل والكمال من الطيبين الموقرين، وكان في الباب أو في الأروقة صبيان وقحون وسفهاء سفلة، وكان على الشبابيك سياح أجانب مغرمون باللّهو واللعب.

فإذا دخل أحد الجامع وأنضم إلى تلك الجماعة الفاضلة، وتلا آيات من الذكر الحكيم، فعندئذ تتوجه أنظار ألوف من أهل العلم والفضل إليه ويكسبونه ثواباً عظيماً بدعائهم له ورضاهم عنه، إلاّ أن هذا لا يروق لأولئك الصبيان الوقحين والملحدين السفهاء والأجانب المعدودين.

ولكن لو دخل الرجل الجامع والجماعة الفاضلة وبدأ بالغناء الماجن، وشرع بالرقص والصخب، فسيكون موضع إعجاب وسرور أولئك الصبيان السفهاء. ويلاطف عمله أولئك الغواة، ويجلب له

ابتسامات ساخرة من الأجانب الذين يسرون برؤية نقائص المسلمين، بينما تنظر إليه تلك الجماعة الغفيرة الفاضلة في الجامع نظرة تحقير وإهانة، ويرونه في أدنى الدركات، وفي اسفل سافلين".[1]

فالجامع يضم ثلاثة أصناف من الناس، أولهما أهل الخير والصلاح، وهم يحتلون صحنه، ويقف على بابه الصنف الثاني من الشباب الموصوفين بقلة الحياء وسوء الأدب والغوغائية، وعلى النوافذ يجلس الصنف الثالث وهم الأغراب الذين قدموا حباً للعبث وترويحاً عن النفس.

فلو فرض أن دخل رجل واتجه مباشرة للجماعة الخيرة، واشترك معهم فيما يفعلونه، فلا شك أن اجتماعهم به سيكسبه أجراً عظيماً، ولكن عمله هذا لا يعجب الشباب، ولا الأجانب الأغيار.

ولو فرض أيضاً أن الرجل نفسه دخل المسجد، وبدأ يغنى غناءاً فاضحاً، ثم اتبعه بالرقص الخليع والصياح المجنون، فإن عمله بلا شك سيسر له أولئك الشباب العابثون، ويكون مدعاة للاستهزاء من الأجانب الأغيار، في حين يستصغره أهل الخير ويستخفون به.

وفسر النورسي المثل بقوله:

" وعلى غرار هذا: فإن العالم الإسلامي، وقارة آسيا جامع عظيم ومن فيه من المؤمنين وأهل الحقيقة هم الجماعة الفاضلة في ذلك الجامع، وأولئك الصبيان الوقحون هم أولئك المتزلفون ذوو العقول الصبيانية، وأما أولئك المفسدون والسفهاء فهم الملحدون المتفرنجون الذين لا يعرفون ديناً ولا ملة، أما الأجانب المتفرجون، فهم الصحفيون الذين ينشرون أفكار الأجانب.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 533

فكل المسلمين لاسيما من ذوي الفضل والكمال، لهم موقع في هذا الجامع المهيب، كل حسب درجته، وتلفت إليه الأنظار حسب موقعه، فإن صدرت منه أعمال وتصرفات تنم عن الإخلاص – الذي هو أساس الإسلام – وابتغاء رضى الله، على وفق ما أمر به القرآن العظيم من أحكام وحقائق، ونطق لسان حاله بالآيات القرآنية معنىً عندئذ يدخل ضمن الدعاء الذي يدعوه كل فرد من أفراد العالم الإسلامي وهو:

- اللّهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات.

ويكسب حظاً منه، ويكون ذا علاقة قوية مع جميع المؤمنين، ولكن لا يبدو موقعه في نظر بعض أهل الضلالة ممن هم كالحيوانات المضرة، ولا تظهر مكانته لدى الحمقى الذين هم كالصبيان الملتحين.

ولو أدار ذلك الرجل ظهره عن مجد أجداده ولم يعدهم رمز شرفه، وتناسى تاريخه الذي يعتبره مدار فخره، وترك الجادة النورانية، جادة السلف الصالح الذي يعده مستند روحه، وباشر أعمال وتصرفات ملوثة بالهوى والرياء نيلاً للشهرة وارتكاباً للبدع، فإنه يتردى معنى في نظر أهل الحقيقة والإيمان إلى الدرك الأسفل، إذ المؤمن مهما كان جاهلاً ومن عوام الناس، فإن قلبه يشعر وإن لم يدرك عقلُه، فينفر ويستثقل أعمال أمثال هذا الرجل من المعجبين بأنفسهم.

وهكذا يسقط الأناني المفتون بحب الجاه واللاهث وراء الشهرة (الرجل الثاني)، ويتردى إلى أسفل سافلين في نظر جماعة غفيرة غير محدودة، ويكسب موقعاً مشئوماً مؤقتاً لدى عدد من السفهاء السافرين الطائشين، إذ لا يجد حوله غير أصدقاء مزيفين مضرين له في الدنيا، وسبب عذاب في البرزخ وأعداء في الآخرة.

أما الرجل في الصورة الأولى، فإن لم يُزل حب الجاه من قلبه، يكسب نوعاً من مقام معنوي مشروع يشبع إشباعاً تاماً عرق حب الجاه المغروز فيه، ولكن يشترط اتخاذ الإخلاص ورضا الله أساساً له، مع عدم اتخاذ حب الجاه هدفاً له".[1]

ومفاد التفسير أن الجامع الكبير هو مجتمع المسلمين المكون من خيار أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم من خرج عن الملة واتبع الغرب في عاداته وتقاليده وثقافته، فمنهم كفر بالإسلام وارتد عنه، ومنهم مَنْ تشبه بهم في الظاهر محتفظاً بثقافة الإسلام وعاداته، أما الأجانب الأغيار فهم من تبنى فكر الغرب، ويعمل على إشاعته بين المسلمين.

ومن يعمل من أبناء المسلمين على إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام والدعوة إليه، مخلصاً إخلاصاً لا تشوبه شائبة من الرياء، فسوف ترتفع منزلته وتسمو مكانته في الأمة، ويحظى برضا خيارها وأفاضلها، فيدعون له بالتوفيق في كل وقت وحين، بينما يظل مجهولاً من المنحرفين من أبناء الأمة، ولا يلتفت إليه الأغيار.

أما إذا أعرض عن ثقافة الأمة وتراثها، وانسلخ عن ماضيها وحاضرها، وأقدم على أعمال بعيدة عن المنهج القويم، قاصداً بذلك الشهرة والجاه العريض، ونيل الحظوظ لدى الأغيار، فإنه حتماً يسقط في أعين المسلمين خواصهم وعوامهم، فيترفعون عن أعماله، ويحتقرون مسلكه الدال على خيانة الأمة وتاريخها.

بيد أنه يتبوأ منزلة رفيعة عند الأغيار، وينال إعجابهم وتقديرهم له ولأعماله، ومن خواصهم على وجه التحديد، ولكن لفترة قصيرة، وبين

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 534،535

أناس فاسدين يظهرون أمامه بغير حقيقتهم تملقاً له واحتقاراً لخيانته، وبذلك يخسر دنياه وأخراه.

وكما يرى النورسي فلا مشاحة في أن يعمل المسلم للإسلام والقرآن عملاً لا يخالطه حب الجاه والشهرة والصيت، وكل ما يشبع حبه الجبلي، ويرضى نفسه الميالة لأفراح الدنيا، شريطة اخلاص النية لله، ولا يكون هدفه وغايته حب الجاه والشهرة.

الخوف

يترجح الخوف كانفعال وشعور نفسي بين أمرين:

- إما توقع وانتظار حدوث مكروه للنفس.
- أو ضياع أشياء محبوبة وأثيرة عندها.

فهو في كلتا الحالتين تصور لشر وشيك الوقوع، وليس هذا أو ذاك مما يعاب أو يذم عليه، لأن الخوف شعور عميق في النفس البشرية، وعامل فطري في المحافظة على الحياة، ولكنه قد يتحول في بعض الأحيان إلى ظاهرة مرضية أشبه بالقلق تطفح أعراضه في ردود فعل عنيفة ومتباينة، قد تجر صاحبه إلى مواقف مهلكة ومدمرة لكيانه النفسي والبدني.

ونبه النورسي إلى نوعين من هذه المهالك قائلاً:

" شخص حيّال يُظهر لأحدهم ما يخافه – وهو على سطح دار – فيثير أوهامه ويدفعه تدريجياً إلى الوراء حتى يقربه من الحافة فيرديه على عقبه فيهلك.

كذلك يثير أهل الضلالة عرق الخوف لدى الناس فيدفعونهم إلى

التخلي عن أمور جسام من جَرَّاء مخاوف تافهة لا قيمة لها، حتى يدخل بعضهم في فم الثعبان لئلا تلسعه بعوضة".[1]

أما المثل الذي ساقه محذراً فيه من مغبة ذلك الخوف المرضي فرواه من واقع تجربة شخصية مرت به، حيث قال:

" جئت ذات مساء إلى جسر إسطنبول وبصحبتي عالم جليل (رحمه الله)، يتهيب ركوب الزورق، ولكننا لم نجد وساطة نقل سوى الزورق، ونحن مضطرون إلى الذهاب إلى جامع أبي أيوب الأنصاري، فألمحت عليه، إذ لا حيلة لنا إلا ركوبه، فقال:

- أخاف، ربما نغرق.

قلت له:

- كم يقدر عدد الزوارق في هذا الخليج.

قال:

- ربما ألف زورق.

قلت:

- كم زورقاً يغرق في السنة؟

قال:

- زورق أو زورقان، وقد لا يغرق في بعض سنين.

قلت:

- كم يوماً في السنة؟

قال:

- ثلاثمائة وستون يوماً.

قلت:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 535

- إن احتمال الغرق الذي استحوذ على ذهنك، وأثار فيك الخوف هو احتمال واحد من بين ثلاثمائة وستين ألف احتمال، فالذي يخاف من هذا الاحتمال لا يعد إنساناً ولا حيواناً.

ثم قلت له:

- ترى كم تقدر أن تعيش بعد الآن؟

قال:

- أنا شيخ كبير ربما أعيش عشر سنوات أخرى.

قلت:

- إن احتمال الموت واقع في كل يوم، حيث إن الأجل مخفي عنا، لذا فهناك احتمال الموت في كل يوم، أي لك ثلاثة آلاف وستمائة احتمال للموت، فليس أمامك إذن احتمال واحد من بين ثلاثمائة ألف احتمال – كما في الزورق – وإنما احتمال من بين ثلاثة آلاف احتمال، فلربما يقع الاحتمال هذا اليوم. فما عليك إذن إلا الهلع والبكاء وكتابة وصيتك".[1]

إن خوف ذلك الشيخ هو من نوع الخوف من المجهول، أي مما تهدد به العناصر الطبيعية، ولكن حوار النوري الواقعي والمنطقي رده إلى رشده وأعاده إلى صوابه، وبينما هم على سطح الزورق قال له:

" إن الله تعالى قد منحنا الشعور بالخوف لنحفظ به الحياة لا لهدم الحياة وتخريبها، ولم يمنحنا هذا الشعور لنجعل الحياة أليمة ومعضلة ومرهقة، فإن كان الخوف ناشئاً من احتمالين أو ثلاثة، بل حتى من خمسة أو ستة احتمالات فلا بأس، فلربما يعد ذلك خوفاً مشروعاً من باب الحيطة والحذر، أما إن كان الخوف ناشئاً من احتمال واحد من

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 536

بين عشرين أو أربعين احتمالاً، فليس هذا خوفاً، وإنما هو وهم يستولي على الإنسان، ويجعل حياته عذاباً وشقاءً".[1]

فالخوف إذن شعور طبيعي وهبه الله كي يتخذه المرء مطية في حياته الدنيوية، وبه يسلك مسلكاً لا تهور فيه ولا اندفاع، ولا تردد أو امتناع عن الحركة، بل يقف به موقفاً لا إفراط فيه ولا تفريط، وفي الحدود المقبولة عقلاً وواقعاً، أما إذا تجاوزها فعندئذ لا يعد الخوف خوفاً طبيعياً، بل في عداد الخواطر المغلوطة الناجمة عن خداع النفس وظنونها الكاذبة، أو تخيلات ذهنية لا أساس لها في الواقع.

المصائب

وضع النورسي قاعدة عامة إزاء المصائب والشدائد التي تنزل بالإنسان، وتحل في جسمه، وفحواها:

" كلما استعظمت المصائب المادية عظمت، وكلما استصغرتها صغرت".[2]

يعني إذا ضخم العبد مصائبه، وأعطاها حجماً أضعاف حجمها الطبيعي، تضخمت وكبرت، وشغلت في نفسه مساحة لا تستحقها، أما إذا قلل من شأنها وصغّر من أهميتها، هانت في نفسه، وسهل عليه تحملها.

ومثل النورسي لتلك القاعدة قائلاً:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 536،537

(2) اللمعات – النورسي ص 17

" كلما اهتم الإنسان بما يتراءى له من وهم ليلاً يضخم ذلك في نظره، بينما إذا أهمله يتلاشى، وكلما تعرض الإنسان لوكر الزنابير ازداد هجومها. وإذا أهملها تفرقت".[1]

فمن غير شك إن من يولى عناية خاصة وتركيز مستمر لكل ما يظهر له ليلاً من تخيلات وتهيؤات ذهنية لا أصل لها، تزيد في نظره وتكبر، أما إذا طرحها جانباً ولم يأبه بها، تلاشت واندثرت وتبددت، وكذلك الحال مع الزنابير، فإذا أقبل عليها تعاظمت شراستها وحدتها في الهجوم عليه. وإذا لم يشغل باله بها أحجمت عن مهاجمته.

والمثل ينطبق تماماً على المصائب الجسمية.

" فالمصائب المادية كذلك، كلما تعاظمها الإنسان واهتم بها وقلق عليها تسربت من الجسد نافذة في القلب واستقرت فيه، وعندها تتنامى مصيبة معنوية في القلب، وتكون ركيزة للمادية منها، فتستمر الأخيرة وتطول، ولكن متى ما أزال الإنسان القلق والوهم من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحمته تضمحل المصيبة المادية تدريجياً وتذهب، كالشجرة التي تموت وتجف أوراقها بانقطاع جذورها".[2]

ومقصوده أن تفخيم المصائب وتكبيرها، لا تقف خطورته على الجسم وحده، بل تمتد لشدة وقعها على الجسم إلى النفس، ومن النفس تنتقل إلى القلب، فتتوطن فيه وتسكن، لتشكل بثباتها ذلك أساساً ومنطلقاً لكل المصائب الجسمية، فتقوى وتزيد ويطول أمدها.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 17

(2) اللمعات – النورسي ص 17،18

أما إذا فوض أمره لله، وسلم بحكمه وقضائه فيه عن اعتقاد قلبي جازم، وقناعة عقلية بينة، فإن مصائبه البدنية مهما بلغت من القوة والشدة، فهي في طريقها إلى التلاشي والانحلال شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي نهائياً.

اختلاف أهل الحق واتحاد أهل الباطل

من أكثر الأمور مدعاة للحيرة، وأكثرها إثارة للقلق ودافعة إلى الشفقة، اختلاف أهل الحق وعدم اتفاقهم في الكثير مما يجمع بينهم، واتحاد أهل الباطل وتقاربهم على الرغم من الكثير مما يفرق بينهم. ومرجع ذلك كما يفسره النورسي إلى:

" أن اختلاف أهل الهداية وعدم اتفاقهم ليس نابعاً من ضعفهم، كما أن الاتفاق الصارم بين أهل الضلالة ليس نابعاً من قوتهم، بل إن عدم اتفاق أهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة إلى القوة، لما يمدهم به إيمانهم الكامل من مرتكز قوي، وأن اتفاق أهل الغفلة والضلالة ناجم عن الضعف والعجز، حيث لا يجدون في وجدانهم مرتكزاً يستندون إلى قوته، فلفرط احتياج الضعفاء إلى الاتفاق تجدهم يتفقون اتفاقاً قوياً، ولضعف شعور الأقوياء بالحاجة إلى الاتفاق يكون اتفاقهم ضعيفاً".[1]

فمرد اختلاف هؤلاء واتحاد أولئك إلى شعور وحاجة كل منهم إلى ما يدفعهم للاتفاق والوحدة، فأهل الحق لهم من القوى الذاتية ما يضعف إحساسهم بالحاجة إلى ما يتفقون به أو يزيد في قوتهم، في

---

(1) اللمعات – النورسي ص 233

حين أن الضلال والشرور التي يحملها أهل الباطل في نفوسهم ينشئ فيهم شعوراً بالفقر وإحساساً بالعجز يدفعهم للبحث عن قوة خارجية تشد من أزرهم. وتؤلف بينهم، وتمنحهم القدرة على مواجهة الشدائد.

والفئتان وكما يقول النورسي:

" كمثل الأسود والثعالب التي لا تشعر بالحاجة إلى الاتفاق. فتراها تعيش فرادى، بينما الوعل والماعز الوحشي تعيش قطعاناً خوفاً من الذئاب".[1]

فالأسود والثعالب لامتلاكها القوة للتصدي لأعدائها يجعلها في غير حاجة إلى الاتحاد، فتنتقل فرادى آمنة مطمئنة، أما الوعل والماعز فحيوانات بطبيعتها ضعيفة وهدف سهل لمن هو أقوى منها، فتلجأ للعيش في جماعات لحماية نفسها ودرء خطر الأعداء عنها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى العميق، إذ أسند:

" الفعل (قال) بصيغة المذكر إلى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾[2] بينما جاء الفعل قالت بصيغة المؤنث في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾[3] وهم جماعة من الذكور، مما يشير إشارة لطيفة إلى أن جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقتضت الحال صيغة المذكر، فجاء الفعل "قال" مناسباً وفي غاية من الجمال.

أما الرجال الأقوياء فلأنهم يعتمدون على قوتهم، ولا سيما

---

(1) اللمعات – النورسي ص 233

(2) يوسف/ 30

(3) الحجرات/ 14

الأعراب البدويون، فتكون جماعتهم ضعيفة كأنها تكسب نوعاً من خاصية الأنوثة من توجس وحذر ولطف ولين، فجاءت صيغة التأنيث ملائمة جداً".[1]

فمع أن القول صادر في كلتا الحالتين عن جماعة تشكل وحدتها الذاتية قوة لها، إلا أن جماعة النساء ضعيفة بحكم تكوينها الخلقي، ولا تملك قدرة ولا قوى ذاتية، فتلجأ هي الأخرى إلى التكاتف والتعاضد، فيتحول ضعفها إلى قوة كالتي للذكور، فناسبها صيغة المذكر في الفعل.

أما الرجال فقوتهم الذاتية الطبيعية تجعلهم في حالة استغناء دائم لغيرهم. مما يتسبب في ضعفهم ضعفاً كالضعف الملازم للنساء. فناسبهم صيغة المؤنث في الفعل.

ثم عاد النورسي مرة أخرى ليلخص مجمل الحقيقة بقوله:

" نعم إن الذين ينشدون الحق لا يرون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين لما يحملون في قلوبهم من إيمان قوي يمدهم بسند عظيم ويبعث فيهم التوكل والتسليم، حتى لو احتاجوا إلى الآخرين فلا يتشبثون بهم بقوة، أما الذين جعلوا الدنيا همهم فلغفلتهم عن قوة استنادهم ومرتكزهم الحقيقي يجدون في أنفسهم الضعف والعجز في إنجاز أمور الدنيا، فيشعرون بحاجة ملحة إلى من يمد لهم يد التعاون، فيتفقون معهم اتفاقاً جاداً لا يخلو من تضحية وفداء".[2]

والفرق كما هو واضح بين الاثنين يكمن في أن مصدر تفرق أهل الحق واختلافهم مردّه إلى تعويلهم المطلق على نقطة ارتكاز واستناد

---

(1) اللمعات – النورسي ص 233،234

(2) اللمعات – النورسي ص 234

تمدهم بأسباب القوة والمقدرة، فلا يشغلون أنفسهم بما ليسوا في حاجة إليه، والعكس منهم أهل الباطل، فإن خلوهم وتجردهم من أي مرتكز أو مستند يعولون عليه في حركتهم يجعلهم في حاجة ملحة وسعى دائم لسد هذا النقص المعيب، فيشكلون حول ذواتهم دائرة تكون مصدراً لقوتهم وسنداً لتعاونهم.

ومثل حالتهم تلك كمثل حالة:

" ذلك الصائغ اليهودي المجنون الذي اشترى قطعاً زجاجية تافهة بأثمان الأحجار الكريمة الباهظة".[1]

فالإنسان لا يتورع أبداً عن الإتيان بأي شيء في سبيل تحقيق غرضه، حتى ولو أدى ذلك إلى شراء أشياء حقيرة بسعر المجوهرات، وبهذه الطريقة ينجح أهل الباطل ويوفقون في مساعيهم، وذلك لإخلاصهم وصدقهم ومثابرتهم على العمل.

وأخيراً خلص النورسي للقول:

" ومن هنا يتغلب أهل الباطل على أهل الحق، فيفقد أهل الحق الإخلاص ويسقطون في مهاوي الذل والتصنع والرياء، ويضطرون إلى التملق والتزلف إلى أرباب الدنيا المحرومين من كل معاني الشهامة والهمة والغيرة".[2]

والمعنى أن مآل أهل الحق إلى الخسران المبين الذي يؤدي بهم إلى التجرد من الإخلاص، وينغمسون كأهل الباطل في الغش والرياء، أي يكتسبون صفات وخصائص ليست لهم ولا تتفق معهم، إلى أن

---

(1) اللمعات – النورسي ص 235

(2) اللمعات – النورسي ص 235

ينتهي بهم سوء الحال إلى الارتماء تحت أقدام أهل الباطل المجردين من أي صفة من صفات المروءة الجامعة لخصال الخير كلها.

احترام الناس للنورسي

وردت على النورسي أثناء إقامته الجبرية في بارلا التابعة لولاية إسبارطة ثلاثة أسئلة تدور حول علاقته بالسلطة السياسية بالبلاد، من أهمها هذا السؤال، جاء فيه:

" ما دمت قائماً في هذه البلاد، فعليك الانقياد لقوانين الجمهورية الصادرة فيها، فلماذا تنجى نفسك من تلك القوانين تحت ستار العزلة عن الناس.

فمثلاً: أن من يجري نفوذه على الآخرين خارج وظيفة الدولة متقلداً فضيلة ومزية لنفسه ينافي الحكومة الحاضرة ودستور الجمهورية المبنى على المساواة، فلماذا تتقلد صفة من يريد جلب الإعجاب إلى نفسه وكأنَّ على الناس الانقياد له وطاعته. وتجعلهم يقبلون يدك مع إنك لا وظيفة لك في الدولة"[1]

فمن المفترض إذا كان النورسي يعد نفسه فعلاً من مواطني الدولة ورعاياها، أن يخضع أسوة بغيره لسلطتها، ويتبع قوانينها، أو بتحديد أدق لماذا يبتعد في نجوة من الأرض، وبعيداً عن الناس بحجة الاعتزال.

أما المثل المصاحب للسؤال فيفيد:

إن من يملك تأثيراً وسلطة ولو على نطاق محدود، وعلى عدد

---

(1) اللمعات – النورسي ص 260

قليل من الخلق، وله المقدرة على توجيههم وقيادتهم، فهو بلا شك من المخالفين للدولة والخارجين على قوانينها التي تحقق المساواة والعدل بين الجميع، فلماذا إذن يتخذ لنفسه منصباً كي يعامله اتباعه معاملة أصحاب مناصب الدولة من حيث الاحترام والتقدير.

ورد النورسي على سؤالهم رداً مصحوباً هو الآخر بمثال توضيحي. جاء فيه:

" إن على منفذي القانون تنفيذه على أنفسهم أولاً ثم يمكنهم إجراؤه على الآخرين، فإجراء دستور على الآخرين دون أنفسكم يعني مناقضتكم لدستوركم وقانونكم قبل كل أحد، لأنكم تطلبون إجراء قانون المساواة المطلقة هذا عليّ بينما لم تطبقوه أنتم على أنفسكم.

وأنا أقول: متى ما صعد جندي اعتيادي إلى مقام المشير الاجتماعي، وشارك المشير فيما يوليه الناس من احترام وإجلال، ونال مثله ذلك الإقبال والاحترام، أو متى ما صار المشير جندياً اعتيادياً وتقلد أحواله الخامدة، وفقد أهميته كلها خارج وظيفته، وأيضاً متى ما تساوى رئيس ذكي لأركان الجيش قادهم إلى النصر مع جندي بليد في إقبال الناس عامة والاحترام والمحبة له، فلكم أن تقولوا حينذاك حسب قانونكم، قانون المساواة: لا تسم نفسك عالماً، أرفض احترام الناس لك، أنكر فضيلتك، أخدم خادمك رافق المتسولين".[1]

فرده يعني أن تشدق هؤلاء بدستور الدولة وقوانينها وسلطتها المطلقة، لا قيمة له ولا وزن، طالما أنهم لا يلتزمون بها، ولا يحملون أنفسهم عليها.

أما المثل الذي ساقه تدعيماً لرده فمفاده:

---

(1) اللمعات – النورسي ص 260

إنـه إذا اختلـت السـنن المسـيّرة لشـئون النـاس والمنظمـة لحيـاتهم، وتغيـرت الأسـس والقواعـد التـي يقـام عليهـا بنـاء اجتمـاعهم، ووصلت إلى مرتبة تبوأ فيها الجندي العادي مركز القائد، وهبط القائد من مركز القيـادة إلـى مركـز المقـود، فلهـم الحق عنـد ذاك وطبقـاً لقـوانين الدولـة المحققة للمساواة أن يطالبوه بتجريد نفسه من الصفات التي اكتسبها بعلمـه واجتهـاده، وأن يقابـل تقـدير النـاس وتبجـيلهم لـه بالصـدود والإنكار، ليس هذا فحسب، بل عليه أن يتنازل حتى يجعل من نفسه خادماً لخادمه.

ولا يقصد بهذا رفضه أو إنكاره لسلطة الدولة وتحقيره لقوانينها. بل سعى إلى توضيح حقيقة بديهية في حقل العمل الإسلامي، وهي أن عمله كداعية لله تعالى، وعالم من علماء الأمة، لا يتعارض مع الدولة وتشريعاتها، بل هو من جملة العاملين في خدمة. سواء كان له وظيفة أو منصب حكومي أم لم يكن له.

أما احترام الناس وتقديرهم له، فليس لشخصه، وإنما للعلم الذي يحمله، وللنور الذي يسعى لإشاعته بين الناس، وهو فوق ذلك احترام وتقدير نابع من دواخل من يتصلون به أو يتلقون عنه العلم، وليس له فيه حيلة، فكيف يطالبونه أن يتخلص ويتجرد منه، وهو لا يملك منه شيئاً.

الفصل السابع
الإنسان

الإنسان

خاطب النورسي كل من يطلب العون والمدد من الأسباب، وكل من يعتمد على مبدأ السببية في تفسير ظواهر الوجود قائلاً:

" إذا رأيت قصراً عجيباً يبنى من جواهر غريبة، لا يوجد في وقت البناء بعض تلك الجواهر إلا في الصين. وبعضها إلا في الأندلس، وبعضها إلا في اليمن، وبعضها إلا في سيبريا، وإذا شاهدت أن البناء يتم على أحسن ما يكون، وتجلب له تلك الأحجار الكريمة من الشرق والغرب والشمال والجنوب بأسرع وقت وبسهولة وفي اليوم نفسه".[1]

يعنى أن مادة ذلك القصر ومكوناته الأساسية من أثمن وأغلى ما أخرجته الأرض من معادن، والمعادن لا توجد إلا متفرقة في أركان الدنيا الأربعة، ولا يؤتى بها إلا عند التشييد، وفي سرعة متناهيين، بعدها سأل النورسي:

---

(1) اللمعات – النورسي ص 205

" فهل يبقى لديك ريب في أن بنّاء ذلك القصر باسط هيمنته على الكرة الأرضية".[1]

ولما كانت مقدرة باني القصر وسيطرته على الموجودات لا يرقى إليها شك، عندئذ رد النورسي قائلاً:

" وهكذا كل كائن بِناءٌ، وقصر، ولا سيما الإنسان، فهو من أجل تلك القصور ومن أعجبها، لأن قسماً من الأحجار الكريمة لهذا القصر البديع من عالم الأرواح، وقسم منها من عالم المثال واللوح المحفوظ، وقسم آخر من عالم الهواء، ومن عالم النور، ومن عالم العناصر، كما امتدت حاجاته إلى الأبد، وانتشرت آماله في أقطار السموات والأرض، وشرّعت روابطه وعلاقاته في طبقات الدنيا والآخرة".[2]

فالإنسان من تكوينه الظاهري والباطني يشبه ذلك القصر، فهو مكون من عناصر روحية المنشأ والمصدر، وفي غاية من السمو والشفافية، ومن عناصر مادية غاية في اللطافة والرقة، جعلته يرتبط بعلاقات واسعة ومتشعبة مع مخلوقات العالم المختلفة، وبعلاقات خاصة مع نفسه جعلت رغباته ومحبوباته وآماله لا حدود لها.

حب البقاء

إن يقين الإنسان المتأصل في نفسه بموته في كل وقت وحين، وحتمية مفارقته لأهله وأحبته، يدفعه للتشبث بأي شكل من أشكال البقاء. وتلك نزعة طبيعية متأصلة هي الأخرى في كيانه، ولكن هناك

(1) اللمعات – النورسي ص 205
(2) اللمعات – النورسي ص 205

من لا يعرف كيف يستغلها ويوجهها التوجيه الذي يحقق له فعلاً البقاء. وعن أولئك تحدث النورسي قائلاً:

" هناك بعض الحمقى يتوجه بحبه إلى المرآة إذا ما رأى الشمس فيها. وذلك لعدم معرفته الشمس نفسها، فيحافظ على المرآة بحرص شديد لاستبقاء الشمس. ولكيلا تضيع ولكن إذا تفطن أن الشمس لا تموت بموت المرآة، ولا تفنى بانكسارها توجه بمحبته كله إلى الشمس التي في السماء، وعندئذ يعلم أن الشمس التي تشاهد في المرآة ليست تابعة للمرآة، ولا يتوقف بقاؤها ببقاء المرآة. بل أن بقاء حيوية المرآة وتلألأها إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها لها فبقاء المرآة تابع لبقاء الشمس".[1]

والمعنى أن من الناس من بلغ به ضعف العقل وفساد الرأي والجهل حداً يدفعه للاعتقاد بأن صورة الشمس المنعكسة على المرآة هي الشمس. ووجودها في المرآة مرهون بوجودها في السماء. فيقصر حبه كله على الصورة في المرآة، لا على الشمس نفسها، وإذا فهم طبيعة العلاقة بينهما، وأياً منهما الأصل وأيهما الفرع، ومن منهما يملك أهلية البقاء، وأيهما الزائل، عندئذ تتغير نظرته، فيتجه مباشرة صوب الباقي الذي لا يزول، ومن ثم يمنحه حبه كله، أما الفاني الزائل فلا محل له في قلبه.

بعد ذلك خاطب النورسي ذلك الإنسان العاشق للبقاء قائلاً:

" فيا أيها الإنسان، إن قلبك وهويتك وماهيتك مرآة، وما في فطرتك من حب البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها من تجل لاسم الباقي ذي الجلال، الذي يتجلى فيها حسب استعداد كل إنسان، ولكن

---

(1) اللمعات – النورسي ص 206

صُرف وجه تلك المحبة إلى جهة أخرى نتيجة البلاهة، فما دام الأمر هكذا فقل: يا باقي أنت الباقي، فإذ أنت موجود وباق فليفعل الفناء بنا ما يشاء فلا نبالي بما نلاقي".[1]

إن المحبة الشديدة التي يكنها الإنسان للبقاء ليست من أجل المحبة نفسها، بل لأن محبة البقاء هي واحدة من مقتضيات وتجليات اسم الباقي على قلب الإنسان، ولكن على قدر قابليته وتهيؤه لاستقبال أنوار الاسم، عندئذ يتيقن ألاّ باقي ولا موجود غير الله، أما الفناء والزوال وسائر صور العدم واللاوجود فهي عرض زائل لا بقاء ولا دوام.

فساد الإنسان

خلق الله تعالى كل مخلوق لعمل محدد ومهمة معينة، واقترن شرفه وعلو منزلته بين الموجودات باكتمال ذلك المعنى فيه، وخساسته وسقوط مكانته بانعدامه فيه. مثل الحصان الذي خلق للعدو، وكالسيف للقتال، فإذا لم يؤديا وظيفتهما على وجهها الأتم اعتبرا ناقصين، فأما أن يلقى بهما جانباً، أو يردا إلى منزلة هي دونهما في المرتبة والمقام. فالحصان إذا لم يصلح للعدو والسباق اتخذ كالحمار لنقل الأحمال. والسيف إذا لم يصلح للقتال أتخذ كالسكين والمنشار للقطع.

وكذلك الحال مع الإنسان، فإن شرفه وفضله وعلو منزلته بين الخلق تعود إلى اكتمال معنى العبد والخليفة فيه، وخساسته ودناءته

---

(1) اللمعات – النورسي ص 206

في عجزه عن القيام بهما. عندئذ تكون البهيمة خير منه. وبين النورسي أنواع الفساد بقوله:

" من المعلوم أنه إذا فسد الشيء الثمين يكون فساده أشد من فساد الشيء الرخيص، كما هو في فساد اللبن أو الحليب، حيث يمكن أن يؤكلا، أما إذا فسد الدهن فلا يمكن أكله، إذ قد يكون كالسم".[1]

يعني أن عدم صلاح الشيء وخروجه عن حد الانتفاع به يختلف باختلاف نفاسته وقيمته العالية، أو قلة وهبوط قيمته، وزهد الناس فيه، ففساد اللبن لا يخرج عناصره عن حد الاعتدال إلا خروجاً ضئيلاً في نوعيته، فيمكن الانتفاع به. أما إذا بلغ خروجه عن حد الاعتدال، وأقصى درجات الخروج كماً ونوعاً، كالدهن، فلا يمكن الانتفاع به، بل قد يسبب استعماله الأذى والهلاك.

وإذا فسد الإنسان. فإن فساده ينزل منزلة فساد الشيء الثمين والنفيس الذي لا تقدر قيمته ولا فضله. فيقول عنه النورسي:

" وهكذا الإنسان الذي هو أكرم المخلوقات. بل ذروتها وقيمتها، إذا فسد فإنه يكون أفسد وأحط من الحيوان الفاسد نفسه، فيكون كالحشرات التي تأنس بالعفونة وتريحها الروائح الكريهة، وكالحيات التي تلتذ بلدغ الآخرين. بل يتباهى بتلذذه بالأخلاق الدنيئة النابتة في مستنقع الضلالة، ويستمرئ الأضرار والجرائم الناجمة في ظلمات الظلم، فيكون إذن قريناً للشيطان ومتقمصاً لماهيته".[2]

وكما يفهم من عبارة النورسي أن الإنسان هو أكرم مخلوق وأفضل موجود، بشرط أن يراعي ما به صار إنساناً، وأن يجتهد لإكمال المعنى

---

(1) اللمعات – النورسي ص 126

(2) اللمعات – النورسي ص 126

الذي من أجله خلق وأوجد، فمن صرف همته كلها لعبادة الله وذكره، فسوف يترقى في مدارج السمو والكمال درجة درجة، حتى يلتحق بعالم الملائكة، ويوصف بالإنسان الرباني.

أما إذا عطل ذلك المعنى فيه، وأعرض عن العبادة وعن ذكر الله. واتبع شهواته، فسوف ينحدر هابطاً في دركات سحيقة من الفساد الخلقي وتلحقه بِمَنْ هُمْ دونه في الكرم والفضل والشرف. كالبهائم مثلاً، إلى أن يبلغ أقصى درجات السقوط فيجمع أسوأ ما في عالم الحيوان، فيصبح هو والشيطان صنوان وشقيقان لا يفرق بينهما إلا الهيكل الخارجي.

ارتفاع الإنسان وسقوطه

يعتقد النورسي أن سمو الإنسان الحقيقي وصعوده إلى مرتبة أعلى عليين، يتوقف على توجه قلبه وروحه وعقله وكل القوى الممنوحة له إلى الحياة الأبدية، أما انكبابه على لذات الدنيا وانقطاعه إلى ملاهيها، وتسخير تلك القوى للنفس الأمارة بالسوء، فلا يعني سوى سقوطه في هاوية لا مخرج له منها.

وتمثلت تلك الحقيقة للنورسي في واقعة خيالية رواها قائلاً:

" دخلت مدينة عظيمة وجدت فيها قصوراً فخمة ودوراً ضخمة، كانت تقام أمام القصور والدور حفلات ومهرجانات وأفراح تجلب الأنظار كأنها مسارح وملاه، فلها جاذبية وبهرجة.

ثم أمعنت النظر فإذا صاحب قصر واقف أمام الباب وهو يداعب كلبه ويلاعبه، والنساء يرقصن مع الشباب الغرباء، وكانت الفتيات

اليافعات ينظمن العاب الأطفال، وبواب القصر قد أتخذ طور المشرف يقود هذا الحشد، فأدركت أن هذا القصر خال من أهله، وأنه قد عطلت فيه الوظائف والواجبات، فهؤلاء السارحون من ذويه السادرون في غيهم قد سقطت أخلاقهم وماتت ضمائرهم، وفرغت عقولهم وقلوبهم فأصبحوا كالبهائم يهيمون على وجوههم ويلعبون أمام القصر.

ثم مشيت قليلاً ففاجأني قصر أخر، رأيت كلباً نائماً أمام بابه، ومعه بواب شهم وقور هادئ، وليس أمام القصر ما يثير الانتباه، فتعجبت من هذا الهدوء والسكينة واستغربت، واستفسرت عن السبب، فدخلت القصر فوجدته عامراً بأهله، فهناك الوظائف المتباينة والواجبات المهمة الدقيقة ينجزها أهل القصر. كلٌ من طابقه المخصص له، في جو من البهاء والهناء والصفاء، بحيث يبعث في الفؤاد الفرحة والبهجة والسعادة.

ففي الطابق الأول هناك رجال يقومون بإدارة القصر وتدبير شئونه، وفي طابق أعلى هناك البنات والأولاد يتعلمون ويتدارسون، وفي الطابق الثالث السيدات يقمن بأعمال الخياطة والتطريز ونسيج الزخارف الملونة والنقوش الجميلة على أنواع الملابس، أما الطابق الأخير، فهناك صاحب القصر يتصل هاتفياً بالملك لتأمين الراحة والسلامة والحياة الحرة العزيزة المرضية لأهل القصر، كل يمارس أعماله حسب اختصاصه، وينجز وظائفه اللائقة بمكانته الملائمة بكماله ومنزلته.

ونظراً لكوني محجوباً عنهم، فلم يمنعني أحد من التجول في أنحاء القصر، لذا استطلعت الأمور بحرية تامة، ثم غادرت القصر وتجولت

فـي المدينـة، فرأيـت أنهـا منقســمة إلـى هـذين النـوعين مـن القصـور والبنايات، فسألت عن سبب ذلك أيضاً، فقيل إلي:

" إن النوع الأول من القصور الخالية عن أهلها والمبهرج خارجها والمزينة سطوحها وأفنيتها، ما هي إلا مأوى أئمة الكفر والضلال، أما النوع الثاني من القصور، فهي مساكن أكابر المؤمنين من ذوي الغيرة والشهامة والنخوة".[1]

تكثر في المدينة التي دخلها النورسي القصور، وأمام كل قصر يحتفل الناس فرحين مسرورين بمختلف ضروب اللّهو واللعب، وعند عبوره أمام تلك القصور اللاهية لفت نظره منها قصران:

الأول: وجد صاحبه يقف أمام بوابة القصر الرئيسية يمازح كلباً ويداعبه، ومن حوله يدور الرقص والغناء بين الرجال والنساء، والفتيان والفتيات، بلا تحرج ولا خجل، وبإشراف حارس القصر، فتبين له من هذا ليس فقط خلو القصر من ساكنيه، بل أيضاً ترديهم في مهاوي الرذيلة والانحلال الخلقي، حتى صاروا يشبهون البهائم.

أما القصر الثاني فرأى أمام بوابته كلباً وحارساً ولا شيء سواهما، فدخل، فإذا القصر يموج بالحركة، وكل طابق من طوابقه ينشغل قاطنوه بعمل محدد، بدءاً من إدارة القصر نفسه مروراً بالتعليم انتهاء بالطابق الأخير حيث يعمل صاحب القصر كالعقل المدبر والمحرك لكل عمل ينجز فيه.

ولـدى خروجه مـن القصـر وتجوالـه فـي المدينـة، أدرك أنهـا هـي الأخرى موزعة في اهتماماتها بين هذين القصرين:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 363، 364

- فالأول منها لأهل الكفر والفساد.
- والثاني لأهل الإيمان.

وعلى ضوء هذا فسر النورسي وقائع الحكاية قائلاً:

" فتلك المدينة هي الحياة الاجتماعية البشرية ومدينة الحضارة الإنسانية، وكل قصر من تلك القصور عبارة عن إنسان، أما أهل القصر فهم جوارح الإنسان، كالعين والأذن، ولطائفه كالقلب والروح، ونوازعه كالهوى والقوة الشهوانية والغضبية، وكل لطيفة من تلك اللطائف معدة لأداء وظيفة عبودية معينة ولها لذائذها وآلامها، أما النفس والهوى والقوة الشهوانية والغضبية، فهي بحكم البواب وبمثابة الكلب الحارس، فإخضاع تلك اللطائف السامية إذن لأوامر النفس والهوى وطمس وظائفها الأصلية لا شك يعتبر سقوطاً وانحطاطاً وليس ترقياً وصعوداً".[1]

وملخص ما يفهم من تفسير النورسي أن الإنسان إنما هو بقواه الباطنية كالقلب والروح والعقل، فهي المودعة فيه أصلاً، والمؤهلة فعلاً لعبادة الله، وتشغل قواه الظاهرية كقوة الشهوة والغضب وغيرها وظيفة الحارس والحافظ، أي يقتصر دورها وعملها على الحماية من أي عدو يروم تعطيلها عن دورها.

فإذا انعكس الوضع، وانقلبت الأدوار، فانتقلت تلك القوى الظاهرية إلى الباطن، مسيطرة في حركتها الارتدادية ومهيمنة على القوى الباطنية، ومعطلة لوظائفها التعبدية، فإن هذا في حد ذاته تردياً بالإنسان وانحداراً به إلى مهاوي لا نهاية لها، وأي حديث بعدها عن سمو الإنسان أو رفعته يعد عبثاً لا يليق بالعقلاء.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 364

اعتماد النفس على ذاتها

خاطب النورسي ضمن مناجاة حزينة ومؤثرة نفسه، فقال لها ناصحاً ومعلماً:

" تعالى يا نفسي المشتاقة إلى الحياة والطالبة العمر الطويل، والعاشقة للدنيا، والمبتلاة بآلام لا حد لها، وآمال لا نهاية لها، يا نفسي الشقية، انتبهي وعودي إلى رشدك، ألا ترين أن اليراعة التي تعتمد على ضوئها تظل بين ظلمات الليل البهيم بينما النحلة التي لا تعتد بنفسها تجد ضياء النهار. وتشاهد جميع صديقاتها من الأزهار مذهبة بضوء الشمس".[1]

نبّه النورسي نفسه إلى التأمل في حال مخلوقين صغيرين، وذلك في علاقة كل منهما مع نفسه ومع غيره من الكائنات، كاليراعة التي تطير في الليل وكأنها نار، وبين النحلة، فاليراعة تتكل على قوة نورها وتكتفي به مستغنية عما سواه، أما النحلة التي لا تهتم بذاتها، فإنها تنطلق في ضوء النهار لتقيم علاقة مع جميع الكائنات المنورة مثلها بنور النهار.

واستناداً على ذلك أكمل النورسي حديثه مع نفسه قائلاً:

" وكذلك أنت، إن اعتمدت على وجودك وعلى نفسك وعلى أنانيتك، فستكونين كاليراعة، ولكن أن ضحيت بوجودك في سبيل خالقك الكريم الذي وهبه لك، سوف تكونين كالنحلة، وتجدين نور وجود لا حد له، فضحي بنفسك، إذ هذا الوجود وديعة عندك وأمانة".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 234

(2) الكلمات – النورسي ص 234

فنفس النورسي ونفس كل مؤمن، إن هي استندت على قواها الذاتية في الوجود والحركة. فتصبح مثل اليراعة حبيسة الليل والظلام، متوهمة استغناء مطلقاً عما سواها، ولكنها إذا تشبهت بالنحلة، وخرجت من تلك القوقعة، واهبةً ذاتها ووجودها خالصاً لله تعالى، فستحظى من أنوار الوجود ما لا نهاية لها.

تعبير الرؤيا:

يرى النورسي في محاولات تعبير الرؤى المنامية الشائعة بين الناس عملاً ليس سهلاً ولا مقبولاً، ولا هو متاح إلا لمن أوتى من العلم وصفاء العقل وجودة القريحة ما لم يؤتَ لغيره، وذلك لأن التعبير فيه نفاذ من ظاهر الرؤيا إلى باطنها، والانتقال بها من وجه إلى آخر، فيه من التناقض والتعارض الذي لا يقبله العقل الشيء الكثير، ولتبسيط تلك الحقيقة روى النورسي له المثل التالي:

" اصطحب راعيان من أهل القلب والصلاح، فحلبا من غنمهما اللبن ووضعاه في إناء خشبي، ووضعا الناي القصبي فوق حافتي الصحن، ثم شعر أحدهما بالنعاس، وما فتئ أن غلبه النوم، فنام واستغرق في نومه.

أما الثاني فقد ظل مستيقظاً يرقب صاحبه، وإذا به يرى وكأن شيئاً صغيراً – كالذبابة – يخرج من أنف صاحبه النائم، ثم يمرق سريعاً ويقف وعلى حافة الإناء ناظراً في اللبن، ثم يدخل من فوهة الناي من أحد طرفيه ويخرج من فوهة الطرف الأخر، ثم يمضي ويدخل في ثقب صغير تحت شجيرة مشوكة كانت بالقرب من المكان.

ثم يعود ذلك الشيء بعد مدة ويمضي في الناي أيضاً ويخرج من الطرف الآخر منه، ثم يأتي إلى ذلك النائم، ويدخل في أنفه، وهنا يستيقظ النائم من نومه، ويصحو قائلاً لصديقه:

- لقد رأيت يا صديقي في غفوتى هذه رؤيا عجيبة.

فيقول له صديقه.

- اللّهم أرنا خيراً واسمعنا خيراً، قل يا صديقي ماذا رأيت؟

فرد عليه:

- رأيت – وأنا نائم – بحراً من لبن، وقد مد عليه جسر عجيب، وكان الجسر مسقفاً، ولسقفه نوافذ، مررت من ذلك الجسر، ورأيت في نهاية الطرف الثاني منه غابة كثيفة ذات أشجار مدببة، وبينما أنا أنظر إليها متعجباً رأيت كهفاً تحت الأشجار، فسرعان ما دخلت فيه، رأيت كنزاً عظيماً من ذهب خالص – فقل يا صديقي، ما ترى في رؤياي هذه، وكيف تعبرها لي.

أجابه صديقه الصاحي:

- أن ما رأيته من بحر اللبن هو هذا اللبن في هذا الإناء، وذلك الجسر الذي فوقه هو الناي الموضوع فوق حافتيه، والغابة هي هذه الشجرة المشوكة، وذلك الكهف الكبير هو هذا الثقب الصغير، تحت هذه النبتة القريبة منا، فهات يا صديقي المعول لأريك الكنز بنفسي.

فيأتي صديقه بالمعول، ويبدأن بالحفر تحت تلك الشجرة، ولم يلبث حتى ينكشف لهما ما يسعدهما في الدنيا من كنز ذهبي".[1]

عوّل الصديق في تعبير رؤيا صديقه على أحداث غريبة ومحيرة للعقل جرت له أثناء نومه، وهو لا يدري عنها شيئاً، كخروج حشرة

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 102، 103

صغيره من أحد منخريه، ثم وقوفها على طرف وعاء اللبن، ثم دخولها في الناي من جانب وخروجها من الجانب الآخر، ثم ولوجها في حفرة صغيرة تحت شجرة شوكية.

وجاءت رؤيا أو حلم صديقه مطابقة في أحداثها ووقائعها مع ما رآه هو شخصياً عليه. كرؤيته للبن في الإناء، والجسر أو الناي فوق الإناء، ثم مروره على الجسر كما فعلت الحشرة، ثم الغابة أو الشجرة ذات الشوك، والكهف أو الحفرة الصغيرة تحتها، وأخيراً عثوره على الكنز الذهبي.

ولا يختلف تعبيره للرؤيا عما هو عليه من أحداث ووقائع حقيقية، وما رآه صديقه من أحداث ووقائع في حلمه بعيدة عن الواقع والحقيقة، فاللبن هو نفسه اللبن، والجسر هو الناي، والغابة هي الشجرة، والكهف هو الحفرة الصغيرة، والكنز الذهبي هو هو نفسه.

ولا اعتراض للنورسي على تفسير ذلك الصديق للحلم، ولكنه ينكر عليه تفسير الحلم لنفسه، فيقول في تعليقه على الرؤيا:

" هكذا فإن ما رآه النائم في نومه صواب وصحيح، وقد رأى ما رأى حقيقة وصدقاً، ولكن لأنه مستغرق في عالم الرؤيا، وعالم الرؤيا لا ضوابط له ولا حدود، فلا يحق للرائي تعبير رؤياه، فضلاً عن أنه لا يميز بين العالم المادي والعالم المعنوي، لذا يكون قسم من حكمه خطأ حتى إنه يقول لصاحبه صادقاً:

- لقد رأيت بنفسي بحراً من لبن.

ولكن صديقه الذي ظل صاحياً يستطيع أن يميز بسهولة العالم المثالي ويفرزه عن العالم المادي، فله حق تعبير الرؤيا حيث يخاطب صديقه قائلاً:

- إن ما رأيته يا صديقي حق وصدق، ولكن البحر الذي رأيته ليس بحراً حقيقياً، بل قد صار أناء اللبن الخشبي هذا في رؤياك كأنه البحر، وصار الناي كالجسر، وهكذا".[1]

ومقصود النورسي واضح بنفسه، إذ ليس بوسع أي إنسان التعبير عن الرؤى والأحلام، أو تفسيرها تفسيراً حقيقياً، بل ذلك حق لمن أوتى موهبة ربانية خالصة، لأن موهبة التعبير فيها مع الرؤية البصرية الحادة، المقدرة العالية على الإطلاع على الغيبيات والكشف عنها كشفاً حقيقياً ويأتي في الغالب مطابقاً لتفسيره، أما من حرم تلك الموهبة فإن تعبيره وتفسيره يكون في أكثر الأحوال كاذباً وغير صحيح.

ثم عاد النورسي مرة أخرى للتأكيد على أن نقطة الضعف في الرؤى عموماً تنحصر في جمعها بين عالمين، أحدهما حقيقي والآخر مثالي، أو على أقل تقدير لا أصل له من الواقع، ومثل لذلك بقوله:

" هب أن لك غرفة ضيقة، وضعت في جدرانها الأربعة مرايا كبيرة. تغطي كل مرآة الجدار كلها. فعندما تدخل غرفتك ترى أن الغرفة الضيقة قد اتسعت وأصبحت كالساحة الفسيحة، فإذا قلت:

- إنني أرى غرفتي كساحة واسعة. فإنك لا شك صادق في قولك. ولكن إذا حكمت وقلت.

- غرفتي واسعة سعة الساحة فعلاً، فقد أخطأت في حكمك لأنك قد مزجت عالم المثال – وهو هنا عالم المرايا – بعالم الواقع والحقيقة، وهو هنا عالم غرفتك كما هو فعلاً".[2]

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 103

(2) المكتوبات – النورسي ص 103،104

وبطبيعة الحال فإن الداخل لغرفة صغيرة المساحة غطيت جدرانها بالمرايا يحسبها كالميدان الواسع للانعكاسات المتداخلة للمرايا، فلو شبه صاحبها عند رؤيته لها اتساعها وتمددها بالساحة، كان صادقاً، ولكنه لو قرر جازماً بسعتها واقعاً وحقيقة، لكان كاذباً لا محالة، لأنه خلط بين الأصل والصورة خلطاً ضاعت فيه معالم الواقع والحقيقة.

ولأجل هذا دعا النورسي للتفريق في عالم الرؤى والأحلام بين عالمين يضاد كلاهما الآخر، فقال:

" وبناء على هذا المثال ينبغي التفريق بين العالم المادي والعالم الروحاني، فلو مزجا معاً، تأتي أحكامهما خطأ، ولا نصيب لها من الصحة".[1]

ومراده أن الواقع شيء، وصورته ومثاله شيء آخر، فلا يجب الخلط بينهما، وذلك للاختلاف البين في حقيقتهما النوعية. فالأول مادي محسوس ومدرك، والثاني صورة ومعاني ذهنية مجردة، أي هو كالظل للحقيقة.

مصير الحضارة الأوربية

تساءل النورسي كغيره من المتأملين في واقع الحضارة الأوربية المعاصرة، بإيجابياتها وسلبياتها، وبقوتها المادية وضعفها الروحي والمعنوي وبحياة الناس التي شبهها بأنها:

" عذاب الجحيم في نعيم جنة كاذبة".[2]

إلى أين تقود البشرية؟

---

(1) اللمعات – النورسي ص 103

(2) اللمعات – النورسي ص 177

وقبل الإجابة على ذلك السؤال، مثل لها بالمثال التالي:

" هب أن أمامنا طريقين: فسلكنا أحدهما وإذا بنا نرى في كل خطوة نخطوها في الطريق الأول مساكين عجزة يهجم عليهم الظالمون يغصبون أموالهم ومتاعهم، يخربون بيوتهم وأكواخهم، بل قد يجرحونهم جرحاً بليغاً تكاد السماء تبكي على حالتهم المفجعة، فأينما تمد النظر ترى الحالة نفسها فلا يسمع في هذا الطريق إلا ضوضاء الظالمين وصخبهم، وأنين المظلومين ونواحهم، فكأن مأتماً عاماً قد خيم على الطريق.

ولما كان الإنسان – بمقتضى إنسانيته – يتألم بألم الآخرين، فلا يستطيع أن يتحمل ما يراه في هذا الطريق من ألم غير محدود، إذ الوجدان لا يطيق ألماً إلى هذا الحد، لذا يضطر سالك هذا الطريق إلى أحد أمرين:

- إما أن يتجرد من إنسانيته ويحمل قلباً قاسياً غارقاً في منتهى الوحشة لا يتألم بهلاك الجميع طالما هو سالم.

- أو يبطل ما يقتضيه القلب والعقل".[1]

فعلى امتداد ذلك الطريق يرى السالك مختلف مظاهر الظلم والفساد، من أذى يلحق بالناس في نفوسهم، واغتصاب وتدمير لممتلكاتهم، إلى غيرها مما يبعث الأسى والحزن في القلوب، ولا يجد الإنسان في هذا الجو العام من الغم والكآبة مفراً من اتخاذ موقفين:

- أحدهما ألا يشارك الناس، فيتجاهلهم وكأنهم ليسوا بشراً مثله. يألم كما يألمون، ويفرح كما يفرحون.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 178

- وثانيهما: أن يتخذ موقفاً إيجابياً فيعمل على رفع الظلم عنهم، وإيقاف الظالمين عند حدهم.

واستناداً على تلك الصورة التمثيلية خاطب النورسي تلك الحضارة قائلاً:

" فيا أوربا التي نأت عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة. لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له، إذ يهوى بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتك المزخرفة، وأهواؤك المنومة، فتعساً لك ولدوائك الذي يكون هو القاضي عليك، نعم أن ما فتحتيه أمام البشرية من طريق، يشبه هذا المثال المذكور".[1]

والمعنى أن الحضارة الغربية بفكرها ومذاهبها الفلسفية، وبكل منجزاتها المادية قد أحالت حياة الناس إلى عذاب مقيم، أما إنسانها فقد انحلت أخلاقه، وفقد قيمه الروحية، فانحدر إلى ما دون الحيوان في السلوك، ولما اجتهد علماؤها ومصلحوها باحثين عن حل لتجنب الكارثة المحدقة بالجميع، وجدوه في الفتور والاسترخاء، أي بالتخلص من هموم الدنيا وآلامها بالانهماك في المتع المادية، جاهلين أو متجاهلين أن فيها الموت البطيء.

أما الطريق الثاني الذي فيه هداية للبشرية، وإنقاذ الناس من تلك

---

(1) اللمعات – النورسي ص 178

الحضارة المنحدرة إلى الهاوية، فهو طريق الإسلام والقرآن، وذلك لأن السالك فيه يرى وكما يصفه النورسي:

" في كل منزل من منازل هذا الطريق، وفي كل موضع من مواضعه، وفي كل مدينة تقع عليه، جنود مطيعون أمناء لسلطان عادل، يتجولون في كل جهة ينتشرون في كل ناحية، وبين فينة وأخرى يأتي قسم من مأموري ذلك الملك العادل وموظفيه، فيعفي بعض أولئك الجنود من وظائفهم بأمر السلطان نفسه. ويتسلم منهم أسلحتهم ودوابهم ومعداتهم الخاصة بالدولة ويسلم إليهم بطاقة الإعفاء. وهؤلاء، المعفون يبتهجون ويفرحون – من زاوية الحقيقة – على إعفائهم فرحاً عظيماً لرجوعهم إلى السلطان. وعودتهم إلى دار قرار سلطنته، والمثول بزيارته الكريمة، مع أنهم يحزنون في ظاهر الأمر على ما أُخذ منهم من دابة ومعدات ألغوها.

ونرى أيضاً أنه قد يلتقي أولئك المأمورون من لا يعرفهم من الجنود فعندما يخاطبونه:

- أنْ سلم سلاحك.

يرد عليهم الجندي:

- أَنا جندي لدى السلطان، وتحت إمرته وفي خدمته، وإليه مصيري ومرجعي، فمن أنتم حتى تسلبوا مني ما وهبني السلطان العظيم؟ فإن كنتم قد جئتم بإذنه ورضاه، فعلى العين والرأس، فأروني أمره الكريم، وإلا تخلوا عني، فلأقاتلنكم ولو كنت وحدي وأنتم ألوف، إذ لا أقاتل لنفسي لأنها ليست لي، بل أقاتل حفاظاً على أمانة مالكي ومولاي وصيانة لعزته وعظمته، فأنا لا أرضخ لكم

وعلى طول الطريق الثاني، وطوال مدة السفرة كلها نرى سَوقاً إلى الجندية، يتم في فرح وابتهاج وسرور، تلك هي التي تسمى بالمواليد، وهناك إعفاءات ورخص من الجندية، تتم في فرح وحبور أيضاً، وسط تهليل وتكبير، تلك التي تسمى بالوفيات"[1]

فإذا كان الطريق الأول مجازاً عن الحياة في الغرب، فإن الطريق الثاني مجاز عن الحياة في ظل الإسلام، حيث إن كل فرد فيها عبد لله، عامل بأوامره وتجنبه عن نواهيه، وذلك طوال حياته الدنيوية، فإذا آن أوان انتهاء فترة عبوديته، فإنه يغادر هذه الحياة، وكأنه جندي أعفى من الخدمة، فينتقل إلى دار أخرى يحظى فيها بالكرم الإلهي.

على أن أهم ما في هذه الحياة أن المؤمن فيها يدافع عن إيمانه بكل ما أُوتي من قوة، فإذا أراد أحد سلبه منه فإنه يقاتل في سبيله، ولا يسمح له بأن يزعزعه عنه، بل يموت في سبيله ودونه راضياً مرضياً عنه.

وعلى العكس تماماً من الحياة في الغرب، فإن كل مولود يولد في عالم الإسلام هو بمثابة عبد لله ومكلَّف، فيستقبل بكل سرور، ويودع حين وفاته بمثل ما استقبل به، لأنه في طريقه إلى الجنة وضيافة الرحمن.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 178، 179

الفصل الثامن

الدنيا

حقيقة الدنيا

قسم النورسي حياته الدنيوية إلى مرحلتين:

- استمرت الأولى حتى عام 1926، وفيها سمى نفسه بسعيد القديم حيث كان خلالها منغمساً في هموم الدنيا، وغارقاً في مشكلاتها المعقدة، وقضاياها المتجددة.
- والثانية بدأت من عام 1926وانتهت بنهاية عمره، وأطلق على نفسه فيها اسم سعيد الجديد، وفيها كرس حياته للدفاع والحفاظ على الإيمان.

وعندما أراد أن يكشف للناس عن حقيقة الدنيا ومآلها، رجع إلى المرحلة الأولى من حياته فمثل لها مستفيداً من تجربته وخبرته المعيشة بالحكاية الخيالية التالية:

" رأيت نفسي كأني أسافر في طريق طويل، أي أرسل إلى مكان بعيد، وكان سيدي قد خصص لي مقدار ستين ليرة ذهبية يمنحني منها كل يوم شيئاً، حتى دخلت إلى فندق فيه ملهى، فطفقت أبذر ما أملك

– وهي عشر ليرات – في ليلة واحدة على مائدة القمار والسهر في سبيل الشهرة والإعجاب. فأصبحت وأنا صفر اليدين لم أتّجر بشيء، ولم آخذ شيئاً مما سأحتاج إليه في المكان الذي أقصده، فلم أوفّر لنفسي سوى الآلام والخطايا التي ترسبت من لذات غير مشروعة، وسوى الجروح والغصّات والآهات التي ترشحت من تلك السفاهات والسفالات.. وبينما أنا في هذه الحالة الكئيبة الحزينة البائسة إذ تمثّل أمامي رجلٌ. فقال:

- أنفقت جميع رأسمالك سدىً، وصرت مستحقاً للعقاب، وستذهب إلى البلد الذي تريده خاوي اليدين، فإن كنتَ فطناً وذا بصيرة فبابُ التوبة مفتوحٌ لم يغلق بعدُ. فبإمكانك أن تدّخر نصف ما تحصل عليه، مما بقي لك من الليرات الخمسة عشرة لتشتري بعضاً مما تحتاج إليه في ذلك المكان..." فاستشرت نفسي فإذا هي غير راضية بذلك. فقال الرجل:

- فادّخر إذن ثلثه.

ولكن وجدت نفسي غير راضية بهذا أيضاً، فقال:

- فادّخر ربعه.

فرأيت نفسي لا تريد أن تدع العادة التي اُبتليت بها. فأدار الرجل رأسه وأدبر في حدة وغيظ ومضى في طريقه.

ثم رأيت كأن الأمور قد تغيرت، فرأيت نفسي في قطار ينطلق منحدراً بسرعة فائقة في داخل نفق تحت الأرض، فاضطربت من دهشتي، ولكن لا مناص لي حيث لا يمكنني الذهاب يميناً ولا شمالاً، ومن الغريب أنه كانت تبدو على طرفي القطار أزهار جميلة جذابة، وثمار لذيذة متنوعة، فمددت يدي كالأغبياء نحوها أحاول أن أقطف

أزهارها وأحصل على ثمراتها، إلا أنها كانت بعيدة المنال، الأشواك فيها انغرزت في يدي بمجرد ملامستها فأدمتها وجرحتها، والقطار كان ماضياً بسرعة فائقة فآذيت نفسي من دون فائدة تعود عليّ. فقال أحد موظفي القطار:

- أعطني خمسة قروش لأنتقي لك الكمية المناسبة التي تريدها من تلك الأزهار والأثمار، فإنك تخسر بجروحك هذه أضعاف أضعاف ما تحصل عليه بخمسة قروش، فضلاً عن أن هناك عقاباً على صنيعك هذا، حيث إنك تقطفها من غير إذن.

فاشتد عليّ الكرب في تلك الحالة، فنظرت أتطلع من النافذة إلى الأمام لأتعرف نهاية النفق، فرأيت أن هناك نوافذ كثيرة وثغوراً عدة قد أحلت محل نهاية النفق، وأن مسافري القطار يقذفون خارجاً من القطار إلى تلك الثغور والحفر، ورأيت أن ثغراً يقابلني أنا بالذات أُقيم على طرفيه حجر أشبه ما يكون بشواهد القبر، فنظرت إليها بكل دقة وإمعان فرأيت أنه قد كتب عليها بحروف كبيرة اسم سعيد، فصرخت من فرقي وحيرتي:

- يا ويلاه!!

وآنذاك سمعت صوت ذلك الرجل الذي أطال علي النصح في باب الملهى.

وهو يقول:

- هل استرجعت عقلك يا بني وأفقت من سكرتك.

فقلت:

- نعم ولكن بعد فوات الأوان، بعد أن خارت قواي ولم يبق لي حول ولا قوة.

فقال:
- تُب وتوكل.
فقلت:
- قد فعلت.
ثم أفقتُ، وقد اختفى سعيد القديم ورأيت نفسي سعيداً جديداً". [1]
يمكن تقسيم رؤيا النورسي تلك إلى قسمين أساسين:
ففي القسم الأول رأى وكأنه من المفترض عليه أن يقطع مسافة طويلة إلى بلد بعيد، وعين له من أرسله مبلغ ستين ليرة، يتسلم منها كل يوم المقدار الذي يعينه على سفره، وعند دخوله لأول نُزل تسلم ما انفق عليه من قبل. فأنفقه كله على متعه ولذائذه، ولم يبقَ له سوى الحسرة والندم على ما أقدم عليه.
وبينما هو على هذه الحالة المحزنة والأليمة، ظهر أمامه رجل وبّخه على أفعاله المنكرة وحذره من العقوبات الشديدة، ثم نصحه بضرورة التوبة والرجوع إلى جادة الحق، وأيضاً توفير ولو قليل من المال ليصرفه على احتياجاته في ذلك البلد. فلم يقتنع بنصيحته أو يلتفت إلى تحذيره، وذلك لما ابتلى به من شديد الشهوات، وتعلق زائد عن الحد بها.
أما القسم الثاني، فرأى فيه وكأنه راكب في قطار يندفع بسرعة عالية، داخل حفرة عميقة في الأرض، وعلى جانبيها زرعت أزهار غاية في الروعة والجمال، وحاول لجهله بطبيعتها قطف بعضاً منها. فارتدت يده دامية عند لمسها، فجاءه أحد العاملين بالقطار. وطلب منه

(1) الكلمات – النورسي ص 367،379

نظير كمية قليلة من النقود أن يعطيه بعضها، وبذلك يعفيه من تبعات أخذها بنفسه.

عندئذ اشتد غمه وزاد حزنه، فألقى نظرة على نهاية سير القطار فرأى الكثير من الفرجات والحفر تسد نهاية الطريق أمامهم، وإلى هذه الفرجات والحفر يرمى ويقذف بالمسافرين، أما هو فرأى حفرته المفترض رميه فيها مكتوباً عليها سعيد، فجزع وخاف، وفجأة ظهر ذلك الرجل ليسأله هل عاد فعلا إلى رشده، وعرف طريق الاستقامة والصلاح وعرف طريق الاستقامة والصلاح، فلما رد عليه بالإيجاب، إذا به يستيقظ من نومه، ولكن على تغيير هائل في حياته الدنيوية، وهو توارى سعيد القديم عن الأنظار بكل ماضيه، وظهور سعيد جديد، لا علاقة له بما كان يفعله سعيد القديم.

وأوّل النورسي جانباً من تلك الرؤيا بقوله:

" أن ذلك السفر هو السفر الذي يمر من عالم الأرواح، ومن أطوار عالم الرحم، ومن الشباب، ومن الشيخوخة، ومن القبر، ومن البرزخ إلى الحشر، وإلى الصراط وإلى أبد الآباد.

وتلك الليرات الذهبية البالغة ستين هي العمر البالغ ستين عاماً، وذلك النفق هو الحياة الدنيا، وحيثما رأيت تلك الواقعة الخيالية كنت في الخامسة والأربعين من العمر حسب ظني، ولم يكن لي سند ولا حجة من أن أعيش إلى الستين من العمر، إلا أنه أرشدني أحد تلاميذ القرآن المخلصين أن أنفق ما بقي من العمر الغالب – وهو خمسة عشر عاماً – في سبيل الآخرة.

وذلك الفندق هو مدينة إسطنبول بالنسبة لي.

وذلك القطار هو الزمن، وكل عام بمنزلة عربة منه، وذلك النفق هو الحياة الدنيا، وتلك الأزهار والثمار الشائكة هي اللذات غير المشروعة واللّهو المحظور، حيث إن الألم الناشئ من تصور زوالها يدمي القلب ويجرح النفس، فيقاسي الإنسان من توقع فراقها مرارة العذاب، وأن معنى ما قاله الخادم في القطار، أعطني خمسة قروش أعطك أحسن ما تحتاجه هو: أن اللذات والأذواق التي يحصل عليها الإنسان عن طريق السعي الحلال ضمن الدائرة المشروعة كافية لسعادته وهنائه وراحته. فلا يدع مجالاً للدخول في الحرام، ويمكنك أن تفسر ما بقي".[1]

والباقي يمكن تفسيره على النحو الآتي:

فنهاية النفق هي خاتمة الحياة، أي الموت، والنوافذ والثغور الكثيرة هي القبور التي يقذف فيها الناس كرهاً وبلا اختيار منهم، والثغر أو الحفرة التي رآها مواجهة له هي قبره مكتوب عليه اسمه. أما مضمون كلام الرجل فيمثل نهاية لمرحلة طويلة من عمره، وبداية لمرحلة جديدة أخرى من حياته.

ومقصود النورسي من تلك الحكاية هو أن الدنيا قد تتراءى لمحبيها وعشاقها كحقيقة ثابتة وراسخة لا تتغير ولا تقبل التغير، ولكن عوامل زوالها وفنائها كامنة في مكوناتها الوجودية، بل يعد عدمها جزءاً لا يتجزأ من مفهوم وجودها، وعلى رأسها انتقالها الدائم وتبدلها المستمر، وتغيرها من حال إلى حال بلا توقف أو انقطاع.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 369

الدين والدنيا

في مثل يعد الأطول من أمثلة وحكايات رسائل النور الرمزية، تحدث فيه النورسي عن الدين وأثره في حياة الإنسان وأهميته في سلوكه اليومي، وعن طبيعة الدنيا الزائلة، وكيف أن الدنيا بلا دين تتحول إلى سجن كبير يتعذب فيه الناس بلا نهاية منظورة لعذابهم.

بدأ النورسي هذا المثل أو هذه الحكاية الطويلة بمقدمة جاء فيها:

" كان شقيقان في قديم الزمان يذهبان معاً إلى سياحة طويلة فواصلا سيرهما سوية إلى أن وصلا إلى مفرق طريقين، فرأيا رجلاً وقوراً فسألاه:

- أي الطريقين أفضل.

فأجابهما:

- في الطريق اليمين التزام إجباري للقانون والنظام، إلا أن في ثنايا ذلك التكليف ثمة أمان وسعادة: أما طريق الشمال ففيه الحرية والتحرر، إلا أن في ثنايا تلك الحرية تهلكة وشقاء: والآن لكم الخيار في سلوك أيهما.

وبعد الاستماع إلى هذا الكلام سلك الأخ ذو الطبع الطيب طريق اليمين قائلاً:

- توكلت على الله.

وانطلق راضياً عن طيب نفس باتباع النظام والانتظام، أما الآخر الغاوي، فقد رجح طريق الشمال لمجرد هوى التحرر الذي فيه".[1]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 31

ثم فصل النورسي بعد ذلك تفصيلاً دقيقاً ووافياً ما حدث لكل منهما، مقدماً في روايته الشقيق الثاني الذي أكثر التحرر من أي قيد يحد من مجال حركته الحيوي، فحكى عنه قائلاً:

" فما أن عبر الوديان العميقة والمرتفعات العالية الوعرة حتى دخل وسط مفازة خالية وصحراء موحشة، فسمع صوتاً مخيفاً، ورأى أن أسداً ضخماً غضوباً قد انطلق من الأحراش نحوه، ففر منه فراراً وهو يرتعد خوفاً وهلعاً، فصادف بئراً معطلة على عمق ستين ذراعاً، فألقى نفسه فيها طلباً للنجاة، وفي أثناء السقوط لقيت يداه شجرة فتشبث بها، وكان لهذه الشجرة جذران نبتا على جدار البئر وقد سلط عليهما فأران، أبيض وأسود، وهما يقضمان ذينك الجذرين بأسنانهما الحادة، فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد واقفاً كالحارس على فوهة البئر، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً كبيراً جداً قد رفع رأسه يريد الاقتراب منه وهو على مسافة ثلاثين ذراعاً، وله فم واسع سعة البئر نفسها. ورأى ثمة حشرات مؤذية لاسعة تحبط به. نظر إلى أعلى الشجرة، فرأى أنها شجرة تين، إلا أنها تثمر بصورة خارقة أنواعاً مختلفة وكثيرة من فواكه الأشجار ابتداء من الجوز وانتهاء إلى الرمان".[1]

وعلى الرغم من غرابة المشاهد التي مرت بالأخ الثاني، وبعدها عن المألوف، بل وشذوذها في أحيان كثيرة، إلا أنه لتبلد عقله وجمود مشاعره وأحاسيسه لم يقف عندها متأملاً ومفكراً. فعلق النورسي على مسلكه قائلاً:

" لم يكن هذا الرجل ليفهم – لسوء إدراكه وحماقته – بأن هذا الأمر ليس اعتيادياً، ولا يمكن أن تأتي كل هذه الأشياء مصادفة، ومن

---

(1) الكلمات – النورسي ص 31، 32

دون قصد، ولم يكن يفهم أن في هذه الشئون العجيبة أسراراً غريبة، وأن هناك وراء كل ذلك من يدبر هذه الأمور وييسرها".[1]

وختم النورسي روايته عنه بما يؤكد فعلاً قلة عقله وسوء اختياره، قائلاً.

" فبينما يبكي قلب هذا الرجل، وتصرخ روحه، ويحار عقله من أوضاعه الأليمة، إذا بنفسه الأمارة بالسوء أخذت تلتهم فواكه تلك الشجرة، متجاهلة عما حولها، وكأن شيئاً لم يحدث، سادة أذنيها عن صرخات القلب وهواتف الروح، خادعة نفسها بنفسها، رغم أن قسماً من تلك الفواكه كانت مسمومة ومضرة".[2]

بعد ذلك مباشرة قص النورسي الوقائع التي شهدها الأخ الأول، قائلاً:

" فهذا الرجل المبارك ذو العقل الرشيد، ما يزال يقطع الطريق دون أن يعاني الضيق كأخيه، ذلك لأنه لا يفكر إلا في الأشياء الجميلة – لما له من جمال الخلق- ولا يأخذ بعنان الخيال إلا بما هو جميل ولطيف، لذا كان يستأنس بنفسه ولا يلاقي الصعوبة والمشقة كأخيه، ذلك لأنه يعرف النظام، ويعمل بمقتضى الولاء والاتباع، فيرى الأمور تسهل له، ويمضي حراً منطلقاً بالأمان والاستقرار.

وهكذا مضى حتى وجد بستاناً فيه أزهار جميلة وفواكه لطيفة مع ثمة جثث حيوانات وأشياء منتنة ومبعثرة هنا وهناك بسبب إهمال النظافة، كان أخوه الشقي قد دخل – من قبل – في هذا البستان أيضاً،

---

(1) الكلمات – النورسي ص 32

(2) الكلمات – النورسي ص 32

غير أنه انشغل بمشاهدة الجيف الميتة وإنعام النظر فيها مما أشعره بالغثيان والدوار فغادره دون أن يأخذ قسطاً من الراحة لمواصلة السير.

أما هذا الآخر فعملاً بقاعدة: انظر إلى الأحسن في كل شيء، فقد أهمل الجيف ولم يلتفت إليها مطلقاً، بل استفاد مما في البستان من الأشجار والفواكه، وبعدما استراح فيه الراحة التامة مضى إلى سبيله.

ودخل هو أيضاً كأخيه في صحراء عظيمة ومفازة واسعة، وفجأة سمع صوت أسد يهجم عليه، فخاف إلا أنه دون خوف أخيه، حيث فكر بحسن ظنه وجمال تفكيره قائلاً:

- لا بد أن لهذه الصحراء حاكماً، فهذا الأسد إذن يحتمل أن يكون خادماً أميناً تحت أمرته.

فوجد في ذلك اطمئناناً، غير أنه فر كذلك حتى وصل وجهاً لوجه إلى بئر معطلة بعمق ستين ذراعاً فألقى نفسه فيها وأمسك كأخيه بشجرة في منتصف الطريق من البئر، وبقي معلقاً بها، فرأى حيوانين أثنين يقطعان جذري تلك الشجرة رويداً رويداً، فنظر إلى الأعلى فرأى الأسد، ونظر إلى الأسفل فرأى ثعباناً ضخماً، ونظر إلى نفسه فوجدها كأخيه تماماً في وضع عجيب غريب، فدهش من الأمر هو كذلك، إلا أنه دون دهشة أخيه بألف مرة، لما منحه الله من حسن الخلق وحسن التفكير والفكر الجميل الذي لا يريه إلا الجهة الجميلة من الأشياء، ولهذا السبب فكر هكذا:

إن هذه الأمور العجيبة ذات علاقات مترابطة بعضها ببعض، وأنها لتظهر كأن آمراً واحداً يحركها، فلابد إذن أن يكون في هذه الأعمال المحيرة سر مغلق، وطلسم غير مكشوف. أجل إن كل هذا يرجع إلى أوامر حاكم خاص، فأنا إذن لست وحيداً، بل ذلك الحاكم الخفي

ينظر إليّ ويرعاني ويختبرني، ولحكمة مقصودة يسوقني إلى مكان ويدعونني إليه.

فنشأ لديه من هذا التفكير الجميل والخوف اللذيذ شوق أثار هذا السؤال:

- من يكون يا ترى هذا الذي يجرّبني ويريد أن يعرّفني نفسه؟ ومن هذا الذي يسوقني في هذا الطريق العجيب إلى غاية هادفة؟

ثم نشأ من الشوق إلى التعرف إلى محبة صاحب الطلسم، وَنمَّتْ تلك المحبةُ رغبةً في حَلِّ الطلسم. ومن تلك الرغبة انبعثت رغبة اتخاذ وضع جميل وحالة مقبولة لدى صاحب الطلسم حسب ما يحبه ويرضاه.

ثم نظر أعلى الشجرة فرأى أنها شجرة تين، غير أن في نهاية أغصانها آلاف الأنواع من الأثمار والفواكه، وعندها ذهب خوفه وزال نهائياً، لأنه علم قطعاً بأن شجرة التين هذه إنما هي فهرس ومعرض، حيث قلد الحاكم الخفي نماذج ما في بستانه وجناته بشكل معجز عليها وزيّنها بها، إشارة لما أعده من أطعمة ولذائذ لضيوفه، وإلا فإن شجرة واحدة لن تعطي أثمار آلاف الأشجار، فلم ير أمامه إلا الدعاء والتضرع، فالح متوسلاً بانكسار إلى أن ألهم مفتاح الطلسم فهتف قائلاً:

- يا حاكم هذه الديار والآفاق التجئ إليك وأتوسل وأتضرع، فأنا لك خادم، أريد رضاك وأنا أطلبك وأبحث عنك.

فأنشق جدار البئر فجأة بعد هذا الدعاء عن باب يفتح إلى بستان فاخر طاهر جميل، وربما أنقلب فم ذلك الثعبان إلى ذلك الباب واتخذ كل من الأسد والثعبان صورة الخادم وهيأته، فأخذا يدعوانه

إلى البستان، حتى إن ذلك الأسد تقمص شكل حصان مسخر بين يديه".[1]

وبما أن الوقائع على ما بينها من تشابه في منتهى التناقض، فقد عقد النورسي موازنة ومقارنة بين تفكير وتصرف كل من الأخوين قائلاً:

" إن المسافر الشقي إلى جهة الشمال معرّض في كل آن إلى أَنْ يلج في فم الثعبان، فهو يرتجف خوفاً وهلعاً، بينما هذا السعيد يدعى إلى بستان أنيق مثمر بفواكه شتى، وأن قلب ذلك الشقي يتمزق في خوف عظيم ورعب أليم، بينما هذا السعيد يرى غرائب الأشياء وينظر إليها بعبرة حلوة وخوف لذيذ ومعرفة محبوبة.

وأن ذلك الشقي المسكين ليعاني من الوحشة واليأس واليتم عذاباً وأي عذاب! بينما هذا السعيد يتلذذ في الأنس ويترفل في الأمل والشوق، ثم إن ذلك المنكود يرى نفسه محكوماً عليه كالسجين بهجمات الحشرات المؤذية، بينما السعيد المحظوظ يتمتع متعة ضيف عزيز، وكيف لا وهو ضيف عند مضيف كريم، فيستأنس مع عجائب خدمه.

ثم إن ذلك السيئ الحظ ليعجّل عذابه في النار بأكله من مأكولات لذيذة الطعم ظاهراً ومسمومة حقيقة ومعنى، إذ أن تلك الفواكه ما هي إلا نماذج قد أُذِنَ له تذوقها فحسب ليكون طالباً لحقائقها وأصولها، وشارياً لأصولها، وإلا فلا سماح للتناول منها بشراهة حيوانية، أما هذا السعيد المحمود فإنه يتذوق منها إذ يعي الأمر، مؤخراً أكلها وملتذاً بالانتظار.

ثم إن ذلك الشقي يكون قد ظلم نفسه بنفسه، جاراً عليها وضعاً مظلماً وأوهاماً ذات ظلمات حتى كأنه في جحيم، بانعدام بصيرته عن

---

(1) الكلمات – النورسي ص 33،34

حقائق ساطعة كالنهار، وأوضاع جميلة باهرة، فلا هو مستحق للشفقة ولا له حق الشكوى، مثله في هذا مثل رجل وسط أحبائه في موسم الصيف، وفي حديقة بهيجة في وليمة طيبة للأفراح، فلعدم قناعته بها راح يرتشف كؤوس الخمر، حتى أصبح سكيراً ثملاً، فشرع بالصراخ والعويل، وبدأ بالبكاء ظاناً نفسه أنه في قلب الشتاء القارس، وأنه جائع وعار وسط وحوش مفترسة، فمثلما أن هذا الرجل لا يستحق الشفقة والرأفة، إذ ظلم نفسه بنفسه متوهماً أصدقاءه وحوشاً، محتقراً لهم.. فكذلك هذا المشؤوم".[1]

أما تفسير النورسي للحكاية التمثيلية الرمزية فجاء مفصلاً لوقائعها وذلك على النحو التالي:

" فالأخوان الاثنان، أحدهما روح المؤمن وقلب الصالح، والآخر روح الكافر وقلب الفاسق، أما اليمين من تلكما الطريقين فهي طريق القرآن وطريق الإيمان، وأما الشمال فطريق العصيان والكفران، وأما ذلك البستان في الطريق فهو الحياة الاجتماعية المؤقتة للمجتمع البشري والحضارة الإنسانية التي يوجد فيه الخير والشر والطيب والخبيث والطاهر والقذر، فالعاقل هو من يعمل على قاعدة: خذ ما صفا دع ما كدر، فيسير مع سلامة القلب واطمئنان الوجدان.

وأما تلك الصحراء فهي هذه الدنيا وهذه الأرض، وأما ذلك الأسد فهو الأجل والموت، وأما تلك البئر فهي جسد الإنسان وزمان الحياة، وأما ذلك العمق البالغ ستين ذراعاً فهو إشارة إلى العمر الغالب، ومعدله ستون سنة. وأما تلك الشجرة فهي مدة العمر ومادة الحياة. وأما الحيوانان الاثنان الأسود والأبيض فهما الليل والنهار، وأما ذلك

(1) الكلمات – النورسي ص 34،35

الثعبان فهو فم القبر المفتوح إلى طريق البرزخ ورواق الآخرة، إلا أن ذلك الفم هو للمؤمن باب يفتح من السجن إلى البستان.

وأما تلك الحشرات المضرة فهي المصائب الدنيوية، إلا أنها للمؤمن في حكم الإيقاظات الإلهية الحلوة والالتفاتات الرحمانية لئلا يغفل، وأما مطعومات تلك الشجرة فهي النعم الدنيوية التي صنعها رب العزة الكريم لكي تكون فهرساً للنعم الأخروية ومذكرة بها، بمشابهتها لها، وقد خلقها البارئ الحكيم على هيئة نماذج لدعوة الزبائن إلى فواكه الجنة، وأن عطاء تلك الشجرة على وحدتها الفواكه المختلفة المتباينة إشارة إلى آية الصمدانية الإلهية وطغراء سلطنة الألوهية، ذلك لأن صنع كل شيء من شيء واحد، أي صنع جميع النباتات وأثمارها من تراب واحد، وخلق جميع الحيوانات من ماء واحد، وإبداع جميع الأجهزة الحيوانية من طعام بسيط، وكذا صنع الشيء الواحد من كل شيء كبناء لحم معين وجلد بسيط لذي حياة من مطعومات مختلفة الأجناس، إنما هي الآية الخاصة للذات الأحدية الصمدية، والختم المخصوص للسلطان الأزلي الأبدي وطغراؤه التي لا يمكن تقليدها أبداً.

وأما ذلك المفتاح فهو (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) ويا الله ولا إله إلا الله.

وأما انقلاب فم الثعبان إلى باب البستان فهو رمز إلى أن القبر هو سجن الوحشة والنسيان والإهمال والضيق، فهو كبطن الثعبان لأهل الضلالة والطغيان. ولكن لأهل الإيمان والقرآن باب مفتوح على مصراعيه من سجن الدنيا إلى بستان البقاء. ومن ميدان الامتحان إلى روضة الجنان، ومن زحمة الحياة إلى رحمة الرحمن.

وأما انقلاب ذلك الأسد إلى حصان مسخر وإلى خادم مؤنس فهو إشارة إلى أن الموت لأهل الضلال فراق أبدي أليم من جميع الأحبة، وخروج من جنة دنيوية كاذبة إلى وحشة سجن انفرادي للقبر. وضياع في تيه سحيق، بينما هو لأهل الهداية والقرآن رحلة إلى العالم الآخر، ووسيلة إلى ملاقاة الأحبة والأصدقاء القدامى، وواسطة إلى دخول الوطن الحقيقي ومنازل السعادة الأبدية، ودعوة كريمة من سجن الدنيا إلى بساتين الجنان، وانتظار لأخذ الأجرة للخدمات تفضلاً من الرحمن الرحيم، وتسريح من تكاليف الحياة وإجازة من وظيفتها، وإعلان وانتهاء من واجبات العبودية وامتحانات التعليم والتعليمات".[1]

وأخيراً انتهى النورسي إلى حصيلة الحكاية التمثيلية، فقال ناصحاً ومحذراً:

" إن كل من يجعل الحياة الفانية مبتغاه فسيكون في جهنم حقيقة ومعنى، حتى لو كان يتقلب ظاهراً في بحبوحة النعيم.

وإن كل من كان متوجهاً إلى الحياة الباقية ويسعى لها بجد وإخلاص، فهو فائز بسعادة الدارين، وأهل لهما معاً حتى لو كانت دنياه سيئة وضيقة، إلا أنه سيراها حلوة طيبة، وسيراها قاعة انتظار لجنته، فيتحملها ويشكر ربه فيها، وهو يخوض غمار الصبر".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 37،36

(2) الكلمات – النورسي ص 37

حب الدنيا

سئل النورسي:

هل يمكن أن يتحول حب الدنيا الطبيعي والغريزي في نفوس الناس إلى عشق حقيقي، أي إلى الحب في الله، فأجاب بقوله:

" نعم إذا شاهد ذلك العاشق المجازي لوجه الدنيا الفاني، قبح الزوال ودمامة الفناء على ذلك الوجه، فأعرض عنه، وبحث وتحرى عن محبوب باق لا يزول، ووفقه الله للنظر إلى وجهي الدنيا الجميلين – وهما مرآة الأسماء الحسنى، ومزرعة الآخرة – انقلب حينئذ العشق المجازي غير المشروع إلى عشق حقيقي، ولكن بشرط ألا يلتبس عليه، دنياه غير المستقرة المرتبطة بحياته بالدنيا الخارجية، إذ لو نسي نفسه نسيان أهل الضلالة والغفلة وخاض في غمار آفاق الدنيا وظن دنياه الخاصة كالدنيا العمومية فعشقها، فإنه يقع في مستنقع الطبيعة ويغرق، إلا من أنجته يد العناية نجاة خارقة للعادة".[1]

يعني إذا تبين لذلك المحب عن تجربة حية الوجه الحقيقي للدنيا. أي الوجه القبيح المتمثل في زوالها وسرعة فنائها وفي فراقه هو لها، وانصرف عنها، ثم اتجه بكليته إلى دنيا جميلة ذات بعدين:

- الأول حيث تتجلى فيه وعلى صفحته الخارجية أسماء الله تعالى وصفاته
- الثاني يجعلها موضعاً لأعمال تدخر له يوم القيامة.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 12

عندئذ يتحول حبه لها إلى حب حقيقي ينال به خير الدنيا الزائلة، وخير الآخرة الباقية، شريطة أن يوازن موازنة دقيقة وشاملة بين حياتين ودنيتين الزائلة والباقية حتى لا يختلط عليه أمرهما، فيتحول دون وعي منه ولا إدراك إلى حب الأولى حباً يبلغ حد الإفراط الذي يؤدي به لا محالة إلى الهلاك والبوار.

ثم دعا النورسي سائله إلى النظر في ذلك الحب المفرط على ضوء المثال التالي:

" هب أننا نحن الأربعة دخلنا غرفة، على جدرانها الأربعة مرايا كبيرة كبر الحائط، فعندئذ تصبح تلك الغرفة الجميلة خمس غرف، إحداهما حقيقية وعمومية، والأربعة الأخرى مثالية وخصوصية، وكل منا يستطيع أن يبدل في شكل غرفته الخاصة وهيئتها ولونها بواسطة مرآته. فلو صبغناها باللون الأحمر، فإنها ترى الغرفة حمراء، ولو صبغناها باللون الأخضر فإنها تريها خضراء.

وهكذا يمكننا أن نعطي للغرفة أوضاعاً متنوعة بالتغيير في المرآة والتصرف فيها، بل تستطيع وضعها في أوضاع جميلة أو قبيحة، أو أي شكل نرغب فيه، ولكننا لا نستطيع أن نغير ونبدل الغرفة العمومية الخارجة عن المرآة بسهولة ويسر، فأحكام الغرفتين الخصوصية والعمومية مختلفتان، وإن كانتا واحدة متحدة في الحقيقة، فأنت بتحريك إصبع يمكنك تخريب غرفتك بينما لا يمكنك تحريك حجر من تلك الغرفة العمومية ولو قيد أنملة".[1]

فمضمون المثل يتلخص في أن هؤلاء الأربعة ولجوا إلى غرفة جعلتها أربعة مرايا موضوعة فيها كما لو كانت خمس غرف، وذلك

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 12،13

لانعكاس جدرانها الأربعة على المرايا، فواحدة هي الأصل، والأربع الأخريات صور وأشكال لها.

وبما أن عدد الغرف المنعكسة في المرآة بعدد الداخلين، فبإمكان كل منهم التصرف فيما يخصه بالتلوين والتبديل في أوضاعها، وذلك فقط بتحويل المرآة من حالة إلى أخرى، أما الغرفة الأصل فلا يتأتى له ذلك إلا بمشقة وصعوبة.

والمحصلة الأخيرة أن الغرف الخمس مشتركة في الحقيقة والأصل ولكنها متباينة في الصور والأشكال، فمن السهل لأي من أولئك هدم صورة غرفته أما المساس بالأصل فيستحيل عليه.

والدنيا شبيهة بالمثل السابق: يقول النورسي في تفسيره له:

" وهكذا الدنيا فهي منزل جميل مزين، وحياة كل منا مرآة كبيرة واسعة، ولكل منا دنياه الخاصة من هذه الدنيا العمومية، ولكل منا عالمه الخاص به، إلا أن عمود دنياه ومركزها حياتنا، بل أن دنيانا وعالمنا الخاص صحيفة، وحياتنا قلم، يكتب بوساطته كثير من الأشياء التي تنقل إلى صحيفة أعمالنا.

فإن أحيينا دنيانا، ثم شاهدنا أنها زائلة فانية لا قرار لها كحياتنا – لأنها مبنية فوقها – وشعرنا بهذا الزوال وأدركناه، عندئذ تتحول محبتنا نحوها إلى محبة نقوش الأسماء الإلهية الحسنى التي تمثلها دنيانا الخاصة، المرآة لها، ومنها تنتقل المحبة إلى محبة تجليات الأسماء الحسنى".[1]

وكما يفهم من تفسير النورسي فهناك دنيا عامة وشاملة، هي الأصل لما سواها من الدنى، ودنيا خاصة بكل إنسان على حدة هي الحياة،

---

(1) الكلمات – النورسي ص 13

وتشبه الصورة في المثال. وتعد لخصوصيتها الشديدة مفتاحها ومدخلها، ليس هذا فحسب، بل أن هذه الدنيا تشبه الورقة البيضاء، والحياة كالقلم الذي تكتب به الأعمال.

فإذا أحب المرء دنياه الخاصة، أي الحياة. ثم تكشفت له عيوبها، عندها يتجه بتلك المحبة بدلاً من دنياه الخاصة إلى حب أسماء الله الحسنى المنعكسة عليها. ثم يقفز قفزة كبرى فيحب تجليات تلك الأسماء وظهورها على الوجود الخارجي، أي الدنيا العامة.

فناء الدنيا وبقاء الآخرة

إن نظام الدنيا وعمادها وهلاك أمرها كله يقوم معنى ومبنى على التغير والتبديل، في كل وقت وحين وبلا توقف أو انقطاع، حتى عدت مقولة: دوام الحال من المحال.

غير أن وراء هذا التبدل والتغيير، وخلف ذلك الزوال السريع، عالم آخر، نظامه وعماد أمره يقوم لا أقول على الثبات والسكون بل على الديمومة واللانهائية، مما يؤكد أن تلك الحياة لم تخلق في الأصل للزوال والفناء، وإلا لكان خلقها في حكم العبث الذي لا قصد فيه ولا إرادة، بل أعدت لحياة أخرى أبدية لا نهاية لها، وسرمدية دائمة لا زوال فيها.

وللتدليل على صحة ذلك الاقتران القوى والتلازم البين بين الحياتين، مثل لهما النورسي بهذا المثال:

" هب أنك تسير في طريق، وتشاهد أن عليها فندقاً ضخماً، بناه ملك عظيم لضيوفه، وهو ينفق مبالغ طائلة لتزيينه وتجميله كي يدخل

البهجة في قلوب ضيوفه، ويعتبروا بما يرون.

بيد أن أولئك الضيوف لا يتفرجون إلا على أقل القليل من تلك التزيينات، ولا يذوقون إلا أقل القليل من تلك النعم، حيث لا يلبثون إلا قليلاً، ومن ثم يغادرون الفندق دون أن يرتووا ويشبعوا، سوى ما يلتقطون من صور أشياء في الفندق بما يملكون من آلة تصوير، وكذلك يفعل عمال صاحب الفندق وخدامه حيث يلتقطون حركات هؤلاء النزلاء وسكناتهم بكل دقة وأمانة ويسجلونها.

فها أنت ترى أن الملك يهدم يومياً أغلب تلك التزيينات النفيسة مجدداً إياها بأخرى جديدة للضيوف الجدد، أفبعد هذا يبقى لديك شك في أنَّ مَنْ بنى هذا الفندق على قارعة هذا الطريق، يملك قصوراً دائمة عالية، وله خزائن زاخرة ثمينة لا تنفد، وهو ذو سخاء دائم لا ينقطع، وأن ما يبديه من الكرم في هذا الفندق هو لإثارة شهية ضيوفه إلى ما عنده من أشياء ولتنبيه رغباتهم وتحريكها لما أعد لهم من هدايا". [1]

فالملك العظيم صاحب الفندق الكبير مجاز عن الله تعالى، والفندق الكبير هو الدنيا التي أعدها الله وهيأها بكل ما يدخل البهجة والسرور في نفوس عباده، ولكنهم لا يتمتعون فيها إلا بالقدر اليسير من متعها وأفراحها، ثم يتركونها لغيرهم دون أن يحفظوا في ذاكرتهم منها إلا عدداً محدوداً من الذكريات، أما عمال الفندق وخدامه وهم الملائكة فلا يتركون شاردة ولا واردة مما فعلوه إلا وأحصوها لهم، ودونوها في كتبهم.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 77، 78

وهنا يقفز سؤال: هل هناك شك في أن من خلق هذه الدنيا ألا يخلق عالماً أخر أروع وأبهج وأجمل وأعظم منه:

إن الإجابة البديهية بالإيجاب هي التي أدت بالنورسي إلى تقرير حقيقة واحدة مفادها أن أبسط مقارنة بين الحياتين تقود مباشرة إلى الخروج بتسع قواعد تظهر في مجموعها ذلك الترابط الدقيق بينهما، وهي:

1- "أن هذه الدنيا الشبيهة بذلك الفندق ليست لذاتها، وإنما هي دار ضيافة تملأ وتفرغ، ومنزل حل وترحال، أنشئت بحكمة لقافلة الموجودات والمخلوقات.

2- أن ساكني هذا الفندق هم ضيوف مسافرون، وأن ربهم الكريم يدعوهم إلى دار السلام.

3- أن التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب، إذ لو أذاقتك اللذة ساعة، أذاقتك الآلام بفراقها ساعات وساعات. فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون أن تشبعك لقصر عمرها أو لقصر عمرك. إذن فهذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة وللشكر، وللحض على الوصول إلى تناول أصولها الدائمة، ولغايات أخرى سامية.

4- إن هذه الزينة في الدنيا بمثابة صور ونماذج للنعم المدخرة لدى الرحمة الإلهية في الجنة للمؤمنين.

5- إن هذه المصنوعات الفانية ليست للفناء، ولم تخلق لتشاهد حيناً ثم تذهب هباء، وإنما اجتمعت هنا وأخذت مكانها المطلوب لفترة قصيرة كي تلتقط صورها وتفهم معانيها وتدون نتائجها، ولتنسج

لأهل الخلود مناظر أبدية دائمة، ولتكون مداراً لغاية أخرى في عالم البقاء.

6- إن الإنسان لم يترك حبله على غاربه، ولم يترك طليقاً ليرتع أينما يريد، بل تسجل جميع أعماله وتلتقط صورها، وتدون جميع أفعاله ليحاسب عليها.

7- أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقات الربيع والصيف الجميلة ليس فناء نهائياً، وإنما هو إعفاء من وظائفها بعد إكمالها وإيفائها. وتسريح منها، وهو إفساح مجال وتخلية مكان لما سيأتي في الربيع الجديد.

8- إن الصانع السرمدي لهذا العالم الفاني له عالم غير هذا، وهو عالم باق خالد، ويشوّق عباده إليه ويسوقهم.

9- إن الرحمن الرحيم سوف يكرم في ذلك العالم الفسيح عباده المخلصين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".[1]

ومن الواضح أن القواعد التسع تنصب مجتمعة في معنى واحد وهو أن الدنيا بما فيها من مخلوقات لم تخلق للعدم أو اللاوجود، بل للوجود واستمرار الوجود إلى ما لا نهاية، والمثل التالي يصور وبتركيز شديد ذلك المعنى، يقول فيه النورسي:

" تأمل هذه الزهرة، وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية، أنها تنظر إلينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء، فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافاً من مثيلاتها في الأذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها، وهي إفادة المعنى.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 78،81

فـالزهرة أيضـاً ترحـل بعـد أن تـودع فـي ذاكـرة كـل مـن شـاهدها صورتها الظاهرة، وبعد أن تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها ومحل إدامة بقائها".[1]

وكما يستفاد من المثل، فهناك حقيقة واحدة ذات بعدين متلازمين، ووجهين متشابهين:

أولهما: أن فناء الدنيا بمخلوقاتها هو أشبه بتحريرها من أسر كانت مكبلة فيه.

وثانيهمـا: أن تلـك المخلوقـات تحمـل فـي باطنهـا قـدرة عجيبـة للمحافظة على نوعها، فتترك وراءها دوماً عناصر وأصول بقائها بصور وأشكال كثيرة ومتنوعة.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 80

الفصل التاسع

الوجود

ظاهر الوجود ومعناه

من خصائص وجود الموجودات الثابتة في عالم الإيمان، أن كل موجود منها بعد اختفائه وزواله من الوجود، يذهب وكما يرى النورسي إلى العدم والفناء ظاهراً، ولكن يبقى المعنى الذي استفاده وعبر عنه بوجوده، وتبقى أيضاً هويته وماهيته محفوظة، بمعنى أن الموجود يفقد وجوداً ظاهرياً صورياً، ويكسب مئات من الوجود المعنوي والعلمي.

ومثل لهذه الحقيقة بقوله:

" تعطى للحروف المطبعية ترتيباً معيناً ووضعاً خاصاً كي تطبع صحيفة معينة، فصورة تلك الصحيفة الواحدة وهويتها تعطى إلى صحائف مطبوعة متعددة، وتنشر معاني ما فيها من عقول كثيرة، وبعد ذلك تتبدل أوضاع تلك الحروف وتغير لانتفاء الحاجة إليها، وللحاجة

إلى تنضيد صحائف أخرى بتلك الحروف".[1]

فكل مكتوب إذن قد يكون من حروف كثيرة جداً ومتفرقة، صفت بنظام خاص وترتيب معين به يخرج إلى الوجود، مكتملاً في شكله المعهود، وكاشفاً عن محتواه العلمي، ويمكن منه استنساخ نماذج عديدة، ثم تتبدل بعد ذلك الحروف لتستغل في مكتوب آخر، وهكذا دواليك.

وهذا ينطبق على كل مخلوقات الله. يقول النورسي:

" فإن قلم القدر الإلهي يعطي هذه الموجودات الأرضية ولا سيما النباتية منها. ترتيباً معيناً ووضعاً معيناً، والقدرة الإلهية توجدها في صحيفة موسم الربيع، فتعبر عن معانيها الجميلة، وحيث إن صورها وهوياتها تنقل إلى سجل الغيب، كعالم المثال، فإن الحكمة تقتضي أن يتبدل ذلك الوضع. كي يكتب صحيفة جديدة للربيع المقبل لتعبر عن معانيها كذلك.

والمعنى أن الله تعالى قدر أزلاً وأبداً إيجاد الأشياء وفقاً لنظام تناسبي مضطرد، تخرج به من العدم إلى الوجود، بحيث تكشف بوجودها الظاهري عن معناها وحقيقتها وغاية وجودها، ثم تفنى وتزول مادتها أو شكلها الظاهري، ويبقى مطوياً في عالم الغيب، ثم لتخرج من جديد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة في صورتها ومعناها الأول، بلا تغيير أو تبديل لا في جوهرها ولا أعراضها.

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 379

المقدرة الحياتية

يحمل كل موجود في أصل تكوينه المادي وغير المادي قوة منها يستمد دوام وجوده، وعليها يتوقف استمراريته المتجددة في الوجود، بحيث يبقى بقاء لا فناء فيه. والمثال البارز لهذه الديمومة رواه النورسي بقوله:

" إن زهرة ما تذبل ثم ترحل من الوجود، إلا أنها تترك مئات من البذيرات في الوجود، وتدع ماهيتها في تلك البذيرات، فضلاً عن أنها تترك ألوفاً من صورها في ألواح محفوظة صغيرة، وفي القوى الحافظة التي هي نماذج مصغرة للألواح المحفوظة، فتستقرئ ذوى الشعور التسبيحات الربانية ونقوش الأسماء الحسنى التي أدتها في أطوار حياتها، وبعد ذلك ترحل عن الوجود".[1]

إن الزهرة تحافظ على بقائها المتجدد وثباتها في الوجود، بأمرين:

- بالبذور الحاملة لماهية نوعها، والحافظة لجوهر وجودها.
- وبالصورة والشكل الدال على نوعها، والمميز لها عما عداها من الكائنات اسماً ومعنى.

فالزهرة إذن متجددة الوجود بلا انقطاع، وباقية بقاءً لا فناء بعده. وهكذا، وكما يقول النورسي:

" فإن موسم الربيع المزدان الجميلة على سطح الأرض الشبيه بمزهرة عظيمة، إنما هو زهرة ناضرة تزول في الظاهر، وتذهب إلى العدم، بيد أنه – أي الربيع – يترك الحقائق الغيبية التي أفادها بعدد بذوره، ويترك الهويات المثالية التي نشرها بعدد الأزاهير، ويدع الحكم

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 379

الربانية التي أظهرها بعدد الموجودات، فيترك الربيع كل أنواع الوجود هذه، ثم يغيب عن أنظارنا، زد على ذلك فإنه يفرغ المكان لأقرانه من جموع الربيع التي ستأتي إلى الوجود لتؤدي وظائفها"[1]

يعني أن الربيع كله كالزهرة الزائلة عن ظاهر الوجود، ولكنه يترك بعد ذهابه البذور وما تحمله من معانٍ دالة على ماهيتها، ليعود مرة أخرى ربيعاً جديداً حاملاً معه زهوراً جديدة في أشكالها القديمة ومعانيها المألوفة، وكأن شيئاً لم يكن، ليؤكد بهذه الديمومة المتدفقة حياة وحيوية على مقولة:

" إن ذلك الربيع ينزع عنه وجوداً ظاهرياً، ويلبس ألفاً من الوجود معنى".[2]

فالربيع من حيث الظاهر زائل لا محالة، ولكنه في الوقت نفسه له وجود متجدد في المعنى بلا فناء ولا عدم بعده.

وحدة الوجود

وردت على النورسي مجموعة من الأسئلة عن موضوعات شتى، من بينها سؤال عن منهج محي الدين بن عربي في قضية وحدة الوجود، وعباراته الغامضة عن الروح والتي قال فيها:

" إن مخلوقية الروح عبارة عن انكشافها".[3]

فرد عليه النورسي رداً عاماً جاء فيه:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 380

(2) المكتوبات – النورسي ص 380

(3) اللمعات – النورسي ص 52

" اعلم أن محي الدين بن عربي لا يخدع ولكن ينخدع، فهو مهتد، ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صدق وصواب، ولكن ليس هو الحقيقة".[1]

وقال عن تلك العبارة الغامضة.

" نعم إن الروح من حيث الماهية قانون أمري، ولكن ليست وجوداً خارجياً، فهي ناموس ذو حياة، وقانون ذو وجود خارجي، فالشيخ محي الدين نظر إلى الروح من حيث ماهيتها فحسب، ويرى الأشياء خيالاً حسب مشرب وحدة الوجود".[2]

فمن المعروف أن الروح جوهر علوي موجود في الخارج بالأمر الإلهي، فيكون وجوده زمانياً لا بالخلق، ويظهر فيما له مادة كالأنس وغيرهم، فيكون وجوده آنياً وظرفياً، واكتفى ابن عربي من حقيقة الروح بجوهريتها مجردة عن وجودها الأمري، وذلك تطبيقاً لمنهجه في وحدة الوجود.

وعلق النورسي على منهجه قائلاً:

" ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً، وكان صاحب مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة فانه يلجأ باضطرار إلى تأويلات ضعيفة وتكلف وتمحل ليفسر بعض الآيات الكريمة حسب مشربه ومشهوداته، مما يخدش صراحة الآية الكريمة ويجرحها".[3]

والنتيجة الطبيعية لمنهج ابن عربي وطريقته القائمة أصلاً على الذوقيات والكشفيات هي مخالفته لجمهور أهل السنة في كثير من

---

(1) اللمعات – النورسي ص 52
(2) اللمعات – النورسي ص 52
(3) اللمعات – النورسي ص 52

المسائل، ولما كان الفرق بينه وبينهم شاسعاً، فقد أراد النورسي في رده على المسائل تحقيق أمرين:

- بيان خطأ ابن عربي في تلك المسألة.
- وتوضيح الفرق بين منهجه ومنهجهم.

وذلك من خلال المثل التالي:

" الشمس تشاهد في مرآة، فهذه المرآة هي مظروف الشمس وموضوعها بمعنى أن الشمس توجد فيها من جهة، ومن جهة أخرى تزين المرآة حتى تكون صفتها اللامعة وصبغتها الساطعة.

فإذا كانت تلك المرآة، مرآة آلة تصوير فإنها ستنقل صورة الشمس على ورقة حساسة بصورة ثابتة، ففي هذه الحالة فالشمس المشهودة في المرآة وماهيتها المرتسمة على الورقة وصفاتها وتزيينها المرآة – حتى غدت كأنها صفتها – غير الشمس الحقيقة، فهي ليست شمساً، بل هي دخول تجلي الشمس في وجود آخر.

أما وجود الشمس المشهودة في المرآة، فهو وإن لم يكن عين وجود الشمس الموجودة في الخارج، إلا أنه ظن أنه عين وجودها لارتباطه بها وإشارته إليها".[1]

والمفهوم من المثل بسيط، فالشمس لها مظهران:

الأول: أن تُرى في مرآة، فتكون المرآة مشتملة عليها، أي أن الشمس موجودة من ناحية في المرآة، وموجودة أيضاً من ناحية أخرى كمصدر جمال وحسن للمرآة، فتكون كالصفة لها.

والثاني: عندما تظهر الشمس كصورة مأخوذة بآلة تصوير، فهي في

---

(1) اللمعات – النورسي ص 52،53

هذه الحالة ليست الشمس الحقيقية، بل هي تجل للشمس على الورقة المصورة، وبالتالي فهي تخالف الشمس الموجودة على المرآة، لأن الشمس المرئية في المرآة ليست هي بذاتها الشمس المتألقة في السماء، ولكن قد يعتقد أنها هي.

ومن هنا خلص النورسي إلى النتيجة التالية:

" فإن القول بأن ليس في المرآة غير الشمس الحقيقية، يمكن أن يكون صواباً باعتبار المرآة ظرفاً، وأن المقصود من الشمس التي فيها وجودها الخارجي، ولكن إذا قيل أن صورة الشمس المنبسطة على المرآة – التي أخذت حكم المرآة – والصورة التي انتقلت إلى الورقة الحساسة أنها الشمس فهذا خطأ، أي أن عبارة: ليس في المرآة غير الشمس، تكون عبارة خطأ، وذلك لأن هناك صورة الشمس التي تظهر على المرآة، وهناك الصورة المرتسمة خلفها على الورق الحساس، فكل منها لها وجود خاص بها، فمع أن ذينك الوجودين هما تجلي الشمس إلا أنها ليسا الشمس نفسها".[1]

فعلاقة المرآة بالشمس هي العلاقة التقليدية بين الأصل والصورة، فمن زعم أنه ليس في المرآة غير الشمس الحقيقية. يكون قد وحد بين الأصل والصورة، وهذا بعيد عن الصواب، وخطأ لا جدال فيه. أما إذا جعل من المرآة وعاءاً للشمس الحقيقية أي المنعكسة عليها. يكون قد أصاب الحق، وذلك لأن لكل من الأصل والصورة وجودهما المستقل.

وعقل الإنسان وخياله شبيه بمثال المرآة، وعنه يقول النورسي:

---

(1) اللمعات – النورسي ص 54

" إن المعلومات الموجودة في مرآة فكر الإنسان لها وجهان أيضاً: فهي بوجه علم، وبوجه آخر معلوم. فإذا اعتبرنا الذهن ظرفاً لذلك المعلوم، أصبح ذلك المعلوم معلوماً ذهنياً، فوجوده شيء آخر، وأن اعتبرنا الذهن موصوفاً بذلك الشيء الذي حل فيه أصبح صفة للذهن، وذلك الشيء يكون عندئذ علماً وله وجود خارجي، حتى لو كان لذلك المعلوم وجود وجوهر فسيكون وجوداً عرضياً".[1]

أي أن الأفكار الموجودة في العقل يتحد العلم فيها مع المعلوم، فيحصل من هذا للفكرة الواحدة وجودان، وجود ذهني ووجود خارجي، وكل منهما يختلف في حقيقته عن الآخر. فالوجود الذهني هو وجود فكرة ومعنى، والوجود الخارجي وجود مادي محسوس، فالعلم يأخذ على الدوام أحكام الذهن المعرفية، أما وجوده الخارجي فهو صورة له أو عرض ظاهري.

وتأسيساً على معنى ما ذكره انتقل النورسي لبيان تصور ابن عربي، وذلك من خلال استعراضه لرأيين

الأول رأيه الشخصي الذي قال فيه:

" الكون مرآة، وماهية كل موجود أيضاً، هذه المرايا معرضة إلى الإيجاد الإلهي بالقدرة الإلهية، فكل موجود – من جهة – يصبح مرآة لاسم من أسماء الله يبين نقشاً من نقوشه.

فالذين هم على مشرب ابن عربي قد كشفوا العالم من حيث المرآتية والظرفية والموجود المثالي في المرآة - من زاوية النفي – ومن حيث منعكس صورة ذلك الشيء في المرآة هو عينه، وقالوا: لا

---

(1) اللمعات – النورسي ص 54

موجود إلا الله، دون أن يفكروا بالمراتب الأخرى، فأخطأوا حتى بلغ بهم الأمر أن ينكروا القاعدة الأساسية المعروفة: حقائق الأشياء ثابتة".[1]

فمصدر الغلط عند ابن عربي وغيره من أصحاب الكشف والذوق، ينحصر في أنهم نظروا للموجودات من زاوية وجودها منعكسة أو متجلية على المرآة، أي من زاوية أن ليس لها وجوداً حقيقياً، وإنما هي صورة، فانتهوا إلى مقولتهم المشهورة: لا موجود إلا هو، ويعنون بها أن الوجود الحقيقي هو وجود الله، وما عداه فوجوده كوجود الشيء في المرآة، لا حقيقة له ولا ثبات، في حين أن المعلوم بداهة أن كل موجود له حقيقته المتعينة في الظاهر، لا يؤثر فيها إنكار منكر ولا إثبات مثبت.

أما الرأي الثاني فهو رأي أهل السنة، الذي أورده النورسي في العبارة التالية:

"إن النقوش التي توجد في مرايا الموجودات بقدرة الله وإرادته إنما هي من آثاره تعالى، وهو الذي يوجده، وليس كل موجود هو، حتى يقال: لا موجود إلا هو، إذ للأشياء وجود، وهو وجود ثابت إلى حد ما، وإن كان هذا الوجود وجوداً ضعيفاً كأنه وهمي وخيالي بالنسبة إلى وجوده تعالى، إلا أنه موجود بإيجاد القدير الأزلي وإرادته وقدرته".[2]

إن رأي أهل السنة في مجمله ما هو إلا تقدير لحقيقة بديهية وهي أن كل الموجودات من خلق الله وآثاره وتجليات لأسمائه وصفاته، ويستحيل عقلاً وواقعاً أن يتحد الخالق بالمخلوق والواجد بالموجود،

---

(1) اللمعات – النورسي ص 55
(2) اللمعات – النورسي ص 55

إذ لكل منهما ماهيته المستقلة عن الآخر، وللموجود المخلوق إنَّية وذاتية متعينة في الخارج بها يعرف وعن طريقها يميز، أما كون وجوده آنياً وزائلاً ويعقبه العدم. فإن كل هذه الأحكام لا تجرده من صفة الوجود، ولا من اسم الموجود.

وجود الروحانيات

إن وجود الملائكة والجن والشياطين وسائر الروحانيات من الأشياء المسلَّم بها من غير إعمال النظر، أما إنكار وجودها وعدم الاعتراف بها، فمن الأمور غير المعقولة، ولإثبات وجودها أورد النورسي المثل التالي:

"يتصادف اثنان أحدهما بدوي وآخر حضري، كانا يسيران معاً إلى مدينة عظيمة كاستانبول، وقبل دخولهما المدينة وفي زاوية من زواياها يصادفان مبنى صغيراً وورشة قذرة، فيبصران أن المبنى مملوء برجال مساكين يعملون منهمكين في المعمل القريب، ويلاحظان حول المعمل حيوانات وأحياء أخرى أيضاً تقتات كلٌ بطريقتها الخاصة حسب شرائط حياتها. فمنها ما يأكل النبات وأخرى تأكل الأسماك فقط وهكذا.

وفيما هما يراقبان أحوال هؤلاء، إذا بهما يريان على بعد منها آلافاً من العمارات المزينة والقصور العالية تفصل بينها ميادين وفسح واسعة، إلا أن سكان تلك العمارات الرائعة لا يظهرون لهما. إما لبعدهما عنهم، أو لضعف نظرهما، أو لاختفاء سكنة تلك القصور أنفسهم. أو لانعدام شرائط الحياة التي في هذه الورشة القذرة في تلك القصور العالية.

فالبدوي الذي لم ير المدينة في حياته، قال:

- إن تلك العمارات خالية من أهلها ولا أحد فيها من الأحياء، إذ إنني لا أراهم، وليس هناك ما يشير إلى حياةٍ، كحياتنا أصلاً.

فأظهر بهذيانه هذا حماقته الشديدة.

أجابه صديقه العاقل الرزين:

- يا هذا أما ترى أن هذا المسكن البسيط الحقير مليء بالأحياء، وليس هناك شبر من فراغ حولنا لم يملأ بالأحياء العاملين، فهناك من يبدلهم ويجددهم دائماً ويستخدمهم أبداً". [1]

فساكن البادية الجاهل، وساكن المدينة العالم، وقفا قبل دخولهما المدينة أمام حقيقتين:

الأولى: مبنى صغير الشأن، ومحل به جماعة من العمال منخرطين في عمل مرهق وشاق، ومن حولهم حيوانات ومخلوقات أخرى. وكل منها يأكل الطعام الذي يحفظ له حياته.

والثانية: مدينة كبيرة بها آلاف المباني والقصور والساحات الواسعة، إلا أنهما لم يشاهدا أحداً من سكانها لاعتبارات كثيرة، بعضها يعود إلى عيوب فيهما، والبعض الآخر يعود للساكنين في تلك المدينة.

وبطبيعة الحال فالبدوي لا يقر لجهله بوجود سكان فيها. وذلك لحجة واهية وهي عدم رؤيته لهم، كاشفاً بذلك عن فساد عقله، فأشار إليه الحضري ملفتاً نظره إلى مقارنة بسيطة بين مبنى صغير الحجم كالذي شاهده بنفسه، كيف ضاق بمن فيه، وبين تلك المباني الكثيرة، متسائلاً، أيعقل أن تكون خالية من السكان، وإن لم يرهم هو.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 598،599

أما رد النورسي عليه فجاء فيه:

"فانظر الآن هل من الممكن أن تكون تلك العمارات الرائعة المنتظمة والتزيينات الحكيمة والقصور الباذخة على بعدها عنا خالية من أهلها المتلائمين معها؟ إنها لا بد قد ملئت جميعاً بذوي أرواح لهم شرائط حياة أخرى خاصة بهم. فلربما يأكلون بدلاً من الأعشاب والأسماك شيئاً آخر، فإن عدم رؤيتهم لبعدهم أو لقصر النظر أو لاختفائهم، لا يقيم دليلاً أبداً على عدم وجودهم، إذ إن عدم الرؤية لا يدل مطلقاً على عدم الوجود، وليس عدم الظهور بحجة قطعاً على عدم الوجود".[1]

وقياساً على ذلك أكد النورسي على وجود الروحانيات التي لا يجادل فيها عاقل، فقال:

" هذا الفناء الواسع والسماوات ذات البروج والأنجم والكواكب كلها مليئة بالأحياء، وبذوي الإدراك والشعور، ويطلق القرآن الكريم والشريعة الغراء على أولئك الأحياء الشاعرين والذين خلقوا من النور والنار ومن الضوء والظلام والهواء ومن الصوت والرائحة، ومن الكلمات والأثير، وحتى من الكهرباء وسائر السيالات الأخرى، بأنهم: ملائكة وجان وروحانيات".[2]

وجود الإنسان

افترض النورسي فرضية بسيطة لبيان الفرق بين خلق الله تعالى للإنسان، وبين إحالة خلقه إلى السنن الطبيعية أو الأسباب، فقال:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 599

(2) الكلمات – النورسي ص 560،599

" إن لـم يكـن وجـودك هـذا قـد كتـب بقلـم الواحـد الأحـد القـدير الأزلي، وكان مطبوعاً بمطابع الطبيعة والأسباب، فيلزم عندئذ قوالب طبيعية بعدد ألوف الألوف من المركبات المنتظمة العاملة في جسمك، والتي لا يحصرها العد، ابتداء من أصغر الخلايا العاملة بدقة متناهية، وانتهاء بأوسع الأجهزة العاملة فيه".[1]

والمعنى أن فرضية عدم خلق الله تعالى للإنسان، تقود بالضرورة إلى فرضية وجود خالق وصانع لكل عنصر وجزئية فيه. وبعدد العناصر والتركيبات الداخلة في مكوناته المادية.

وبما أن استحالة كهذا بديهية عقّب النورسي على تلك الفرضية قائلاً:

" ولفهم هذا المحال نأخذ الكتاب الذي بين أيدينا مثالاً، فنقول:

إن اعتقدت أن هذا الكتاب مستنسخ باليد، فيكفي إذن لاستنساخه قلم واحد، يحركه علم كاتب ليدون به ما يشاء، ولكن إن لم يُعتقد أنه مستنسخ باليد ولم يسند إلى قلم الكاتب، وافترض أنه تشكل بنفسه. أو أسندت كتابته إلى الطبيعة، فيلزم عندئذ أن يكون لكل حرف من حروفه قلم معدني خاص به، ويكون عدد الأقلام بعدد تلك الحروف، أي يلزم وجود أقلام بعدد الحروف بدلاً من قلم واحد للاستنساخ، وقد يكون هناك في تلك الحروف حروف كبيرة مكتوب فيها بخط دقيق ما في صحيفة كاملة، فيلزم إذن لكتابة مثل هذه الحروف ألوف الأقلام".[1]

---

(1) اللمعات – النورسي ص 274
(2) اللمعات – النورسي ص 274

فإذا صدّق المرء أن هذا المكتوب قد نقلت صورته حرفاً حرفاً باليد، فلا يحتاج في نسخه سوى قلم واحد في كتابته، أما إذا لم يصدق أنه منقول باليد، ووضع نسخه فرضيات عدة، كأن يكون كتب نفسه بنفسه، أو تولت كتابته الطبيعة نتيجة لخارقة من خوارق العادات أو الأسباب المجردة. فعندئذ تحتاج كل كلمة، بل كل حرف إلى قلم خاص. هذا على فرض مشابهة الحروف لبعضها البعض، أما إذا اختلفت أو كانت متداخلة، فيلزم عندها على حد تعبير النورسي:

" أن يكون لكل جزء من أجزاء كل دائرة من دوائره المذكورة قوالب عديدة بعدد تلك المركبات التي لا يحصرها العد".[1]

ومقصوده أنه كلما افترقت الحروف بعضها عن بعض، وتعددتْ أشكالها وأنواعها، استقلت بذاتها، ومن ثم احتاجت إلى موجد يوجدها على ما هي عليه. وليس لهذا أو ذاك إلا معنى واحد، وهو أننا كلما أوغلنا في إسناد الموجودات ونسبتها لغير الله، ازدادت الفرضيات وتعقدت بحيث لا تفي كلمة الاستحالة وصفاً لها، بل تعد لكثرتها وبعدها عن الفعل والواقع في حكم العبث لا اللّهو ولا اللعب.

وجود الشياطين

توجد في الإنسان كثير من قوى الخير والحق، كامنة فيه كمون الماء في العود الأخضر، قد لا تظهر في كثير من الأحيان إلا بعد جهد ومشقة، ولكن ظهورها منوط بوجود عوامل تبعث على أثارته وحضه

---

(1) اللمعات – النورسي ص 274

وإغرائه بالحركة، وعلى رأس تلك القوى الشياطين، ولولا تلك المجاهدة لظلت وكما يقول النورسي:

" مرتبة الإنسان ثابتة كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الأصناف السامية من الناس التي هي بحكم آلاف من الأنواع في النوع الإنساني".[1]

فوجود الشياطين على هذا فيه خير كثير، فهو الذي جعل من الإنسان إنساناً يعبد الله بالتكليف، أي بمشقة وجهد، وهو في حركة دائبة ينتقل فيها بين الخير والشر، وليس كالملائكة، كما أن وجودهم أدى إلى بروز صفة من عباد الله يتصدون لشرورهم ويصلحون من أمر الناس.

ومثل لهم النورسي بقوله:

" شخص لديه ألف وعشر من البذور، زرعها في التراب، فجعلها تتعرض للتفاعلات الكيماوية، فإذا أنبتت عشر من البذور وأينعت، فإن المنافع الحاصلة منها تفوق بلا شك، خسارة آلاف البذور التي تعرضت للفساد والتلف".[2]

يعني أن الخير القليل الذي يجنيه الزارع من الكم الهائل من الحبوب المزروعة لا يساوي ما ضاع وتلف، بل يزيد عليه كيفاً ونوعاً، بما لا مجال فيه للمقارنة بينهم.

ثم علق على المثل قائلاً:

" وهكذا فإن المنافع والمنزلة والأهمية التي حازتها البشرية من عشرة أشخاص كاملين يتلألئون كالنجوم في سمائها. والذين أخذوا

---

(1) اللمعات – النورسي ص 111

(2) اللمعات – النورسي ص 111

بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وأضاءوا السبل أمامهم وأخرجوهم إلى النور بمجاهدتهم للنفس والشيطان، لا شك أنها تزيل ما يلحق بها من الضرر الناجم من كثرة الداخلين في حمأة الكفر من الضالين الذين يعدون من جنس الحشرات لتفاهتهم ودناءتهم. لهذا فقد رضيت العدالة الإلهية وحكمتها وسمحت الرحمة الربانية بوجود الشياطين وتسلطها".[1]

فصحيح إذن أن وجود الشياطين يلحق بالناس الأذى والضرر، ولكن أذاهم وضررهم عامل مهم وفعّال في ظهور عدد من المصلحين يعملون على هدايتهم لما فيه خير لهم في دينهم ودنياهم، وفي الوقت الذي تتلاشى فيه شرور الشياطين ولا يبقى لها أثر، تظل أعمال هؤلاء نبراساً للناس من بعدهم، مما يبرهن على أن شرور الشياطين وإن كانت جزئية التأثير في غالبها، إلا أن وراءها خير كثير يعم البشر جميعاً.

إيجاد الموجودات

خلص الماديون في تفسيرهم للوجود إلى بعض النظريات التي عدوها من جملة الحقائق العلمية، الثابتة بالتجربة، من بينها النظرية القائلة:

- بأن اجتماع أسباب العالم يخلق الموجودات ويوجدها، ويؤدي إلى تشكيل الأشياء.

(1) اللمعات – النورسي ص 111

ويعتقد النورسي أن مثل هذه النظريات فاسدة من كل وجه، وظاهرة البطلان، ولبيان فسادها وبطلانها روى المثل التالي:

" تحوى الصيدلية مئات الدوارق والقناني المملوءة بمواد كيماوية متنوعة، وقد احتجنا – لسبب ما – إلى معجون حيوي من تلك الأدوية والمواد لتركيب مادة حيوية خارقة مضادة للسموم، فلما دخلنا الصيدلية وجدنا فيها أعداداً هائلة من أنواع ذلك المعجون الحيوي، ومن تلك المادة الحيوية المضادة للسموم، وعندما بدأنا بتحليل كل معجون رأيناه مركباً مستحضراً بدقة متناهية من مواد مختلفة طبق موازين محسوبة. فقد أخذ من تلك القناني: درهم (غرام) من هذه، وثلاث غرامات من تلك، وعشرة غرامات من الأخرى: وهكذا، فقد أُخذ من كل منها مقادير مختلفة، بحيث لو كان ما أخذ من هذه المقادير أقل منها بجزء من هذه المقادير بجزء من الغرام، أو أزيد لفقد المعجون خواصه المميزة.

والآن جئنا إلى المادة الحيوية المضادة للسموم، ودققنا فيها نظراً كيمياوياً. فرأيناها قد ركبت بمقادير معينة أخذت من تلك القناني على وفق موازين حساسة، بحيث إنها تفقد خاصيتها لو غلطنا في الحساب فزادت المواد المركبة منها أو نقصت. بمقدار ذرة واحدة.

نخلص من هذا:

أن المواد المتنوعة قد استحضرت بمقادير مختلفة على وفق موازين دقيقة، فهل يمكن أو يعقل أن يتكون ذلك المعجون المحسوب كل جزء من أجزائه حساباً دقيقاً من جراء مصادفة غريبة، أو من نتيجة تصادم القناني بحدوث زلزال عاصف في الصيدلية يؤدى إلى سيلان تلك المقادير بموازينها المعينة، أو اتحادها بعضها ببعض

الآخر مكوناً معجوناً حيوياً، فهل هناك محال أغرب من هذا وأكثر بعداً عن العقل والمنطق؟ وهل هناك خرافة أخرق منها؟ وهل هناك باطل أوضح بطلاناً من هذا؟ والحمار نفسه لو تضاعفت حماقته ونطق لقال: يا لحماقة من يقول بهذا القول".[1]

حاول النورسي في هذا المثال أن يلفت نظر الماديين إلى حقائق علمية ثابتة بالبرهان والتجربة العملية. وهي أن كل مادة كيماوية تتركب من عناصر مختلفة، وبنسب ثابتة، وحسابات متناهية في دقتها، بحيث إن أي زيادة أو نقصان في أي منها ولو كان ضئيلاً لأدى إلى إفساد كل العناصر ولفقدت التركيبة الكيماوية خواصها المميزة لها، ولم تعد لها أي قيمة علمية.

فهل يمكن بعد هذا كله إحالة تلك التركيبة الكيماوية إلى الصدفة المحضة، أو القول بأنها تشكلت بنفسها، إلى غيرها من العبارات الغريبة والمخالفة للعقل وللحقائق العلمية التجريبية.

وعلى هدى المثال السابق بين النورسي بطلان تلك النظرية واستحالتها العلمية. قائلاً:

" إن كل حي هو مركب حيوي، ومعجون ذو حياة، وإن كل نبات شبيه بترياق حيوي مضاد للسموم، إذ ركب من أجزاء مختلفة ومن مواد متباينة. على وفق موازين دقيقة في منتهى الحساسية، فلا ريب أن إسناد خلق هذا الكائن البديع إلى الأسباب المادية والعناصر، والقول أن الأسباب أوجدته، باطل ومحال وبعيد عن موازين العقل بمثل

(1) اللمعات – النورسي ص 269

بطلان وبعد ومحالية تكون المعجون الحيوي بنفسه من سيلان تلك المواد من القناني". [1]

فإذا كان كل مخلوق ومن حيث مكوناته المادية عبارة عن مركب من عناصر شتى، ومن مواد متنافرة في أصولها، وبنسب وحسابات غاية في الدقة والإتقان، فمن العبث إذن إحالة وجودها إلى الأسباب أو الطبيعة، بل إن استحالة فرضية كهذه، ومناهضتها للعقل والواقع ظاهرة لكل ذي بصر سليم وإدراك واع بحقائق الأمور.

وأخيراً انتهى النورسي إلى القول.

" إِن المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر للحكيم العليم في هذا العالم الكبير الذي هو صيدلية ضخمة رائعة لا يمكن أن يوجد إلا بحكمة لا حد لها، وبعلم لا غاية له، وبإرادة تشمل كل شيء وتحيط بكل شيء، وإلا فما أشقاه من يتوهم أن هذه الموجودات هي نتاج عناصر الكون الكلية". [2]

والمستفاد أن المكونات المادية لكل مخلوق هي بتقدير الله تعالى. أي هي بتحديد وتخصيص كل مخلوق بخواصه وصفاته المميزة له عن باقي الموجودات. وذلك لأن التقدير هو حاصل الإرادة التابعة للعلم. والحكمة التابعة للإدراك والعلم، وَمَنْ يعتقد خالقاً ومكوناً للموجودات غير الله، فهو بلا شك من الضالين الكاذبين.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 270

(2) اللمعات – النورسي ص 270

خلق الطبيعة

من العبارات الأثيرة لدى الماديين عبارة (اقتضته الطبيعة) التي يريدون بها أن هذا الموجود أو ذاك هو من مستلزمات وموجبات الطبيعة، أو بمعنى آخر أن الطبيعة هي التي أوجدته، وهو كما يرى النورسي في حكم المستحيلات المفروض منها، ودلل على ذلك بقوله:

" إن الإتقان والإيجاد المتسمين بالبصيرة والحكمة الظاهرين في الموجودات ظهوراً جلياً لا سيما في الأحياء، إن لم يسندا إلى قلم القدر الإلهي، وإلى قدرته المطلقة، وأسندا إلى الطبيعة العمياء الجاهلة، وإلى القوة يلزم أن توجد في كل شيء قدرة قادرة على خلق الكون كله، وحكمة مدبرة لإدارة شئونه كلها".[1]

فعلى فرض أن دقة الصنعة وأحكامها وروعة الإبداع السائدة في الموجودات، لم تنسب إلى الله، وإنما نسبت إلى الطبيعة، فعندئذ يتوجب أن يتوفر في الطبيعة، ليس فقط العلم والإرادة والقدرة والحكمة، بل أيضاً من العدة والعتاد المعنوي ما لا حصر له لكل مخلوق على حدة، ومثال ذلك:

" أن تجليات الشمس وانعكاساتها الضوئية، وبريق لمعانها المشاهد على قطرات الماء الرقراقة المتلألئة، أو على القطع الزجاجية المتناثرة هنا وهناك على سطح الأرض. مما يخيل للناظر السطحي النظر أنها صور لشميسات مثالية، فإن لم تنسب هذه الانعكاسات واللمعات إلى الشمس الحقيقية التي تطالعنا بشعاعها الغامر، يلزم

---

(1) اللمعات – النورسي ص 275

الاعتقاد بشمس طبيعية فطرية صغيرة ظاهرية تملك صفات الشمس نفسها وتتصف بخصائصها موجودة وجوداً فعلياً في تلك القطعة الزجاجية الصغيرة – التي لا تسع لأدنى شيء – أي يلزم الاعتقاد بوجود شموس بعدد ذرات القطع الزجاجية".[1]

إن سقوط أشعة الشمس أو نورها على عناصر الطبيعة العاكسة لها كالماء والزجاج وغيرهما، يراها ضعاف العقول كما لو كانت شمساً صغيرة، فيصدق عالماً أو جاهلاً بشمس صغيرة لها صفات وخصائص الشمس الحقيقية، ومن ثم يتوجب عليه التصديق والاعتراف بعدد من الشموس يوازي عدد العناصر المنعكسة فيها.

واستناداً على ذلك المثل خلص النورسي إلى القول:

" إن لم يُسند خلق الموجودات والأحياء إسناداً مباشراً إلى تجليات أسماء الله الحسنى الذي هو نور السموات والأرض يلزم الاعتقاد إذن بوجود طبيعة وقوة تملكان قدرة مطلقة وإرادة مطلقة مع علم مطلق وحكمة مطلقة في كل موجود من الموجودات، ولا سيما الأحياء، أي يلزم قبول ألوهية وربوبية في كل موجود".[2]

يعني أن عدم التصديق أو الاعتراف بأن الله هو وحده الخالق والموجد لكل شيء في الوجود، يفضي بالضرورة إلى التصديق والاعتراف بقيام كل موجود على إيجاد نفسه بنفسه، أي التصديق والاعتراف بأنه يملك القدرة والإرادة والعلم على خلق نفسه، ومن ثم فهو يستأهل صفة الألوهية، ويستحق اسم الرب الخالق.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 275
(2) اللمعات – النورسي ص 275

أما من يصدق ويعترف بفكرة كهذه، تضع المخلوق في منزلة مساوية للخالق الواحد الأحد في الألوهية والربوبية، فقد وصفه النورسي بقوله:

" فهذا النمط من التفكير المعوج لهو أشد بطلاناً من أي محال آخر، وأكثر خرافة منه، فالذي يسند ما أبدعه الخالق العظيم من صنعة رائعة دقيقة ظاهرة جلية حتى في أصغر مخلوق إلى يد الطبيعة الموهومة التافهة التي لا تملك شعوراً لا شك أنه يتردى بفكره إلى درك أضل من الحيوان"[1]

والمحصلة الأخيرة أن كل من يتبع هذه الطريقة في التفكير وينهج على منوالها، فقد بلغ انحرافه عن الهدى والحق حداً لا يصدقه عقل، وسقط فكرياً إلى أقصى درجة من درجات السقوط وهي ما دون الحيوان الأعجم.

وظل رأي النورسي ثابتاً لا يتغير في أن إسناد إيجاد الخلق إلى الطبيعة هو في حكم المحال. وخارج عن دائرة العقل، أما من يصدق بذلك الإسناد فقد أخرجه من زمرة العقلاء، ومن لا عقل له فهو والبهيمة سواء وتحقيقاً لهذا المعنى فقد أورد مثالين:

قال في الأول منهما:

" يدخل إنسان بدائي ساذج التفكير، لم يكن يملك أي تصور حضاري مسبق، يدخل هذا الشخص قصراً فخماً بديعاً، يزهو بزينته، ويختال بأرقى ما وصلت إليه الحضارة من وسائل الأبهة والراحة، ويتلألأ بأضوائه في عتمة فلاة خالية موحشة، فيدلف إليه ويدور في أرجائه، فتدهشه براعة بنائه، ونقوش جدرانه، وروعة إتقانه.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 275

وبكل سذاجة تصوره وبلاهته يمنح القصر حياة ويعطيه قدرة تشييد نفسه بغرفه وأبهائه وصوره الجميلة، ونقوشه الأخاذة، لا لشيء إلا لكونه قاصراً عن تصور وجود أحد – خارج هذا القصر – وفي هذه الفلاة يمكنه أن ينسب إليه بناء هذا القصر، لذا فقد طفق يتحرى عن الباني داخل لقصر لعله يعثر عليه بين أشياء القصر، فما من شيء وقع عليه بصره إلا وتردد فيه وشك في كونه قادراً على إيجاد مثل هذا القصر الذي يملأ أقطار النفس والعقل بروعة صنعه وجمال بنائه.

وتقوده قدماه إلى زاوية من زوايا القصر ويعثر فيها فجأة على دفتر ملاحظات كان قد دونت فيه خطة مفصلة لعملية بناء القصر، وخط فيه أيضاً فهرس موجوداته وقوانين إدارة ممتلكاته، ورغم أن ذلك الدفتر كمحتويات ليس من شأنه تشييد القصر وتزيينه، إذ لا يملك يداً يعمل بها، ولا بصيرة يبصر بها، إلا أنه تعلق به إذ وجده متطابقاً بمحتوياته، مع مجاميع أشياء القصر، ومنسجماً مع سير العمل فيه - إذ هو عنوان قوانين الله – لذا قال مضطراً:

" أن هذا الدفتر هو الذي شيد هذا القصر ونظمه وزينه، وهو الذي أوجد الأشياء ورتبها هذا الترتيب ونسقها هذا التنسيق".[1]

فالقصر كما صوره المثل غاية في الروعة والإتقان، وفي منتهى الجمال والكمال، أما أنواره فتشرق من موضعه ذلك في قلب صحراء مقفرة وتتلألأ فتملأ جنبات المكان نوراً وضياءً، ولما كان الذي دخله إنساناً بسيطاً في عقله وضحلاً في تفكيره، فقد اعتقد مشدوهاً بالجوانب الإعجازية لبناء القصر ومبهوراً بدقة الصدفة بأن باني هذا القصر في هذه البرية القاحلة هو داخل القصر لا خارجه.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 279،280

وأثناء بحثه عن ذلك الباني، وجد دفتراً دون فيه المخطط التفصيلي لبناء القصر، والقوانين المنظمة له، وكيفية إدارته، كما اشتمل أيضاً على ما في القصر من أشياء، فهداه نظره الساذج من شدة تطابق المكتوب مع ما في القصر، إلى أن هذا الدفتر هو الذي بنى القصر على تلك الصورة الكاملة الجميلة.

وعلق النورسي على ما انتهى إليه ذلك الإنسان الساذج قائلاً:

" فكشف بهذا الكلام عن مدى عمق جهله، وتأصل حماقته".[1]

يعني أن كل من هو شاكلته ممن يعتقدون عن يقين جازم أن الطبيعة هي الخالقة لنفسها والموجدة للأشياء، هم بلا أدنى تردد جاهلون ليس جهلاً بسيطاً، بل جهلاً مركباً. وذلك لسهولة تصديقهم بشيء هو على خلاف ما هو عليه فعلاً وواقعاً، أما قلة عقلهم وفساد تفكيرهم فمن الصفات الثابتة فيهم واللازمة لهم، وظهرت في أجلى صورها، وبارزة للعيان في إحلالهم الطبيعة محل الله في الخلق والإيجاد.

أما المثال الثاني فتشبيه ويتكون من مقطعين. قال في الأول:

" يدخل إنسان معزول عن عالم المدنية والحضارة، وسط معسكر مهيب، فيبهره ما يشاهد من تدريبات متنوعة يؤديها – بغاية الانتظام والإتقان ومنتهى الطاعة والانقياد – جنود هذا المعسكر، فيلاحظ حركاتهم المنسقة وكأنها حركة واحدة، يتحرك الجميع – فوجاً ولواء وفرقة – بحركة واحدة منهم، ويسكن الجميع بسكونه، يطلق الجميع النار إطلاقاً واحداً، إثر أمر يصدره ذلك الفرد، فحار في أمره، ولم يكن عقله الساذج ليدرك أن قيادة قائد عظيم هو الذي ينفذ أوامره بأنظمة الدولة وأوامر السلطان. فتخيل حبلاً يربط أولئك الجنود

---

(1) اللمعات – النورسي ص 280

بعضهم بالبعض الأخر، ثم بدأ يتأمل خيالاً، مدى أعجوبة هذا الحبل الموهوم، فزادت حيرته وأشتد ارتباكه ثم يمضي إلى شأنه".[1]

فهنا إنسان بعيد عن أنظمة الحضارة ومؤسساتها القائمة على العلم والخبرة والتجارب، رأى ولأول مرة في حياته جيشاً في حالة من حالات الجيش المعروفة، فتحير في حركات الجند المنتظمة، وتقسيماتهم المختلفة وإطاعتهم لفرد واحد إلى غيرها من العلائم المميزة لأنظمة الجيوش، ولكن في حدود فهمه وإدراكه لم يصل عقله إلى افتراض قيادة موحدة وقائد واحد، فانتهى إلى وجود حبل ممتد طويل يربط كل جندي بالآخر وهو سبب لكل ذلك النظام.

وجاء في المقطع الثاني:

" ويدخل جامع آيا صوفيا العظيم يوم الجمعة، ويشاهد جموع المصلين خلف رجل واحد يمتثلون لندائه في قيامهم وقعودهم وسجودهم وركوعهم، ولما لم يكن يعرف شيئاً عن الشريعة الإلهية والدساتير المعنوية لأوامر صاحب الشريعة، فإنه يتصور بأن هذه الجماعة مرتبطة ببعضها البعض بحبال مادية، وأن هذه الحبال قد قيدت حركة الجماعة وأسرتهم، وهي التي تحركهم وتوقفهم عن الحركة".[1]

ورأى الرجل نفسه عند دخوله المسجد يوم الجمعة والإمام يصلي بالناس الانتظام في الحركة واتباع رجل واحد تماماً كالذي رآه من قبل، ولما لم تكن لديه أي معرفة بالإسلام ونظام العبادات فيه، فقفزت إلى ذهنه صورة الحبل المتوهمة أو المتخيلة في ذهنه والتي هي سبب، وأصل لكل ما يصدر عنهم من الحركات.

---

(1) اللمعات – النورسي ص 281

(2) اللمعات – النورسي ص 281،282

فعلق عليه النورسي قائلاً:

" وهكذا يمضي إلى سبيله وقد امتلأ بأخطاء تصوراته التي تكاد تثير الهزء والسخرية حتى لدى أكثر الناس وحشية وهمجية".[1]

والمعنى أيضاً مشابه للمعنى السابق، فمن يعتقد أو يصدق بقدرة الطبيعة على الخلق والإيجاد يصبح مبعثاً لاستهزاء واحتقار وانتقاص ليس فقط من قبل عقلاء الناس. بل أيضاً من رعاعهم وأراذلهم، مما يدل على أن الاستخفاف بهم، والاستهانة بآرائهم يستوي فيه العالم والجاهل.

الأحمق الجاهل

وصف النورسي من ينسب الخلق والإيجاد والحوادث الطبيعية إلى غير الله تعالى، ويسندها إلى الأسباب والمسببات، وإلى السنن الكونية بالجاهل، ليس هذا فحسب:

" بل يظهر أحدهم جهلاً أشد من جهل أبي جهل، إذ يسند حادثة ربوبية مقصودة خاصة يرجعها إلى أحد قوانين الفطرة، وكأن القانون هو الفاعل، فيقطع بهذا الإسناد نسبة تلك الحادثة إلى الإرادة الإلهية الكلية واختياره المطلق، وحاكميته النافذة والتي تمثلها سننه الجارية في الوجود، ثم نراه يحيل تلك الحادثة إلى المصادفة والطبيعة".[1]

وجهل هؤلاء لا يقال له جهلاً باعتبار الاعتقاد، أي اعتقادهم في مشيئة الله الشاملة على خلاف ما هي عليه بالفعل، وإنما هو جهل في حكم الغيّ الذي يدخل في صميم الأفعال لا الأقوال، أي هو جهل ذو

(1) اللمعات – النورسي ص 282

(2) الكلمات – النورسي ص 200

أهـواء. ومـن ثـم فـإن أدق وصـف لحـالتهم تلـك هـو أنهـم ضـالون، ومنقادون لما تحبه وترضاه نفوسهم.

ولأجل هذا شبه النورسي حالة من هذا حاله بقوله:

" فيكون – أي الواحد منهم – كالأبله العنيد الذي يحيل الانتصار الـذي يحـرزه جنـدي أو فرقـة فـي الحـرب. علـى نظـام الجنديـة وقـانون العسكرية ويقطعه عن قائد الجيش، وسلطان الدولة، والأفعال الجارية المقصودة". [1]

ثم مثل لجهل هؤلاء وحماقتهم بقوله:

" إذا مـا صـنع صـناع مـاهر مائـة أوقيـة مـن مختلـف الأطعمـة، ومئـة ذراع مـن مختلـف الأقمشـة مـن قطعـة صـغيره مـن خشـب لا يتجـاوز حجمها قلامة ظفر، وقال أحدهم: إن هـذه الأعمال الخارقة قامت بها تلك القطعة الخشبية التافهة، ألا يرتكب حماقة عجيبة؟

فهذا أشبه بمن يبذر بذرة صلدة وينكر خوارق صنع الصانع الحكيم في خلق الشجرة، بل يحط من قيمة تلك الأمور المعجزة بإحالتها إلى مصادفة عشواء، أو عوامل طبيعية". [1]

ومعلوم بداهـة أن مـن ينسـب تلـك الأعمـال الخارقـة لعوائـد النـاس، ويسندها إلـى شـيء صـغير تافه لا يؤبـه لـه، قـد بلـغ بالفعل من ضعف العقـل وقلـة التمييـز حـداً يسـتأهل عليـه أسـم الأحمـق وصـفته، لأنـه الأحمـق الجاهـل جهـلاً مطبقـاً بـالأمور الجاريـة وفقـاً للعـادة المتكـررة والعرف المتبع.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 200

(2) الكلمات – النورسي ص 200

الفصل العاشر
الآخرة

الإيمان باليوم الآخر

قد يبدو زوال الحياة أو إزالتها بالموت والقتل في ظاهره عدماً محضاً وفناء مطلقاً، لا حياة بعده ولا وجود، مما يحيل العالم إلى مشكلة عصيَّة على الفهم ومحيرة للعقول، ويضفي على الحياة معاني غامضة وملتوية تتساوى في قيمتها مع العدم واللاوجود، ولا مفر من مواجهة ما يترتب على ذلك من خوف وقلق إلا في الإيمان بحياة أخرى خالدة لا زوال فيها، ولا يعقبها عدم.

وساق النورسي حكاية قصيرة تقريباً لتلك الحقيقة وتبسيطاً لمعانيها فقال:

" وقع جندي – في الحرب العالمية – في مأزق عصيب ووضع محيّر، إذ أصبح جريحاً بجرحين غائرين في يمينه وفي شماله، وخلفه أسد هصور يوشك أن ينقض عليه، وأمامه مشنقة تبيد أحبته وتنتظره

أيضاً، زد على ذلك كانت أمامه رحلة شاقة طويلة، رغم وضعه الفظيع المؤلم".[1]

والمقصود أن الأخطار المهلكة والمميتة قد أحدقت بالجندي من كُلِّ جهة، وهو إزاءها ضعيف وعاجز ووحيد، وبينما هو في حالة من اليأس والقنوط، لا يرجو خلاصاً، ولا يطمع في نجاة، إذا برجل:" خيّر كأنه الخضر عليه السلام، يتلألأ وجهه نوراً يظهر عن يمينه ويخاطبه:

- لا تيأس ولا تقنط، سأعلمك طلسمين اثنين – إن أحسنت استعمالهما ينقلب ذلك الأسد فرساً أميناً مسخراً لخدمتك، وتتحول تلك المشنقة أرجوحة مريحة لطيفة تأنس بها، وسأناولك دواءين اثنين، إن أحسنت استعمالهما يصيران جرحيك المنتنين زهرتين شذيتين، وسأزودك بتذكرة سفر تستطيع بها أن تقطع مسافة سنة كاملة في يوم واحد، كأنك تطير، وإن لم تصدق بما أقول فجرّبه مرة، وتيقّن من صحته وصدقه".[2]

فالرجل الصالح سيزود الجندي المشرف على الهلاك بثلاث وسائل تزيل عنه اليأس والقنوط، وتنقذه من الموت المحتم وهي:

- طلسمان مما يستعين بها للتأثير في الأشياء، وذلك لتحويل الأسد إلى فرس ذلول، وآلة الشنق إلى أرجوحة يلعب بها الأطفال.
- ودواءان لمعالجة جروحه المتقيحة.
- وبطاقة تقصر له طول السفر.

وأثناء ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان، فيقول عنه النورسي:

" ثم على حين غرة رأى رجلاً لعوباً دساساً – كأنه الشيطان – يأتيه

---

(1) الكلمات – النورسي ص 26

(2) الكلمات – النورسي ص 26

من جهة اليسار مع زينة فاخرة وصور جذابة، ومسكرات مغرية. ووقف قبالته يدعوه:

- إليّ إليّ أيها الصديق، أقبل لنلْهوَ معاً ونستمتع بصور الحسناوات هذه، ونطرب بسماع هذه الألوان من الأغاني، ونتلذذ بهذه المأكولات اللذيذة. ولكن يا هذا، ما هذه التمتمة التي ترددها؟

- إنه طلسم ولغز.

- دع عنك هذا الشيء الغامض، فلا تعكر صفو لذتنا، وأُنس نشوتنا الحاضرة، يا هذا، وما ذلك الذي بيدك؟

- إنه دواء، إرمه بعيداً، انك سالم صحيح، ما بك شيء ونحن في ساعة طرب وأنس ومتعة،

- وما هذه البطاقة ذات العلامات الخمس؟

- إنها تذكرة سفر وأمر إداري للتوظيف، مزقها، فلسنا في حاجة إلى سفر في هذا الربيع الزاهي.

وهكذا، حاول بكل مكر وخديعة أن يقنع الجندي، حتى بدأ ذلك المسكين يركن شيئاً قليلاً إلى كلامه". [1]

ومن الواضح أن هذا الرجل الموصوف بأسوأ ما في المرء من صفات، والشبيه بالحية الكامنة لفريستها تحت الأرض، والمشكوك في إنسانيته، يريد بكل ما أوتي من مكر وخديعة وإغراء، تجريد الجندي من القوة الوحيدة المعينة والمساعدة له في الخروج من تلك الهوة العميقة، وذلك بمسوغات واهية قد لا تنطلي إلاّ على من هو في حالته المتردية، ولكن:

"فجأة دوى صوت كالرعد عن يمينه يحذره:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 27

- إياك أن تنخدع، قل لذلك الخبيث: إن كنت تستطيع قتل الأسد الرابض خلفي، وأن ترفع أعواد المشنقة من أمامي، وأن تبرأني من جرحيَّ الغائرين في يميني وشمالي، وأن تحول بيني وبين رحلتي الشاقة الطويلة، نعم، إنْ كنت تقدر على إيجاد سبيل لكل هذا فهيا أرنيه، وهات ما لديك، ولك بعد ذلك أن تدعوني إلى اللّهو والطرب، وإلا فاسكت أيها الأبله، ليتكلم هذا الرجل السامي، الشبيه بالخضر ليقول ما يروم".[1]

أراد صاحب ذلك النداء هو الآخر أن يبين للجندي عجز وضعف ذلك الرجل الشبيه بالشيطان، وتحداه إن كان باستطاعته فعلاً، إنجاز ما وعد به الرجل الصالح أمامه، وعلى مرأى منه، وإن لم يستطع فليدعه هو أن يقدم ما فيه سعادته وهناءُه.

ثم فسر النورسي الحكاية الرمزية فقال مخاطباً نفسه ونفس كل مؤمن:

" فيا نفسي الباكية على ما ضحكت أيام شبابها، اعلمي، أن ذلك الجندي المسكين المتورط هو أنت، وهو الإنسان، وأن ذلك الأسد هو الأجل وأن أعواد المشنقة تلك هو الموت والزوال والفراق الذي تذوقه كل نفس، ألا ترين كيف يفارقنا كل حبيب أثر حبيب ويودعنا ليلاً ونهاراً، أما الجرحان العميقان فأحدهما العجز البشري المزعج الذي لا حد له. والآخر هو الفقر الإنساني المؤلم الذي لا نهاية له. أما ذلك النفي والسفر المديد، فهو رحلة الامتحان والابتلاء الطويلة لهذا الإنسان التي تنطلق من عالم الأرواح مارة من رحم الأم ومن الطفولة والصبا ثم من الشيخوخة، ومن الدنيا ثم من القبر والبرزخ، ومن

---

(1) الكلمات – النورسي ص 27

الحشر والصراط، وأما الطلسمان فهما الإيمان بالله وباليوم الآخر، أما ذانك العلاجان:

- فأحدهما التوكل على الله والتحلي بالصبر، أي الاستناد إلى قدرة الخالق الكريم والثقة بحكمته.

- وثانيهما: هو الدعاء والسؤال، ثم القناعة بالعطاء والشكر عليه والثقة برحمة الرزاق الحكيم". [1]

زاوج النورسي في تفسيره لوقائع تلك الحكاية بين الحياة والموت كعنصريين متلازمين، وكل منهما يكمل الآخر، ليبرز من خلال تلك المزاوجة الموت ضمن دائرة واسعة تجمع بين المؤمن وحياته الدنيوية بابتلاءتها الكثيرة، وتوجهه بالعبادة لله، ثم موته ودفنه ونشوره، في صورة جميلة أخاذة، وذلك لأن به وعلى حد تعبير النورسي:

" يخرج الإنسان المؤمن من سجن الدنيا إلى روضة الجنان. إلى روضة الرحمن ذي الجلال، ومن هنا كان الكاملون من الناس يحبون الموت ويطلبونه، حيث رأوا حقيقته". [2]

وحقيقة الموت التي رآها أولئك الكمّل من العباد هي أنه تذكرة سفر تقود المؤمن في رحلة سريعة إلى الدار الآخرة. والمفتاح الوحيد للجنة وأبوابها.

الموت

قد يغفل كثير من الشباب وهم في أول عمرهم، وفي عنفوان قوتهم، وفي ذروة أفراحهم بنضارة الحياة وإشراقها عن كثير من حقائق

(1) الكلمات – النورسي ص 28، 29

(2) الكلمات – النورسي ص 28

الحياة وسننها الطبيعية، وفي مقدمتها الموت، الذي يشاهد كل حي مظاهر الخوف والرهبة منه في الوفيات الحادثة على مدار الساعة.

وفي زيارة لمجموعة من هؤلاء الشباب للنورسي بيّن لهم حقيقة الموت في مثال، قال فيه:

" تصوروا ههنا – مثلاً – أعواداً نصبت أمامكم للمشنقة، وبجانبها دائرة توزع جوائز سخية كبرى للمحظوظين، ونحن الأشخاص العشرة هنا سنُدعي إلى هناك طوعاً أو كرهاً، ولكن لأن زمان الاستدعاء مخفي عنا، فنحن في كل دقيقة بانتظار من يقول لكل منا: تعال، تسلم قرار إعدامك واصعد المشنقة، أو يقول: تعال خذ بطاقة تربحك ملايين الليرات الذهبية".[1]

إن الصورة الخيالية والمفعمة بالحيوية التي رسمها النورسي في أذهان أولئك الشباب، مفادها أن مصير كل إنسان، ومنتهى أمره لا يخرج عن أحد اثنين، إما إلى سعادة دائمة أو شقاء مقيم، ولا ثالث لهما، أو بمعنى آخر، إما الحصول على مكاسب لا حصر لها، أو خسارة لا عوض لها، ولا تعويض فيها.

ثم روى النورسي بعد ذلك قائلاً:

" وبينا نحن واقفون منتظرون إذا بشخصين حضرا لدى الباب. أحدهما امرأة جميلة لعوب شبه عارية تحمل في يدها قطعة من الحلوى، تقدمها إلينا تبدو شهية، ولكنها مسمومة في حقيقتها.

أما الآخر فهو رجل وقور كيس – ليس خباً ولا غراً – دخل على أثر تلك المرأة، وقال:

- لقد أتيتكم بطلسم عجيب، وجئتكم بدرس بليغ، إذا قرأتم

---

(1) الكلمات – النورسي ص 161

الدرس، ولم تأكلوا من تلك الحلوى، تنجون من المشنقة، وتسلمون – بهذا الطلسم – بطاقة تلك الجائزة الثمينة، فها انتم أولاء ترون بأم أعينكم أن من يأكل تلك الحلوى يتلوى من آلام البطن حتى يصعد المشنقة".[1]

والمفهوم أنه في أثناء وقوف الجميع في حالة من الترقب والتردد والحيرة والقلق لا يدرون أيساقون إلى الموت شنقاً أم يتسلمون الورقة الرابحة، دخلت عليهم امرأة فاتنة ومثيرة لا يكاد يستر جسدها شيء، وبيدها قطعة حلوى ظاهرها طيب وحلو المذاق، وفي باطنها سم يودي بالحياة.

عندئذ جاء رجل موصوف بمقدرته الفائقة على تمكين الناس من الوصول إلى ما ينفعهم، واستنباط ما يفيدهم، وقدم لهم عجيبة تنقذهم من المشنقة المنصوبة أمامهم، وفي الوقت نفسه تعينهم على استلام تلك الورقة التي تخول لهم جنى المكاسب الوافرة.

وبما أن الموت حق وسنة ماضية في الاثنين، إلا أن هناك فارقاً كبيراً بين موت من استهوته حلاوة المرأة الفاتنة فأكل منها، وبين موت من لم يأكل منها، بينه النورسي بقوله:

" أما الفائزون ببطاقة الجائزة، فمع أنهم محجوبون عنا، ويبدون أنهم يصعدون منصة المشنقة، إلا أن أكثر من ملايين الشهود يخبرون بأنهم لم يشنقوا، وإنما اتخذوا المشنقة سلماً للاجتياز بسهولة ويسر إلى دائرة الجوائز".[2]

يعني أن الموت عند الأخيرين هو أداة تمكنهم من الوصول إلى

---

(1) الكلمات – النورسي ص 161،162

(2) الكلمات – النورسي ص 162

حيث الأرباح والمكاسب الضخمة، وبالتالي فالموت عندهم ليس موتاً بالمفهوم المادي، بل هو راحة واستراحة، ونهاية لرحلة العمر، وبداية لعمر آخر يمتد إلى ما لا نهاية، وعندها خاطب الراوي الجميع قائلاً:

" فهيا انظروا من النوافذ، لتروا كيف أن كبار المسؤولين المشرفين على توزيع تلك الجوائز ينادون بأعلى صوتهم قائلين.

- إنَّ أصحاب ذلك الطلسم العجيب قد فازوا ببطاقة الجوائز، اعلموا هذا يقيناً كما رأيتم بعين اليقين أولئك الذاهبين إلى المشنقة، فلا يساوركم الشك في هذا، فهو واضح وضوح الشمس في رابعة النهار".[1]

فالعبرة المستفادة من المثل ليست في الموت نفسه، وإنما فيمن يظفر بموته بالبطاقة التي هي مجاز عن الإيمان، وعلى هذا فمن يعرض من الشباب وكما ينصح النورسي:

" عن تلك الملذات المحظورة الشبيهة بالعسل المسموم وضرب عنها صفحاً، وبادر إلى الحصول على ذلك الطلسم القرآني، وهو الإيمان وأداء الفرائض، فإن مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الأنبياء عليهم السلام، وما لا يعد ولا يحصى من الأولياء الصالحين والعلماء العاملين يخبرون ويبشرون بالاتفاق مظهرين آثار ما يخبرون عنه بأن المؤمن سيفوز ببطاقة تكسبه كنوز السعادة الأبدية".[2]

أما مَنْ لم يظفر بتلك البطاقة، فإن موته كارثة، وفناء أبدي ولا مطمع بعده في حياة ثانية، وعن هؤلاء يقول النورسي:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 162

(2) الكلمات – النورسي ص 162

" فإن متع الشباب وملذاته المحظورة شرعاً كالعسل المسموم، وغدا الموت لدى الذي فقد بطاقة الإيمان التي تربحه السعادة الأبدية كأنه مشنقة، فينتظر جلاد الأجل الذي يمكن أن يحضر في كل لحظة، ليقطع الأعناق دون تمييز بين شاب وشيخ، فيرديه إلى حفرة القبر الذي هو باب لظلمات أبدية كما هو في ظاهره".[1]

الإحياء والإماتة

تساءل النورسي لا مستخبراً عن مجهول، ولا مستعلماً عن غامض، وإنما متعجباً ومستغرباً، فقال:

" أمن الممكن للذي أظهر قدرته بإحياء الأرض الضخمة بعد موتها وجفافها، وبعث أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من أنواع المخلوقات، وأظهر عظمة ربوبيته بجعله الموجودات متكاثفة مترافقة، وأولى البشر الأهمية القصوى، أفمن الممكن لمثل هذا القدير الرحيم، ولمثل هذا العليم الحكيم الذي أعطى هذه الأهمية للإنسان أن لا يأتي بالقيامة ولا يحدث الحشر، ولا يبعث البشر أو يعجز عنه".[2]

وقبل أن يبرهن النورسي على إمكانية البعث، وسهولة ويسر القيامة والنشور، روى ثلاثة أمثلة متتالية لمجرد تنبيه الغافل عن غفلته وإيقافه على تلك الحقيقة البديهية، لا للعلم ولا للمعرفة، فقال متسائلاً:

" فيا ترى إن كان ثمة كاتب ذو خوارق يكتب ثلاثمائة ألف كتاب مسحت حروفها ومسخت، في صحيفة واحدة، دون اختلاط ولا سهو

---

(1) الكلمات – النورسي ص 162
(2) الكلمات – النورسي ص 85

ولا نقص، وفي غاية الجمال، ويكتبها جميعاً معاً خلال ساعة، وقيل لك: إن هذا الكاتب سيكتب من حفظه في دقيقة واحدة كتابك الذي وقع في الماء وهو تأليفه. فهل يمكنك أن ترد عليه وتقول: لا يستطيع لا أصدق؟

أو أن سلطاناً ذا معجزات يرفع الجبال وينسفها، ويغير المدن بكاملها ويحول البحر براً، بإشارة منه، إظهاراً لقدرته وجعلها آية للناس. فبينما ترى منه هذه الأعمال، إذا بصخرة عظيمة قد تدحرجت وسدت الطريق على ضيوفه، وقيل لك: أن هذا السلطان سيميط حتماً تلك الصخرة من على الطريق ويحطمها مهما كانت كبيرة، حيث لا يمكن أن يدع ضيوفه في الطريق. كم يكون جوابك هذياناً أو جنوناً إذا ما أجبته بقولك: لا، لا يستطيع أن يفعل.

أو أن قائداً يمكنه أن يجمع من جديد أفراد جيشه الذي شكله بنفسه في يوم واحد، وقيل لك، إن هذا سيجمع أفراد تلك الفرقة وسينضوي تحت لوائه أولئك الذين سرحوا وتفرقوا بنفخة من بوق، فأجبته: لا لا أصدق. عندها تفهم أن جوابك هذا ينبئ عن تصرف جنوني، أي جنون".[1]

ولا شك في أن من تصدر عنه أعمال خارقة للعوائد، ومخالفة لسنن الكون. ومحطمة لنواميس الطبيعة، ومتجاوزة لكل مألوف في الحياة، لا يستبعد منه الإتيان بأي عمل ولو كان من المستحيلات المحيرة للعقول والمزعجة للنفوس، ومن لا يصدق بأعماله، ولا يعترف بأهليته واستعداده لأي فعل، فلا فرق بينه وبين المجنون في شيء.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 86

ومخلوقات الله تعالى كلها هي من قبيل المعجزات الباهرة التي يعجز غير الله عن الإتيان بمثلها أو ما دونها، فهو عز وجل وكما يخبر النورسي مستشهداً بجزء يسير منها:

" الذي يكتب أمام أنظارنا بأحسن صورة وأتمها بقلم القدر والقدرة أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من الأنواع على صحيفة الأرض، مبدلاً صحيفة الشتاء البيضاء إلى الأوراق المتفتحة للربيع والصيف، يكتبها متداخلة دون اختلاط، يكتبها معاً، دون مزاحمة ولا التباس رغم تباين بعضها مع البعض الآخر في التركيب والشكل، فلا يكتب خطأ مطلقاً". [1]

واستناداً على ما مضى فإن من لا يصدق بقدرة الله على البعث والنشور، ويستبعد الحشر وقيامة الأموات، مستنداً على استحالة قبول العقل لها، ومحتجاً بمخالفتها لسنن الوجود، فهو ممن بلغ حظهم من العقل والذكاء وسلامة الفطرة درجة من القلة تجعله ممن يفعل فعل المجانين عن قصد وإرادة، ووعي وتمييز.

الحشر

ليس هناك وقت محدد ولا زمان معروض للحشر، وما ورد في القرآن على أن ظهوره سيكون بغتة. ومن حيث لا يحتسب أحد، وشبهت سرعة ذلك المجيء بلمح البصر عند توجهه نحو المرئي، وذلك لأن لمح البصر من أسرع حركات الجسم وأيسرها، ولكن يوجد نوع من البشر وكما يرى النورسي يضيق ذرعاً بالأخبار الغيبية

---

(1) الكلمات – النورسي ص 86

ولا يسلمون إلا بالأدلة المادية المحسوسة والمشاهدة بالعين المجردة، وذلك حتى يقتنعوا بإمكانية هذا الحدث الخارق لسنن الوجود.

وتحقيقاً لمطلب هؤلاء المعاندين أورد النورسي ثلاثة أمثلة عن عودة الأرواح إلى الأجساد، وإحياء الأجساد، وإنشاء الأجساد وبناؤها، وأخيراً موت الدنيا وقيام الساعة.

فمثال مجيء الأرواح وعودتها إلى الأجساد هو:

" اجتماع الجنود المنتشرين في فترة الاستراحة، والمتفرقين في شتى الجهات على الصوت المدوي للبوق العسكري".[1]

فمن المتبع في أنظمة الجيوش أن الجنود، وبعد قضائهم فترة من الأعمال العسكرية، يؤمرون بالتفرق للراحة والاستجمام، وعند انتهاء وقت الاستراحة، لا يُنَادَى عليهم كل واحد على حدة، بل ينطلق صوت البوق العسكري المعلوم لديهم، عالياً مدوياً إيذاناً بضرورة تجمعهم من جديد.

وشبيه بهذا نفخ إسرافيل في الصور أو البوق يوم القيامة، فإن الأرواح وبمجرد سماعها لصوته المعروف، تعود إلى الأبدان وتحل فيها، وذلك من قبيل التمثيل لكيفية نداء الناس ودعوتهم للحشر، ويتفق من حيث الظاهر مع طريقة جمع الجنود المنتشرين للراحة.

ومثال إحياء الأجساد هو:

" مثلما يمكن إنارة مئات آلاف من المصابيح الكهربائية ليلة مهرجان مدينة عظيمة، من مركز واحد في لحظة واحدة، كأنها بلا زمان، كذلك يمكن إنارة مئات الملايين من مصابيح الأحياء وبعثها

---

(1) الكلمات – النورسي ص 121

على سطح الأرض من مركز واحد. فما دامت الكهرباء وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى وخادمه إضاءة في دار ضيافته، لها هذه الخصائص والقدرة على القيام بأعمالها حسب ما تتلقاه من تعليمات وتبليغات ونظام من خالقها، فلا بد أن الحشر الأعظم سيحدث كلمح البصر ضمن القوانين المنظمة الإلهية التي يمثلها آلاف الخدم المنورين كالكهرباء".[1]

فالسرعة التي يحي الله بها الأبدان شبيهة بسرعة إضاءة مدينة كاملة بألوف المصابيح الكهربائية، بمفتاح صغير، ومن موقع واحد، وفي وقت قصير يحسب ويقدر بلحظة نظر العين، ووصف الله سرعة سريان الحياة في الأبدان بلمعان البرق الخاطف.

ومثل لإنشاء الأجساد بقوله:

" إنشاء جميع الأشجار والأوراق التي يزيد عددها ألف مرة على مجموع البشرية دفعة واحدة في غضون بضعة أيام في الربيع وبشكل كامل. وبالهيئة نفسها التي كانت عليها في الربيع السابق. وكذلك إيجاد جميع أزهار الأشجار وثمارها وأوراقها بسرعة خاطفة، كما كانت في الربيع، وكذلك حشر أمم الحشرات ولا سيما الذباب الذي يفوق عدد ما ينشر منه في سنة واحدة عدد بين آدم جميعهم من لدن آدم عليه السلام.

فحشر هذه الحشرة في كل ربيع مع سائر الحشرات الأخرى وإحياؤها في بضع أيام، لا يعطي مثالاً واحداً، بل آلاف الأمثلة على إنشاء الأجساد البشرية فوراً يوم القيامة".[2]

---

(1) الكلمات – النورسي ص 121
(2) الكلمات – النورسي ص 122

فإيجاد الله تعالى للموجودات، وإحداثه للألوف من المخلوقات مرة أخرى بعد مماتها، وفي جزء لا يتجزأ من الزمان، وبصورها وأشكالها التي كانت عليها من قبل، يعطي مثالاً بسيطاً ونموذجاً فريداً، على إعادة وتكوين الأجساد البشرية، وبالهيئات التي كانت عليها في الحياة، وبسرعة تعادل سرعة أمر الله لها بالتكوين كاملة مستوية الوجود، وفي التو واللحظة.

القيامة

ظلت معاني وصور الحشر والنشور وإخراج الموتى من القبور إحياء للحساب، وفي يوم لا يقدر طوله ولا يحد وقته بنور أو ضياء له بداية ونهاية، بل بنور وضياء يمتد بلا حدود ولا نهايات معلومة. من المعاني والصور التي لم تتقبلها العقول بيسر وسهولة، لا لاستحالة معقوليتها، بل لبعدها عن كل مألوف ومأنوس في الحياة.

ولأجل ذلك حاول النورسي في المثل أو الحكاية التالية أن يبرهن ليس فقط على معقوليتها، بل أيضاً للتأكيد على أنها من موجودة متوارية في الحياة الدنيا، وسارية فيها سريان الروح في البدن، وفي صور وأشكال عديدة ومتنوعة، فقال:

" ذهب اثنان إلى مملكة رائعة الجمال كالجنة (التشبيه هنا للدنيا) وإذا بهما يريان أن أهلها قد تركوا بيوتهم وحوانيتهم ومحلاتهم مفتوحة لا يهتمون بحراستها، فالأموال والنقود في متناول الأيدي دون أن يحميها أحد، بدأ أحدهما – بما سولت له نفسه – يسرق حيناً

ويغصب حيناً آخر مرتكباً كل أنواع الظلم والسفاهة، والأهلون لا يبالون به كثيراً".[1]

إن تفرد تلك المملكة وفرادتها يتمثل في شيوع الأمن والأمان وانتشاره الواسع بين قاطنيها. فلا خوف ولا قلق على شيء من متاعها، وأيضاً في تداول الأرزاق وتبادلها فيما بينهم بالعدل والإنصاف، وبلا ظلم ولا إجحاف لأحد منهم، ولما بدأ أحد هذين الرجلين بسرقة واغتصاب ما هو مشاع أصلاً، نفر منه صاحبه لخبثه وخساسة نفسه، أما الأهالي فلم يهتموا به أو يكترثوا له، فكأنه لا وجود له، عندها قال له صديقه:

" ويحك ماذا تفعل، إنك ستنال عقابك وستلقى في بلايا ومصائب، فهذه الأموال أموال الدولة، وهؤلاء الأهلون قد أصبحوا – بعوائلهم وأطفالهم – جنود الدولة أو موظفيها، ويستخدمون في هذه ببزّتهم المدنية، ولذلك لم يبالوا بك كثيراً. اعلم أن النظام هنا صارم، فعيون السلطان ورقباؤه وهواتفه في كل مكان، أسرع يا صاحبي بالاعتذار، وبادر إلى التوسل".[2]

تضمنت كلمة ذلك الصديق من معاني التوجع عما فعله أكثر من معاني التعجب والترحم، ودارت حول حقيقة لا يغتر كثيراً بمظاهر الشيوع السائدة في هذه الكلمة، فإن وراءه سلطة ونظاماً وقانوناً ورقابة دقيقة على كل حركة، أما الأهالي فهم العاملون فيها، ويتضح من عدم مبالاتهم به، وتجاهلهم لفعله أنهم لا يظهرون نسبتهم للدولة ولا

---

(1) الكلمات – النورسي ص 48

(2) الكلمات – النورسي ص 48

انتماءهم لها. لاعتبارات في طبيعة أعمالهم، وإنْ هو لم يبد اعتذاره على ما فعل، فعليه تحمل تبعات جريمته.

وأدرك الرجل وكما يصفه النورسي سلامة قول صاحبه وصوابه، ولكنه حاد عنه لحماقته وقلة تبصره بعواقب الأمور، فرد عليه قائلاً:

" دعني يا صاحبي، فهذه الأموال ليست أموال الدولة، بل هي أموال مشاعة لا مالك لها، يستطيع كل واحد أن يتصرف فيها كما يشاء، فلا أرى ما يمنعني من الاستفادة منها، أو الانتفاع بهذه الأشياء الجميلة المنثورة أمامي، واعلم أني لا أصدق بما لا تراه عيناي".[1]

فالمبررات التي أدلى بها الرجل في رده على صاحبه ومنحته مطلق الحق في الاستيلاء على الأموال تنحصر في أنه لم يشاهد بعينيه سلطة ولا نظاماً ولا قانوناً يحول بينه وبين التمكن منها. ولا حتى مالك يدافع عنها ويمنعه من تناولها والتمتع بها.

عندها تبين له أن الرجل بلا علم يستند عليه في عمله. وبلا حجة تقوى من موقفه، ومع هذا يسلك معه مسلك العلماء وهو بعيد عنهم، فدار بينهما حوار قصير تساءل في مقدمته:

" وما السلطان فأنا لا أعرفه.

فرد عليه صاحبه:

- إنك بلا شك تعلم أنه لا قرية بلا مختار، ولا إبرة بلا صانع وبلا مالك، ولا حرف بلا كاتب، فكيف يسوغ لك القول: إنه لا حاكم ولا سلطان لهذه المملكة الرائعة المنتظمة المنسقة؟ وكيف تكون هذه الأموال الطائلة والثروات النفيسة الثمينة بلا مالك، حتى كأن قطاراً

---

(1) الكلمات – النورسي ص 48

مشحوناً بالأرزاق الثمينة يأتي من الغيب كل ساعة ويفرغ هنا ثم يذهب، أو لا ترى في أرجاء هذه المملكة إعلانات السلطان وبياناته، وأعلامه التي ترفرف في كل مكان، وختمه الخاص، وسكته وطرته على الأموال كلها. فكيف تكون مثل هذه المملكة دون مالك؟

يبدو أنك تعلمت شيئاً من لغة الإفرنج، ولكنك لا تستطيع قراءة هذه الكتابات الإسلامية، ولا ترغب أن تسأل من يقرأها ويفهمها، فتعال إذن لأقرأ لك أهم تلك البلاغات والأوامر الصادرة من السلطان".[1]

إن الأدلة والشواهد التي ساقها ذلك الصديق العاقل قد برهنت بالفعل على وجود مالك عالم وحكيم وقادر لهذه المملكة، لا تراه العيون ومعروف بالعقل. وأن مظاهر وجوده مبثوثة في كل ركن من مملكته، وفي كل حركة ومتحرك، فسلم المعاند بها تسليم المضطر، ولكنه بقي في نفسه شيء يخصه، فقاطعه متسائلاً:

" لنسلم بوجود السلطان، ولكن ماذا يمكن أن تضره وتنقص من خزائنه استفادتي القليلة هذه؟ ثم إني لا أرى هنا عقاباً من سجن أو ما يشبهه.

أجابه صاحبه:

- يا هذا، إن هذه المملكة التي تراها ما هي إلا ميدان امتحان واختبار وساحة تدريب ومناورة، وهي معرض صنائع السلطان البديعة، ومضيف مؤقت جداً، ألا ترى قافلة تأتي يومياً وترحل أخرى وتغيب، فهذا شأن هذه المملكة العامرة، أنها تملأ وتخلى باستمرار، وسوف

---

(1) الكلمات – النورسي ص 49

تفرغ نهائياً وتبدل بأخرى باقية دائمة، وينقل إليها الناس جميعاً فيثاب أو يعاقب كل حسب عمله".[1]

ومقصوده أن هذه المملكة ليست محل إقامة دائمة، بل هي ممر ومعبر لدار أخرى، الإقامة فيها دائمة ومستمرة، وبالتالي فإن المقيمين فيها إقامة مؤقتة لا يحصيهم العد، ثم يأتي عليهم زمان ينقلون إلى تلك الدار الباقية ليحاسب كل واحد منهم على أعماله.

وختم النورسي روايته للحوار بينهما بقوله:

" ومرة أخرى تمرد صديقه الخائن الحائر قائلاً:

- أنا لا أومن ولا أصدق، فهل يمكن أن تباد هذه المملكة العامرة ويرحل عنها أهلها إلى مملكة أخرى؟

وعندها قال له صديقه الناصح:

- يا صاحبي ما دمت تعاند هكذا وتصر، فتعال أبين لك دلائل لا تعد ولا تحصى تؤكد لك أن هناك محكمة كبرى حقاً، وداراً للثواب والإحسان، وأخرى للعقاب والسجن، وإنه كما تفرغ هذه المملكة من أهلها يوماً بعد يوم، فسيأتي يوم تفرغ فيهم منهم نهائياً وتباد كلياً".[2]

أما الأدلة التي استند عليها على القيامة والثواب والعقاب، فأجملها في قوله:

" لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون لسلطان عظيم مملكة مؤقتة –كأنها دار ضيافة- ثم لا تكون له مملكة أخرى دائمة ومستقرة، ولائقة لأبهته وعظمته ومقام سلطنته السامية.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 49

(2) الكلمات – النورسي ص 49

كذلك لا يمكن بوجه من الوجوه ألا ينشئ الخالق سبحانه عالماً باقياً بعد أن أوجد هذا العالم الفاني.

ولا يمكن أيضاً أن يخلق الصانع السرمدي هذه الكائنات البديعة الزائلة، ولا ينشئ كائنات أخرى دائمة ومستقرة.

ولا يمكن أيضاً أن يخلق الفاطر الحكيم القدير الرحيم هذا العالم الذي هو بحكم المعرض العام وميدان الامتحان والمزرعة الوقتية، ثم لا يخلق الدار الآخرة التي تكشف عن غاياته وتظهر أهدافه".[1]

يعني أنه من غير المعقول ولا المقبول، ولا يتفق مع طبيعة الأشياء أن يخلق الله حياة دنيوية تضم مخلوقات جميلة الصنعة، وآية في الروعة والنظام، وعوالم غاية في الدقة والإعجاز ودالة على قدرته وعظمته، ومع ذلك فهي زائلة لا محالة، ولا يخلق ما يوازيها ويقابلها من حياة أخرى خالدة باقية، لا انتهاء لها ولا زوال فيها. وفيها يتجلى الله بأسمائه وصفاته.

الحياة الآخرة

زود الله تعالى الإنسان – كما هو معروف في العقيدة الإسلامية – بأدوات التمكين كالعقل والعلم والإرادة والقدرة وغيرها ليس فقط لنيل مكاسبه الدنيوية، بل لتعينه كي يحظى بحياة أخرى وعالم آخر، ومثل النورسي لهذا المقصد السامي بقوله:

" أعطى سيد خادمه عشرين ليرة ليشترى بها بدلة لنفسه، من قماش معين فراح الخادم واشتراها من أجود أنواع الأقمشة ولبسها، ثم أعطى

---

(1) الكلمات – النورسي ص 64

السيد نفسه خادماً آخر ألف ليرة، ولكن وضع في جيبه ورقة تعليمات وأرسله للتجارة.

فكل من يملك مسكة من العقل يدرك يقيناً أن هذا المبلغ ليس لشراء بدلة، إذ قد اشتراها الخادم الأول بعشرين ليرة.

فلو لم يقرأ هذا الثاني ما كتب له في الورقة، وأعطى كل ما لديه إلى صاحب حانوت، واشترى منه بدلة – تقليداً لصديقه الآخر – ومن أردأ البدلات، ألا يكون قد ارتكب حماقة متناهية، ينبغي تأديبه بعنف وعقابه عقاباً رادعاً".[1]

كلّف السيد الخادمين بأداء عمل حدده لهما بالاسم، وأعطاهما القدرة والاقتدار على أدائه وإنجازه على الوجه الأكمل وبالدقة المطلوبة، فالأول كُلِّف من قبله مباشرة، في حين الثاني قد حدد له نوع العمل، أو تفاصيل الأداء في مكتوب ليطلع عليه فيما بعد ويعمل بناء على ما ورد فيه.

فإذا لم يعرف الثاني ما في المكتوب، ولا كلّف نفسه مئونة قراءته، مكتفياً بمتابعة زميله فيما فعله، وتقليده فيما أتاه، فيكون بهذا قد أخل بأوجب واجبات التكليف، وهو العلم التام والمعرفة الشاملة بطبيعة ما يراد منه فعله وإنجازه، وعلى الوجه المطلوب.

والسيد في المثال هو مجاز لله تعالى المكلِّف الواحد الأحد، والخادم هو الإنسان المكلَّف الذي لا يكلَّف إلا بعد تزويده بالعدد والآلات التي تعينه على أداء ما كلِّف به وغاية كل تكليف ومقصوده هو الثواب في اليوم الآخر والحياة الثانية، ولأجل هذا نصح النورسي العباد في نهاية المثل قائلاً:

---

(1) الكلمات – النورسي ص 137

" استجمعوا عقولكم، ولا تهدروا رأس عمركم، ولا تبددوا طاقات حياتكم واستعداداتها لهذه الدنيا الفانية الزائلة، وفي سبيل لذة مادية ومتاع حيواني، فالعاقبة وخيمة، إذ تردون إلى دركة أدنى من أخس حيوان، علماً أن رأس مالكم أثمن من أرقى حيوان".[1]

قصر بلا سقف

إن من ينكر البعث والقيام والنشور والسعادة الأبدية، إنما ينزل الله تعالى وكما يصوره النورسي منزلة:

" من يبنى قصراً عظيماً يضع في كل حجر فيه آلاف النقوش والزخاف، وفي كل زاوية فيه آلاف الزينة والتجميل، وفي كل غرفة فيه آلاف الآلات الثمينة والحاجيات الضرورية، ثم لا يبنى له سقفاً ليحفظه".[2]

فعلى الرغم من أن صاحب القصر لم يألوا جهداً في الوصول به إلى حد الكمال، إلا أن القدر القليل الناقص فيه يسمه بسمة القبح، وتظل صفة من أدق الأوصاف المعبرة عن حقيقته الحالية. إن إنجاز جزء كبير من العمل يعد أسوأ من عمل لم يبدأ فيه. أما العمل الناقص فهو في حكم اللعب والهزل. ومعاذ الله أن يصدر عنه العبث أو اللعب أو الهزل.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 137
(2) الكلمات – النورسي ص 90

حياة الشهداء في البرزخ

ينعم الله على الشهداء الذين جادوا بأنفسهم رخيصة في سبيل الله بحياة شبيهة بحياتهم الدنيوية في البرزخ، حياة بلا آلام ولا متاعب ولا هموم، وفيها لا يعلمون أنهم ماتوا أو ارتحلوا عن الدنيا، بل نقلوا إلى عالم يتنعمون فيه بسعادة تامة خالية من الكدورات، ولا يشعرون كغيرهم من الأموات بفراق أهلهم وأحبتهم.

وشبه النورسي سعادتهم تلك بقوله:

" شخصان رأيا في المنام أنهما دخلا قصراً جميلاً كالجنة:

- أحدهما يعلم أن ما يراه هو رؤيا، فاللذة التي يحصل عليها ناقصة جداً، إذ يقول في نفسه، ستزول هذه اللذة بمجرد انتباهي من النوم.

- أما الآخر فلا يعتقد أنه رؤيا، لذا ينال لذة حقيقية ويسعد سعادة حقيقية.

وهكذا يتميز كسب الشهداء في حياتهم البرزخية عن كسب الأموات منها". [1]

إن الفرق الوحيد بين هذين الداخلين لتلك الجنة الصغيرة يكمن في اعتقادهما بنعيمهما وسعادتهما داخلها:

فالأول على يقين بأن ما فيه من سعادة ناتج عن رؤيا منامية، ومن ثم فإن متعته ولذته وإن كانت تامة وكاملة فهي ليست حقيقية، فسرعان ما تنقشع عندَ استيقاظه، ولا يبقى منها شيء.

أما الثاني، فعلى العكس منه، يرى وكأنه في يقظة لا في منام، وأن

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 7

نعيمه حقيقة لا خيال، وسعادته تامة لا نقص فيها، وهو وحده الذي يتمتع بسعادة لا تزول ولا تقبل الزوال.

وحياة الشهداء في البرزخ شبيهة بحياة الرجل الثاني.

العقوبات الكبرى

دارت عدة أسئلة بين الناس حول هزة أرضية شديدة ضربت منطقة ازمير، بلغ بعضها مسامع النورسي، من بينها السؤال التالي:

- لماذا لا ينزل هذا العذاب الرباني والتأديب الإلهي ببلاد الكفار والإلحاد وينزل بهؤلاء المساكين المسلمين الضعفاء؟

فرد بقوله:

" مثلما تحال الجرائم الكبيرة إلى محاكم جزاء كبرى وتعهد إليها عقوباتها بالتأخير، بينما تحسم الجنايات الصغيرة والجنح في مراكز الأقضية والنواحي، كذلك فإن القسم الأعظم من عقوبات أهل الكفر وجرائم كفرهم وإلحادهم يؤجل إلى المحكمة الكبرى في الحشر العظيم، بينما يعاقب أهل الإيمان على قسم من خطاياهم في هذه الدنيا، وذلك بمقتضى حكمة ربانية مهمة".[1]

يتضمن رد النورسي على أن الأمر ليس كما يعتقد الناس، فمثلما أن القضاء البشري يقسم الجنايات وفقاً لمقدار الضرر الناتج عنها، إلى جنايات كبرى وصغرى، ولكل منها محاكم خاصة تفصل فيها، فالكبرى إلى المحاكم الكبرى والصغرى المحاكم الصغرى، وفي حين

---

(1) الكلمات – النورسي ص 196

يتم الفصل سريعاً في الجنايات الصغرى، فإن تنفيذ الحكم في الكبرى يؤجل لفترات تطول.

وبما أن جرائم الكفار وجناياتهم كبيرة. فإن جزاءهم لا يتم ولا ينفذ إلا في محكمة كبرى ككبر كفرهم وإلحادهم، وذلك يوم القيامة، أما ما يصيب المؤمنين من عقوبات ربانية في حياتهم الدنيوية، فهو تكفير وتطهير لهم من ذنوبهم وما اقترفوه في حق الله وحق أنفسهم.

جهنم

إذا كان الإيمان يحمل في طياته بذرة صغيرة للجنة، فإن الكفر يحمل نواة صغيرة لجهنم، وإذا كانت الجنة ووجودها ثمرة طبيعية للإيمان، فإن جهنم هي أيضاً ثمرة طبيعية للكفر، ليس هذا فحسب، بل إن الكفر سبب في وجود جهنم لخلقها، مثال ذلك:

" لو كان هناك حاكم صغير ذو عزة وغيرة وجلال بسيط، وقال له رجل فاسد الخلق متحدياً: إنك لا تقدر على تأديبي، ولن تقدر عليه، فلا شك أنه سيبنى سجناً لذلك الشقي ويلقيه فيه، ولو لم يكن هناك سجن". [1]

فذلك الرجل سيء الخلق والأخلاق، بلغت به الجرأة وقلة الأدب حد التطاول على ولي نعمته، بأن واجهه بعجزه وقلة حيلته وعدم قدرته على عقابه، وذلك لإساءته له وتطاوله عليه. فمن البديهي أن أقل عقوبة يوقعها هي إيداعه الحبس، ولو لم يكن هناك مكان يحبس فيه لبنى له ذلك المكان.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 592

وعمل الكفار لا يختلف في مجمله وتفصيله عن عمل ذلك الرجل عديم الأخلاق، فالكافر وكما يقول النورسي:

" يكذب مَنْ له العزة المطلقة والغيرة المطلقة، والجلال المطلق، ويسند إلى القدير المطلق العجز، ويتهمه بالكذب والعجز، فهو بكفره يتعرض لعزته بشدة، ويمس غيرته بقوة، ويطعن في جلاله بعصيان، فلا شك لو لم يكن لوجود جهنم أي سبب كان، وهو فرض محال، فإنه سبحانه يخلق جهنم لذلك الكافر، الذي يتضمن كفره هذا الحد من التكذيب وإسناد العجز ويلقيه فيها".[1]

ملك الجنة

ينعم الله تعالى على بعض أهل الجنة ملكاً بقدر الدنيا كلها ومئات آلاف من القصور ومئات آلاف من الحور العين، فلو كان الإنسان جماداً أو مخلوقاً نباتياً أو حيوانياً، لما كان يملك تلك الكثرة الكاثرة من القصور والحور ولا كانت تليق ولكن الإنسان معجزة من المعجزات الإلهية الباهرة، بحيث لو أعطيت له الدنيا بثرواتها ولذائذها وفي هذا العمر القصير فلا يشبع.

إن الإنسان في الجنة يملك استعدادات لا نهاية لها، فيطرق باب رحمة غير متناهية، بلسان احتياجات غير متناهية، فلا ريب أن نيله لنعم إلهية غير متناهية معقول وحقيقي، وخير مثال ساقه النورسي لبيان تلك الحقيقة هو:

" إن لكل بستان من البساتين الموجودة في بارلا صاحبه ومالكه،

---

(2) الكلمات – النورسي ص 592

كما هو الحال في بستان هذا الوادي، إلا أن كل نحلة وطير وعصفور في بارلا يستطيع القول: إن جميع بساتين بارلا ورياضها متنزهاتي وميدان جولاني، بالرغم من أنّهُ تكفيه حفنة من قوت. أي أنه يضم بارلا كلها في ملكه، و لا يجرح حكمه هذا اشتراك الآخرين معه".[1]

والمفهوم واضح وهو أن من حق كل مالك لروضة أو بستان أن يدعى ملكيته له، وله مطلق الحرية ضمن حدود ملكيته التصرف فيه، ولا يتعدى إلى حقوق الآخرين، أما الطيور والعصافير والنحل فهي وحدها التي تتصرف فيها جميعاً كما لو كانت هي المالكة لها، بل بإمكانها الإدعاء بأنها المالكة الحقيقية لها، ولا أحد بقادر على منعها من التمتع بها، مع أن كمية قليلة للغاية من خيراتها تفي باحتياجاتها اليومية.

والإنسان مثله مثل تلك الطيور يمكنه أيضاً القول:

" إن خالقي قد جعل لي هذه الدنيا كلها بيتاً، والشمس سراجاً والنجوم مصابيح، والأرض مهداً مفروشاً بزرابي مبثوثة مزهرة".[2]

أما حاله في الجنة فلا يختلف عن حاله في الدنيا، فيمكنه كما بدأنا القول معاشرة مئة ألف من الحور العين، ويتلذذ بمئة ألف نوع من أنواع اللذائذ في وقت واحد، فكل ذلك يليق بتلك الجنة الأبدية غير مقيدة الملكية، وملائم تماماً مع الرحمة الإلهية المطلقة.

---

(1) الكلمات – النورسي ص 590

(2) الكلمات – النورسي ص 590

نعيم الجنة

سئل النورسي:

"يحضر أعرابي مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم لدقيقة واحدة فيكسب محبة الله، ويكون معه صلى الله عليه وسلم في الجنة، حسب ما ورد في الحديث الشريف (المرء مع من أحب) فكيف يعادل فيض غير متناه يناله الرسول مع فيض هذا الأعرابي؟ كيف يتساوى الجميع في التمتع بنعيم الجنة مع تفاوتهم الكبير في العمل والأجر واختلافهم البين في المراتب والمنازل عند الله؟".

فأجاب:

" نشير إلى هذه الحقيقة السامية بمثال:

رجل عظيم أعد ضيافة فاخرة جداً في بستان مزهر رائع الجمال، وهيأ موضعاً في منتهى الزينة والإبداع، جامعاً لجميع أنواع المطعومات التي تحس بها حاسة الذوق، شاملاً جميع المحاسن التي ترتاح إليها حاسة البصر، ومشتملاً على جميع الغرائب التي تبتهج قوة الخيال، وهكذا وضع فيه كل ما يرضى ويطمئن كل حاسة من الحواس الظاهرة والباطنة.

والآن يذهب صديقان معاً إلى تلك الضيافة ويجلسان جنباً إلى جنب على مائدة واحدة. في مكان مخصص، ولكن أحدهما يملك حاسة ذوق ضعيفة لا يتذوق إلا شيئاً قليلاً من تلك الضيافة، ولا يرى كثيراً من الأشياء، لأن بصره ضعيف، ولا يشم الروائح الطيبة، لأنه فاقد لحاسة الشم، ولا يفهم خوارق الأشياء لعجزه عن إدراك غرائب الصنعة، أي لا يستفيد من تلك الروضة الرائعة، ولا يذوق من تلك

الضيافة العامرة إلا واحداً من ألف، بل من مليون فيها، وذلك حسب قابلياته الضعيفة.

أما الآخر فلأن جميع حواسه الظاهرة والباطنة وجميع لطائفه من عقل وقلب وحس كاملة مكتملة، متفتحة متكشفة بحيث إنَّ جميع دقائق الصنعة من ذلك المعرض البهيج، وجميع ما فيه من جمال ولطائف وغرائب، يتحسَّسُهَا ويتذوقها، مع أنه جالس مع الرجل الأول". [1]

والحكاية الرمزية واضحة، فالرجل ذو العظمة والأبهة أعد مأدبة كبيرة لضيوفه، وفر لهم فيها كل أسباب المتعة والجمال، وعلى هذه المأدبة جلس صديقان:

الأول: حرمته حواسه الضعيفة، وقلة علمه ومعرفته من خيرات المائدة، اللّهم إلا جزءاً يسيراً لا يكاد يساوي شيئاً.

أما الثاني: فقد ساعدته حواسه النشطة وإدراكه الواسع العميق على التمتع بمباهجها بلا حدود، مع أنه جالس إلى جوار صديقه.

ثم علق النورسي على المثل قائلاً:

" فلئن كان هذا حاصلاً في هذه الدنيا المضطربة المؤلمة الضعيفة ويكون الفرق بنيهما كالفرق بين الثرى والثريا، فلا بد أن يأخذ كل أمرئ على وفق استعداده، رغم كونه مع من يحب، فالجنان لا تمنع أن يكونا معاً بالرغم من تفاوتها، لأن طبقات الجنة، كل منها أعلى من الأخرى، إلا أن عرش الرحمن سقف الكل، إذ لو بنيت بيوت متداخلة حول جبل مخروطي، كل منها أعلى من الآخر، كالدوائر المحيطة بالجبل، فإن تلك الدوائر تعلو الواحدة على الأخرى، ولكن لا تمنع

(1) الكلمات – النورسي ص 588

الواحدة الأخرى عن رؤية الشمس، فنور الشمس ينفذ في البيوت كلها، كذلك الجنان شبيهة بهذا المثال إلى حد".[1]

والمقصود بيّن بنفسه، فالله تعالى لا يحرم أحداً من نعيم الجنة، وكل عبد ينال نصيبه بقدر عمله ورضا الله عنه. صحيح أن الجنة على طبقات ومراتب، ولكنها لا تمنع أحداً مما فيها من سعادة وأفراح، مثلها في ذلك مثل الشمس التي يتسلل ضوؤها إلى كل البيوت على الرغم من تداخلها وارتفاع بعضها وانخفاض الآخر.

لقاء الأحبة

يذهب النورسي – وعن تجربة شخصية – إلى أَنَّ الاهتمام البالغ الحد بالدنيا، والتعلق الشديد بها، قد يحيل حتى اللحظات البسيطة بالأفراح، إلى آلام موجعة وأحزان دائمة. ومثل لهذه الحقيقة بقوله:

" هب أنه في هذه القرية (بارلا) رجلان اثنان:

أحدهما قد رحل تسعة وتسعون بالمائة من أحبته إلى استانبول، وهم يعيشون هناك عيشة طيبة جميلة، ولم يبق منهم هنا سوى شخص واحد وهو أيضاً في طريقه إلى الالتحاق بهم، لذا فإن هذا الرجل مشتاق إلى إسطنبول أشد الاشتياق بل يفكر بها. ويرغب في أن يلتقي الأحباب دائماً، فلو قيل له في أي وقت من الأوقات، هيا اذهب إلى هناك، فإنه سيذهب فرحاً باسماً.

أما الرجل الثاني فقد رحل من أحبته تسعة وتسعون بالمائة، ويظن أن بعضهم فني، ومنهم من انزوى في أماكن لا ترى فهلكوا وتفرقوا

(1) الكلمات – النورسي ص 588،589

حسب ظنه. فهذا الرجل المسكين ذو داء عضال يبحث عن أنيس وعن سلوان حتى عند سائح واحدٍ بدلاً من أولئك جميعاً، ويريد أن يغطي به على ألم الفراق الشديد".[1]

فالرجل الأول لم يبق له حيث يقيم من أحبته أحد، ومن ثم فهو حريص أشد الحرص على اللحاق بهم، بل هو في حالة نزاع نفسي دائم إلى السفر حيث يقيمون، والالتقاء بهم بأسرع وسيلة ممكنة.

أما الثاني فقد مات من أحبته من مات، وتشتت الباقي في أنحاء الأرض، ولذلك فهو وحيد يعاني من مرض لا شفاء منه، ويسأل على الدوام من يخفف عنه آلام الوحدة والفراغ ويؤنسه في حياته الكئيبة الموحشة، حتى ولو كان من الغرباء.

ثم خاطب النورسي نفسه قائلاً:

" فيا نفسي، إن أحبتك كلهم وعلى رأسهم وفي مقدمتهم حبيب الله صلى الله عليه وسلم، هم الآن في الطرف الآخر من القبر، فلم يبق هنا إلا واحد أو اثنان، وهم أيضاً متأهبون للرحيل، فلا تديرنّ رأسك جفلة من الموت خائفة من القبر، بل حدّقي في القبر وانظري إلى حفرته بشهامة واستمعي إلى ما يطلب، وابتسمي بوجه الموت برجولة، وانظري ماذا يريد؟ وإياك أن تغفلي فتكوني أشبه بالرجل الثاني".[2]

إن فراق الأحبة بالموت، والرغبة الشديدة في اللحاق بهم، والشوق الدائم لرؤيتهم، لا ينبغي أن يخيف أحداً من الموت أو القبر. حتى لا تتحول حياته إلى جحيم لا يطاق، بل يجب عليه مواجهته بحزم

---

(1) الكلمات – النورسي ص 192

(2) الكلمات – النورسي ص 192

وشجاعة، وبفرح وابتهاج، إذ هو الوسيلة الوحيدة إلى لقائهم، وإلا سيكون كالرجل الثاني، فيقع ضحية لمرض لا دواء له، ولا شفاء منه.

مشاهد الأعمال في الجنة

يعتقد النورسي أن أعمال المؤمن الدنيوية هي مبعث لفرحه وسعادته في الآخرة، وستكون من غير شك محل تذكر وتذاكر بين إخوانه، وموضوع تفاكر بينهم. وليس من المستبعد أن يتمنى الواحد منهم رؤية تلك الأعمال ومشاهدتها كما حدثت بالفعل، مثلما كان يشاهد الأفلام السينمائية في دنياه ويستمتع بمناظرها.

ويستند النورسي في إمكانية تلك المشاهدة على أن الحياة هي أصلاً دار متعة ومتاع، فيقول:

" فما دام الأمر هكذا فالجنة التي هي دار اللذة ومنزلة السعادة توجد فيها لا محالة المناظر السرمدية لمحاورات الأحداث الدنيوية ومناظر أحداثها".[1]

وهو يشبه لما مضى على ما هو جار في الدنيوية فيقول:

" إن أهل المدنية يلتقطون صور الأوضاع الغريبة والجميلة ويهدونها إلى أبناء المستقبل، تذكاراً لهم، كما هو على شاشة السينما، فيمنحون نوعاً من البقاء لأوضاع فانية، ويدرجون الزمان الماضي ويظهرونه في الزمان الحالي وفي المستقبل".[2]

يعني أن تصوير أحداث ومناظر بعينها يحفظها من الضياع، فتبقى ذكرى جميلة لأيام ولت ومضت، وكذلك الحال مع الأحداث الدنيوية:

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 380
(2) المكتوبات – النورسي ص 381

" فبعد قضاء حياة قصيرة، يدون صانعها الحكيم غاياتها التي تخص عالم البقاء في ذلك العالم، كذلك يسجل الوظائف الحياتية والمعجزات السبحانية التي أدوها في أطوار حياتها في مناظر سرمدية".[1]

وعلى هذا فمثلما يستعيد أهل الدنيا ذكرياتهم فيما حفظوه من صور ومناظر للحظات قصيرة وقفوها أمام آلات التصوير، كذلك يحفظ الله أعمالهم ووقائع حياتهم، تماماً كما تحفظ الأفلام التسجيلية، وتعرض عليهم في الجنة كجزء لا يتجزأ من مباهج الجنة وأفراحها.

مملكة السموات

لو حاولنا تقدير مساحة وحجم مملكة السماوات، ولو بالمقاييس البشرية العادية واستناداً على المعروف والمعلوم منها، لخلصنا إلى نتيجة غاية في البساطة وهي أنها تبلغ المنتهى في البعد مع المنتهى في القرب، فلا بداية للأولى، ولا نهاية للثانية، فيما يفيد أنها جمعت بين طرفين متباعدين وفي تساوق عجيب، تقف عنده مقدرة العقل الادراكية عاجزة على التصور عاجزة.

ولئلا يظن الظان أن هذه المملكة الربانية بعيدة عن فهم العقل وتعقله، فقد حاول النورسي تقريبها للأذهان بمثلين متشابهين، فقال في الأول:

" هب أن الدائرة العسكرية لحكومة تقع في شرقي البلاد، ودائرتها العدلية في الغرب، ودائرة المعارف في الشمال، ودائرة الشؤون الدينية

---

(1) المكتوبات – النورسي ص 381

في الجنوب، ودائرة الموظفين الإداريين في الوسط، وهكذا..

فعلى الرغم من البعد بين دوائر هذه الحكومة، فإن كل دائرة لو استخبرت الأوضاع فيما بينها بالتلفون أو التلغراف ارتباطاً تاماً: عندها تكون البلاد كلها كأنها دائرة واحدة هي دائرة العدل، أو الدائرة العسكرية أو الدينية أو الإدارية وهكذا".[1]

يعني أن وسيلة اتصال صغيرة كالهاتف وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة تجعل هذه الوحدات الحكومية المتباعدة زماناً ومكاناً متقاربة فيما بينها تقارباً شديداً، فينظر إليها كما لو كانت في متناول اليد، وتحت الرؤية المباشرة للعين.

وجاء في المثل الثاني:

" يحدث أحياناً أن دولاً متعددة ذات عواصم مختلفة، تشترك معاً في مملكة واحدة بسلطات متباينة من حيث مصالحها الاستعمارية فيها أو لوجود امتيازات خاصة بها، أو من حيث المعاملات التجارية وغيرها، فكل حكومة عندئذ ترتبط بعلاقة مع تلك الرعية من حيث امتيازاتها، على الرغم من أنها رعية واحدة وأمة واحدة، فإن معاملات تلك الحكومات المتباينة – والتي هي في غاية البعد – تتماس وتتقارب كل منها مع الأخرى في البيت الواحد، بل تشترك في كل إنسان".[2]

والمعنى مشابه لمعنى المثل الأول، فتلك الدول مختلفة العواصم ومتعددة المراكز الإدارية، ومتباينة الأهداف، ومتباعدة في المساحات،

---

(1) اللمعات – النورسي ص 451
(2) اللمعات – النورسي ص 451

قد قربت بينها المنافع الدنيوية، قرباً ليس فقط زمانياً ومكانياً، بل أيضاً قربة نسب ورعاية، حتى وصلت وكما في تعبير النورسي حدود المشاركة في البيت الواحد. بل المشاركة في كل إنسان، أي أن المصالح جعلت من البعد المتناهي بين تلك الدول داخل منظومة واحدة قريبة من بعضها قرباً يمكن لمسه باليد الواحدة. وعلى ضوء هذين المثلين قال النورسي:

" إن مملكة السماء التي هي في غاية البعد، من حيث العاصمة والمركز، فإن لها هواتف معنوية تمتد منها إلى قلوب الناس في مملكة الأرض، فضلاً عن أن عالم السماوات لا يشرف على العالم الجسماني وحده، بل يتضمن عالم الأرواح وعالم الملكوت، لذا فعالم السماوات يحيط بجهة بعالم الشهادة تحت ستار".[1]

فمملكة السماء التي تتراءى لنا في اتساع مداها وطول مساحتها. أنه لا مجال للوصول إلى قلبها ونقطة ارتكازها، هي في حقيقة أمرها قريبة جداً إلى القلوب والنفوس، وذلك عن طريق وسائل اتصال في منتهى اللطافة والشفافية والسرعة المتناهية، وذلك القرب الشديد ليس مقصوراً على الإنسان وحده، بل يمتد ليشمل كل العوالم التي تشارك الإنسان في الوجود، روحية كانت أم مادية.

والسلام

---

(1) اللمعات – النورسي ص 452

الفهرس

تمهيد **3**

الفصل الأول **7**

الله جل جلاله **7**

بسم الله 7

اسم الله الأعظم.. 13

وجود الله.. . 16

واحدية الله ووحدانيته وأحديته................................ 19

تجلى اسم الفرد.. 28

التوحيد.. ... 30

الربوبية.. ... 33

الحكم العدل.. 35

قدرة الله.. .. 38

التعريف بالله.. 41

خلق الله.. ... 46

دقة الصنعة الإلهية.. 51

الأسماء والصفات.. 57

المبارزة.. ... 62

قرب الله وبعده.. 64

حركة الذرات.. 69

الفصل الثاني.. .... **73**

القرآن... 73

إعجاز القرآن... 73

أعظم إعجاز القرآن................................ 77

سمو القرآن... 79

بلاغة القرآن.. 84

الحقيقة المطلقة................................ 86

حقائق القرآن... 89

خدمة القرآن.. 90

حكمة القرآن وحكمة الفلسفة................................ 94

الفصل الثالث.. . 101

محمّد 101

نور محمد 101

شخصية الرسول المعنوية................................ 103

علاقة محمد بالله عز وجل................................ 106

معجزة محمد 115

ظهور معجزات محمد على الكائنات.......................... 117

فضائل أصحاب محمد 118

الفصل الرابع.. .. 121

الإيمان.. 121

نور الإيمان.. 121

أثر الإيمان... 126

أعلى مراتب الإيمان................................ 131

الانتساب.. 135

الحقائق الإيمانية.. 138
ثمرات المعراج.. 140
عدم الإيمان.. 144
الإيمان والكفر.. 146
الكافر.. .. 149
الفصل الخامس.. 153
العبادة.. 153
العبادة والسجود.. 153
النية.. 158
الدعاء.. ... 161
الصلاة.. .. 162
الصارف عن الصلاة.. 169
الحمد لله.. 170
التوكل.. .. 172
صبر النفس على العبادة.. 175
الطاعة والمعصية.. 177
فرح الله.. . 181
الوعيد.. .. 182
وعيد الله على الذنب الصغير.. 185
التجارة الرابحة.. 187
البدعة.. ... 191
الذنوب والآثام.. 192
التنبيه الرباني.. 195

إدامة الإخلاص.. 196
الابتلاء.. . 200
شكوى المريض... 203
الفصل السادس.. 205
السلوك.. 205
الحرص والقناعة... 205
عداء المؤمن لأخيه... 210
الصلح... .. 212
أخلاق النورسي... 213
التعارف والتعاون.. 217
كفران النعمة... 218
حب الجاه... 220
الخوف.. . 224
المصائب.. 227
اختلاف أهل الحق واتحاد أهل الباطل.............................. 229
احترام الناس للنورسي.. 233
الفصل السابع.. . 237
الإنسان... 237
الإنسان.. . 237
حب البقاء.. 238
فساد الإنسان... 240
ارتفاع الإنسان وسقوطه... 242
اعتماد النفس على ذاتها.. 246

تعبير الرؤيا:.. 247
مصير الحضارة الأوربية............................... 251
الفصل الثامن... .. 257
الدنيا... 257
حقيقة الدنيا.. 257
الدين والدنيا.. 263
حب الدنيا.. 272
فناء الدنيا وبقاء الآخرة................................ 275
الفصل التاسع... . 281
الوجود... 281
ظاهر الوجود ومعناه.................................. 281
المقدرة الحياتية.. 283
وحدة الوجود.. 284
وجود الروحانيات.. 290
وجود الإنسان.. 292
وجود الشياطين.. 294
إيجاد الموجودات.. 296
خلق الطبيعة.. 300
الأحمق الجاهل.. 306
الفصل العاشر... . 309
الآخرة.. 309
الإيمان باليوم الآخر................................. 309
الموت... .. 313

الإحياء والإماتة.. 317
الحشر... .. 319
القيامة... .. 322
الحياة الآخرة.. 327
قصر بلا سقف... 329
حياة الشهداء في البرزخ................................ 330
العقوبات الكبرى.. 331
جهنم.. ... 332
ملك الجنة... 333
نعيم الجنة.. 335
لقاء الأحبة.. 337
مشاهد الأعمال في الجنة.............................. 339
مملكة السموات... 340